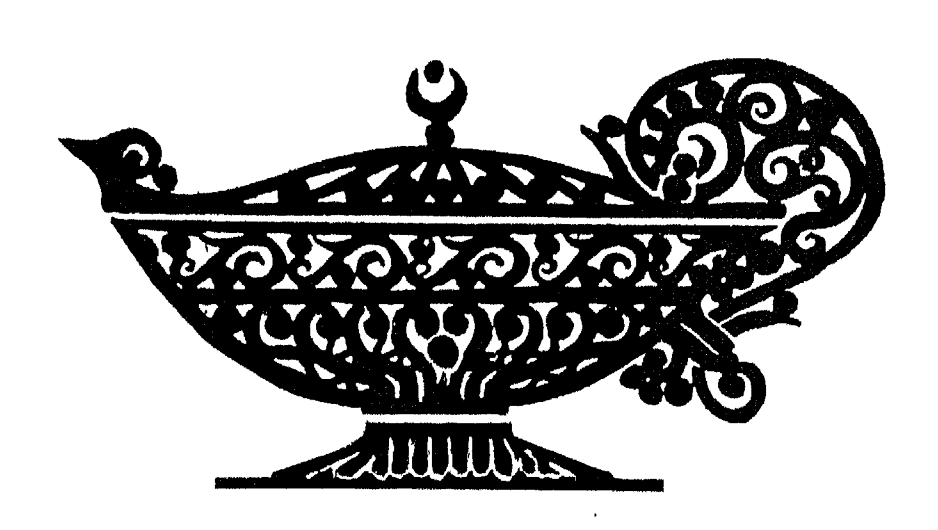
جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

من قادة الفكر الصوفي الإسلامي..

السيد ابراهيم الدسوقي

بقلم: أحمد عز الدين عبد الله خلف الله





جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

من قادة الفكر الصوفي الإسلامي..

السيد ابراهيم الدسوقي

بقلم : أحمد عز الدين عبد الله خلف الله

القاهرة
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م



بسم الله الرحمن الرحيم

وصل اللهم صلاة كاملة وسلم تسليما تاما على من أرسلته رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ٠

وبعد ، فان السيد « ابراهيم الدسوقى « رضى الله تعالى عنه ، من قادة الفكر الصوفى البارزين فى العالم الاسلامى ، وهو فى تصوفه انما ينحو الناحية التطبيقية للاسلام كما بينه وفصله أمام الهداة صلوات الله وسلامه عليه ، وكما عاشه الصفوة من خلق الله عز وجل ، والخيرة من عباده الذين اعتصموا بحبل الله تعالى فخصهم من رحمته بما شاء ، وقسم لهم من العلم به والفهم عنه بما قسم ، وفتح لهم فى مشاهدات كمالاته فتحا مبينا يبهر العقول ويخطف الابصار ٠

فهو من أعلام الصوفية وأئمتهم الذين أحيوا مبادىء التصوف الخالص ، تلك المبادىء التى تعبر عن روح القرآن العظيم وجوهر السنة المشرفة ، فتحيط بحقائق الوجود وتحيلها الى مظاهر للقرب أو ألسن ناطقة بالحكمة ، وينابيع تتفجر منها اسرار المعرفة تفجيرا يشعل الحب الالهى المقدس فى القلوب فتسمو بالانسان الى حياة الصفاء والطهارة ، وتشرح صدره للايمان ، وتذيقه حلاوة المعرفة : وعندئذ تشرق الكمالات الالهية على أرض النفس فتتلألأ مشرقة بجمال كمال أنوار « فان لم تكن تراه فانه يراك » فلا يصفو للانسان وقت ، ولا يطيب له عيش الا فى الانس بالله تعالى ، ويسرى هذا الصفاء فى أوقاته فلا تخلو لحظة منها عن مشاهدة أو الهام أو ذوق ، أو وجدان .

ولكننا نادينا بوجوب دراسة المدارس الصوفية الشهيرة دراسة منهجية دقيقة تفتح للعلماء ابوابا جديدة فى آفاق العلم ، فكل مدرسة منها لها معانيها المبتكرة فى علوم الشريعة ، ولها مناهجها التربوية التى تفوق بكثير احدث المدارس التربوية المعاصرة سواء من ناحية فلسفة التربية او أهدافها أو

أصولها أو أساليبها ، كما تمدنا بدراسات عالمية خصبة فى مبادىء العلوم النفسية ، وهى دراسات أثبتت الخبرات والتجارب والعلوم المعاصرة أنها ذات أهمية حيوية فى صحة الفرد النفسية والعلاقات الانسانية .

والمدارس الصوفية ترسى قواعد الاخلاق العملية على أساس متين يرتكز على التخلق بالخلق القرآنى ، والطهارة من الاشراك بالله تعالى فى جميع الحركات والسكنات ، ومراقبته عز وجل فى كل شأن من شئون الوجود النفسى لتصبح الاعمال خالصة له تعالى ، خالية من شوائب العاهات الخلقية كالنفاق والرياء والغش والحقد ، ولا يصح ذلك الا اذا كانت القيم مصدرها الاهتداء بهدى المثل الانسانى الاعلى صلوات الله وسلامه عليه ، وحينئذ يكون السلوك مبنيا على دوافع وانفعالات سليمة مطابقة لسعادة الانسان وخير المجتمع .

وهذا هو الاساس الاول لبناء مجتمع قوى تسوده العلاقات الاجتماعية المبنية على أرفع ألوان الادب الانسانى ، كالايثار والبذل والتضحية والسعى لسعادة الغير .

ومن السهل تقييم هذا المنهج لو درسناه جنبا الى جنب مع أحدث النظريات أو المناهج الاخلاقية فى علم الاخلاق المقارن .

فالمدارس الاخلاقية : مثل مدرسة ما وراء الطبيعة ، والمدارس العقلية كمدرسة الواجب ، والمدارس التجريبية ، كالنفعية والتطورية والوضعية والانثروبولوجية ، والمدارس المادية : كالمدرسة الحيوية والسلوكية المبنية على الفعل المنعكس الشرطى ، كلها لم تستطع أن تفعل شيئا فى المشكلة الاخلاقية ، وكل ما فعلته أى مدرسة منها : أنها أضافت مشكلة جديدة الى المشاكل السابقة لها ، وبرهنت من الناحية التطبيقية على أنها جميعا نظريات نسبية صالحة للصواب والخطأ بحسب ظروف تطبيقها . وبحسب ادراك المؤيدين أو المعارضين لها .

هذه الصورة المشرقة للتصوف جعلت كل من يدرسه دراسة صادقة جادة يحنى رأسه اجلالا لمكانة الصوفية فى الفكر الانسانى : يقول ماسينيون : « ان رجال المعرفة الصوفية فى الاسلام كانوا دائما النماذج التى تقدم لنا الصورة الحية للمفكرين الكبار فى الاسلام » (١) .

---

(١) مقدمة كتاب اللمع : ص : ٩ .

ويقول الشاعر محمد اقبال : ((ان الاسلام عند الصوفية يأخذ طابعا من الجمال والكمال والانسانية العالية والاخوة العالمية لا نجده فى اسلام الفقهاء او المتكلمين .

ولكن التصوف ابتلى بمن يدرسه دراسة لا تمت الى الصوفية بأية صلة ، اذ يبدأ الباحث من هؤلاء بقضية مسلمة خاطئة : يختلط فيها التصوف بالجوع والعطش والسلبية والحرمان ، وفريق آخر يختلط عليه التصوف الحق بالتصوف الذى يدعيه كل محتال : فيصبح التصوف فى نظره مرادفا للتضليل والغش ، والبعض يدرس التصوف على أنه غاية وهدف للصوفى .

وهذه كلها افكار هامشية خاطئة ،يبطلها أمرواضح للناس جميعا وهو أن الصوفى الصادق لا هدف له الا العمل بالكتاب والسنة ، ولا يحيد عن هذا النبع المقدس ، ويبرأ ممن حاد عنه قيد شعرة . فهو لا يطلب المكاشفات ولا يطلب العلوم اللدنية ، انه لا يطلب الا الله عز وجل فى جميع شئونه .والعلوم الصوفية كلها وهبية ذوقية ، فكيف يتصنع ويتكلف ليتلقاها ! .

ولا يطعن فى التصوف وجود متصوفة أدعياء ، فالادعياء موجودون فى كل فن أو علم أو حرفة ، ولم يبطل وجودهم كل ما يمت الى الفنون أو العلوم أو الحرف .

هذا وقد سجلنا فى الباب الخامس مختارات من أقوال هذا القطب الصوفى ، وحرصنا على تسجيلها من أوثق المصادر لتكون شريطا ناطقا على لسان قائلها يبين لنا بوضوح منهج المدرسة الصوفية البرهامية فى القرن السابع الهجرى .

ولابد أن نذكر أن أكبر عقبة واجهتنا اثناء البحث ، هى عدم وجود مراجع أصيلة افردته بالترجمة اذا استثنينا كتاب الشيخ جلال الدين الكركى « لسان التعريف بحال الولى الشريف »ويمتاز صاحب هذا المؤلف بأنه من كبار العلماء المؤلفين الصوفية فى القرن العاشر الهجرى ، وأنه من الاساتذة المشهورين فى الطريقة البرهامية ، وقد مكث فترة طويلة شيخا للمسجد البرهامى بدسوق ، فكان أولى من يقوم بتعريفنا بالقطب الدسوقى ، ولهذه الاسباب قمت بتحقيقه وتقديمه للنشر .

وفيما عدا هذا المرجع : ترجم له المؤلفـون فى كتب التاريخ أو الطبقات أو التصوف دون أن يفردوه بالترجمة ، وكانت العقبة فى هذا الصدد أن المراجع أما مخطوطة وأما مصورة فى معظمها .

ولعلنا بتقديم هذا المؤلف نوفى بعض ما علينا من واجب نحو علم من الاعلام الذين كان لهم أثرهم الفكرى العميق فى جميع أنحاء العالم الاسلامى .

الباب الأول

نســـبه ونشـــأته



نسـب ونشـأته

أجمع علماء الانساب والمؤرخون على اتصال نسب القطب الدسوقي بالامام الحسين السبط رضي الله تعالى عنه : شأنه في ذلك شأن أقطاب الطرق الاربعة في شرف الاصل ، فالسيد أحمد الرفاعي والسيد أحمد البدوى حسينيان .

والسيد عبد القادر الجيلانى ، والسيد أبو الحسن الشاذلى حسينيان .

ولا يطعن فى صحة النسب وجود خلافات بين المؤرخين فى أعمدة النسب ، اذ انها خلافات اعتدناها في علم الانساب ، وهى خلافات عرضية لا جوهرية : وهى ترجع الى أن بعض الناقلين قد يخلطون ما بين الاسم واللقب والكنية ـ وكلها مسميات لعلم واحد ـ فمنهم من يجعل ذلك لشخصين ، ومنهم من يعتبرها أسماء لثلاثة أشخاص ، ومنهم من يفطن الى الحقيقة بالنسبة لفرد من أفراد سلسلة النسب ويقع فى الخطأ بالنسبة لفرد آخر ، ويأتى ناقل آخر فينقل الخطأ كما هو أو يعدل فيه .

وهناك خلافات من نوع آخر وهى ترجع الى أن الناقل قد يختصر فى عمود النسب بحذف أحد الاباء فيشيع هذا الحذف عن طريق نقل غيره عنه .

ثم يأتى دور المؤلفين الذين يدونون ما يجدونه فى المراجع المخطوطة التى يعتمدون عليها فيبدأ الخلاف بينهم بحسب المراجع من جهة وبحسب اختلاف النسخ من جهة أخرى ، ومن هنا يبدأ الخلط فى سلسلة النسب .

والواقع أن كل ما يذكر فى عمود النسب نقلا عن المصادر المعتمدة فهو صحيح ، وانما يرجع الخلاف للاسباب التى أشرنا اليها : ولتطبيق ذلك على عمود نسب القطب الدسوقى نقول :

١ ـ جده رضى الله تعالى عنه هو السيد على قريش بن محمد أبو الرضا ، فنقل البعض هذا الاسم وجعله : أبو الرضا السيد على قريش ، كما هو فى

مسرة العينين للشيخ حسن شمة ، وتابعه على ذلك الشيخ الابيارى فى مختصره لمسرة العينين ٠

٢ ـ ومن ابائه رضى الله تعالى عنه أبو الطيب محمد ، فنقله البعض على انه اسمان ، فقال : محمد بن أبى الطيب ، كما هو فى مسرة العينين والطبقات الكبرى ٠

٣ ـ ومنهم موسى القاسم أو موسى أبو القاسم ، وعند السيد مرتضى الزبيدى موسى بن القاسم ٠

٤ ـ ومنهم ابو القاسم بن جعفر الزكى ، وعند الامام الوترى والمشهدى والطبرى الحسينى انه أبو القاسم الزكى ٠

يقول الشيخ عبد القادر الطبرى الحسينى فى هذا الصدد : ؟ اختلاف الاقوال لا يضر بأنساب الاشراف : فان كل الانساب الشريفة ما خلا أئمة أهل البيت مختلف فيها على الغالب اختلاف رواية لا يطعن عند العـــالم المتشرع (١) بتلك الانســـاب » .

وبمقارنة جميع المصادر التى بين ايدينا نذكر اتفاقها على النسب التالى :

١ ـ الامام الحسين السبط رضى الله عنه ٠

٢ ـ الامام على زين العابدين .

٣ ـ الامام محمد الباقر ٠

٤ ـ الامام جعفر الصادق ٥ ـ الامام موسى الكاظم ٠

القسم الاول :

٦ ـ الامام على الرضا ٠

٧ ـ الامام محمد الجواد ٠

٨ ـ الامام على الهادى ٩ ـ السيد جعفر الزكى ٠٠

---

(١) كشف النقاب عن انساب الاربعة الاقطاب : ص ٣ .

القسم الثاني :

٩ ــ السيد جعفر الزكى   ١٠ ــ السيد أبو القاسم (موسى)

١١ ــ السيد عبد الخالق ٠

١٢ ــ السيد عبدالله (الكاتم أو الكاظم أو الملثم) ٠

١٣ ــ السيد محمد الطيب [أو أبو الطيب] ٠

١٤ ــ السيد عبد الخالق ٠

١٥ ــ السيد على زين العابدين ٠

١٦ ــ السيد محمد أبو النجا ٠

١٧ ــ السيد محمد أبو الرضا ٠

١٨ ــ السيد على قريش   ١٩ ــ السيد عبد العزيز ابو المجد ٠

٢٠ ــ السيد ابراهيم الدسوقى (١) ٠

ولسهولة الاشارة الى أوجه الخلاف بين الروايات قسمنا عمود النسب الى مجموعتين : المجموعة الاولى وتضم الاباء من ٦:٩ ، والثانية من ٩:١٧ ٠ وفيما عدا ذلك فلا خلاف فيه مطلقا ٠

١ ــ أوجه الخلاف فى القسم الاول ،

ا) جعفر الزكى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا ، كما فى الجوهرة ، والطبقات الكبرى ، وطبقات الفقهاء للمذيلة لى المدنى ، ومسرة العينين ومختصره للابيارى ، وبحر الانساب وحديقة الاولياء لخواجه زاده أحمد حلمى ، والسيد محمد مرتضى الزبيدى ، الا أنه أثبت جعفر المصدق بدلا من جعفر الزكى ٠

ب) الزكى بن على بن حسن العسكرى بن جعفر بن على الرضا ، كما فى منة الوهاب للحسن القادرى ٠

(١) للعارف السيد محمد عبد الرحيم النشابى قصيدة تسمى « الحصن الفخيم » ضمنها نسب القطب الدسوقى طبقا لهذا الترتيب ، وهى فى مجموع الاوراد له ص : ٧٣ ــ ٨١ ٠

جـ) جعفر بن عبد الخالق بن أبى القاسم لزكى بن على بن محمد الجواد ابن على الرضا . عند الإمام الوترى والمشهدى والطبرى الحسينى .

٢ ــ أما القسم الثانى فالخلاف فيه بين الأ· ·ر كما يلى :

أ) أبو النجا بن عبد الخالق بن القاسم بن جعفر [الامام الوترى والمشهدى) .

ب) أبو النجا بن زين العابدين بن عبد الخالق بن محمد بن أبى الطيب بن عبدالله الكاتم بن عبد الخالق بن أبى القاسم بن جعفر الزكى (عدد الاباء تسعة) : رواية الشعرانى والحسن بن حسين القادرى (مع اختصار اسم جعفر الزكى بحذف جعفر) والشيخ حسن شمة فى مسرة العينين (عبدالله الكاتم جعله محمدا الكاتم ، وبدلا من أبى القاسم قال موسى القائم) ، والمذيلة لى المدنى فى طبقاته (بدلا من أبى الطيب قال الطيب ، وبدلا من عبد الله الكاتم قال عبد الله الكاتب) .

جـ) ناجى بن زين بن محمد بن عبد الله الملثم بن عبد الخالق بن أبى القاسم بن جعفر الزكى ، رواية الجوهرة والكتب التى نقلت عن كتاب الجوهرة ، وجملة الاباء هنا سبعة .

د) محمد أبو النجا بن على زين العابدين بن عبد الخالق بن محمد ابن محمد بن عبد الخالق بن موسى بن القاسم بن ادريس بن جعفر المصدق (جملة الاباء عشرة) وهى رواية السيد مرتضى الزبيدى .

ونلاحظ انها خلافات لا تخرج كلها عن الاسباب التى ذكرناها ولا تؤثر مطلقا فى جوهر النسب .

« أول من استقر من أسرة القطب الدسوقى »
بدسوق مع كلمة عن دسوق

يقول السيد عبد القادر الطبرى (١) : ((ولم أقف على ترجمة أول من اســتقر من أجداد القطب الدسوقى بدسوق)) وكلامه يوهم أن الاسرة قد استقرت قديما ببلدة دســـوق .

(١) كشف النقاب عن انساب الاربعة الاقطاب : ط القاهرة سنة ١٣٠٩ ص : ١٤ .

الا أن الوقائع تدل على أن أول من نزل من أسرته بدسوق هما والداه وقد قرر الشيخ حسن شمة (١) فى شرحه لحزب القطب الدسوقى أن والده قدانتقل الى دسوق من قرية مرتص الواقعة على الضفة الغربية للنيل ·

ووالده هو العارف أبو المجد عبد العزيز (أو عبد المجيد) وقد وصفه المؤلفون بالولاية ، وهو من أصحاب العارف الكبير محمد بن هـــــارون السنهورى ، ولا يبعد أن يكون قد اجتمع بالامام الشهير أبى الحسن الشاذلى وتلقى عنه الطريق ، اذ كان الامام الشاذلى يزور هذه النواحى ليجتمع مع أصحابه ومريديه فيها . وسيأتى تفصيل ذلك فى علاقة القطب الدسوقى بالشاذلية ·

الا أن والد القطب الدسوقى لم يقطع صلته بالقرية التى جاء منها حتى توفى بها وله مزار مشهور بها ، فيكون انتقاله الى دسوق ليس انتقال استيطان وانما ارتبط بها ارتباط اقامة استدعتها مصالحه وروابط أهل الطريق مع أخوانه ·

فهل كانت والدته من دسوق ؟ ومن هى والدته ؟

يقول الجلال الكركى : « ولقد أخبرنى من أثق به من علماء العصر أن والدة استاذنا هى السيدة فاطمة ابنة ولى الله تعالى الشيخ أبى الفتح الواسطى قدس الله سره » (٢) .

وممن صرح بذلك : الشيخ عبد القادر الطبرى اذ يقول أن « أمه فاطمة الصالحة الولية العابدة بنت القطب الكبير العارف الشيخ الجليل أبى الفتح بن أبى الغنائم الواسطى نزيل الاسكندرية أحد أجلاء خلفاء السيد احمد الكبير الرفاعى رضى الله عنه » (٣) .

ومن قرر هذا ، العارف الشيخ حسن شمه الفوى .

ولكن اذا كانت وفاة الامام أبى الفتح الواسطى نحو سنة ٥٨٠ هـ ، فلا يجوز أن تكون ابنته مباشرة ، لطول المدة بين مولد القطب الدسوقى ووفاة

---

(١) مسرة العين بشرح حزب أبى العينين ـــ طبع بولاق ـــ ص ٤ .
(٢) لسان التعريف فى ١١/ب .
(٣) كشف النقاب : ص ١٤ .

الامام أبى الفتح الواسطى · فهى اما أن تكون من ٥٨٠ ـ ٦٣٣هـ لو أخذنا بالرواية المستبعدة التى تزعم بأن مولد القطب الدسوقى ٦٣٣هـ ·

أو أنها من ٥٨٠ ـ ٦٥٣هـ ، لان تاريخ مولده فعلا هو سنة ٦٥٣هـ · وحينئذ تكون حفيدته وليست ابنته ، ولكنها نظرا لكونها ترعرعت فى بيت جدها التبس الامر على من روى أنها ابنته ·

الا أننا نشك فى أن هذا هو تاريخ وفاة الامام أبى الفتح الواسطى بدليل أن جميع تلامذته من كبار رجال القرن السابع الهجرى مثل عبد السلام القليبى وجامع الفضلين الدنوشرى والعارف على المليجى ، وبعضهم توفى فى أواخر القرن السابع مثل الامام عبد العزيز الدرينى سنة ٦٩٤ هـ ، ولا يصح لهؤلاء الاخذ عنه من الناحية الزمنية الا اذا كانت وفاته فى القرن السابع الهجرى فى نصفه الاول ·

وعلى هذا الاساس تكون والدة القطب الدسوقى ابنته مباشرة ولا لبس فى هذا ·

والروايات تثبت أنها أصلا من الاسكندرية ، وعلى ذلك فان والد القطب الدسوقى ، يعطى حكم النازح الى دسوق ، اذ لم يثبت أن أحدا من أفراد أسرته من ناحية الاب أو الام توفى بدسوق ·· أما القطب الدسوقى نفسه فهو دسوقى مولدا ونشأة ووفاة ·

دســـــوق

يظن البعض أن لفظ دسوق أطلق على البلدة المعروفة بهذا الاسم بعد وفاة القطب الدسوقى · فتكون نسبته اليها محدثة ، وهذا وهم لا مبرر له · اذ أن كتب البلدان تثبت أن لفظ دسوق أطلق على هذه الناحية قبل ظهور القطب الدسوقى : فقد ذكرها العالم الجليل الاسعد (١) بن ماتى فى كتابه قوانين

---

(١) هو الوزير الاسعد بن مماتى (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ) من أهم رجال العصر الايوبى وقد اسند اليه السلطان صلاح الدين ديوان الجيش وديوان المال واستمر كذلك على عهد العزيز ابن صلاح الدين ـ وكان فوق خبراته الادارية عالما جليلا ، ومؤلفا محققا ، ترك نحوا من خمسة وعشرين مؤلفا فى مختلف العلوم والفنون كالفقه والتراجم والسير والادب والادارة : وأهمها كتاب : قوانين الدواوين الذى يعتبر من أهم وثائق العصر الايوبى لمكانة مؤلفه وقد تولت نشره الجمعية الزراعية سنة ١٩٤٣ وقام بجمعه وتحقيقه الدكتور عزيز سوريال ·

وكانت بين الامير بهاء الدين قراقوش (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) ـ وهو أشد أمراء صلاح الدين اخلاصا وكفاءة ـ وبين الاسعد بن مماتى حزازة دفعت هذا الكاتب الفذ الى التهكم من هذا الامير فى كتابه الذائع الصيت (الفاشوش فى أحكام قراقوش) مما جعله سخرية للاجيال ، مع أنه كان من اكفأ القواد وأبرعهم فى عصره ـ وقد صاغه الاسعد بن مماتى فى هذا الاسلوب الفكاهى اللاذع لينبه على اخطاء الامير ويتخلص من مضايقاته له ·

الدواوين (١) الذى الفه فى القرن السادس الهجرى ، وقد عد دسوق أثناء ذكره لاعمال الغربية .

وكان زمام ناحية دسوق فى القرن الثامن الهجرى ٩٥٢ فدانا منها خمسون فدانا (٢) رزقة والباقى للمقطعين — من رجال الجيش — وكان خراجها ٢٧٠٠ دينار (٣) .

وقد ضبط السيد مرتضى الزبيدى (٤) لفظ دسوق على وزن صبور ثم قال : « وقد يضم أوله : قرية كبيرة عامرة من أعمال مصر واليها ينسب سيدى ابراهيم الدسوقى صاحب المقام العظيم الكائن بها ، وهذا القطب هو سبب عمرانها وشهرتها » .

ولفظ دسوق (بفتح أوله) له أصل عربى : فالدسق (محركة) امتلاء الحوض حتى يفيض ، وملات الحوض حتى دسق أى امتلا حتى ساح ماؤه .

والديسق الحوض الملان ويطلق على وعاء من أوعية العرب ، والخوان من فضة الخ .. وأدسقه : ملأه .

فتكون الاشارة الى أن المدينة تقع على أوفى مكان يشبه الحوض الملىء بالماء .

وتقع دسوق شرق فرع رشيد جنوبى مدينة فوه بنحو ١٢ كم ، وتبعد عن طنطا بالسكة الحديدية بمسافة قدرها ٦٦ كم (٥) .

وفى سنة ١٨٤١ انشىء بمديرية الغربية قسم ادارى باسم قسم المندورة وجعل مقره بلدة دسوق لانها أكبر بلاده .

---

(١) قوانين الدواوين ص ١٣٥ .

(٢) الرزقة أطيان يمنحها السلاطين أو الخلفاء بمقتضى حجج شرعية الى بعض الناس على سبيل الاحسان أو الانعام مع الاعفاء من ضريبتها ، ومنها الاراضى التى يوقف صرف ريعها على المساجد والخوانق والربط وغيرها من الجهات الخيرية للقيام بمصالحها والوفاء بمطالبها ، ومنها ما يوقف صرف ريعه الى مستحقه وينحل بوفاته (وراجع النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٥٣ الحاشية رقم ٦) .

(٣) هذه الاحصائية من كتاب التحفة السنية بأسماء : البلاد المصرية — ص ٧٧ — قارن بين مساحة زمام دسوق فى ذلك الوقت ومساحة زمام طندتا وكان ٢٧٩٠ فدانا ، وكانت الاخيرة من اقطاع أمراء الطبلخانات (الانتصار لواسطة عقد الامصار جـ ٥ ص ٨٤) .

(٤) أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدى (١١٤٥ — ١٣٠٥) هـ تاج العروس وجواهر القاموس.

(٥) القاموس الجغرافى للقطر المصرى ط . بولاق ١٨٩٩ — ص ٢٨٢ .

وفى سنة ١٨٧١ صدر قرار نظارة الداخلية بتسميته مركز دسوق ، ولكن نظارة (أى وزارة) المالية لم تصدر قرارا بذلك فبقى فى دفاترها معروفا باسم مركز المندورة ٠

وفى سنة ١٨٩٦ اصدرت نظارة المالية قرارا بتسميته مركز دسوق لتوحيد التسمية فى سجلات النظارتين ٠

ومركز دسوق الان يتبع محافظة كفر الشيخ وكان حتى سنة ١٩٤٥ يضم ٥٥ ناحية منها ٢٩ ناحية قديمة و٢٦ ناحية حديثة (١) ٠

ومن البلدان القديمة التابعة لمركز دسوق مدينة « ابطو » الشهيرة ، وكانت قاعدة مملكة الوجه البحرى قبل عهد الملك مينا ، وكان بها محراب بيت النار (٢) المخصص للوجه البحرى ، واسمها القبطى « بوتو » أو « بوطو » اما « ابطو » فهو اسمها العربى ٠ وقرية « ابطو » الحالية تبعد مسافة ٦٠٠ متر جنوب بوطو» الاثرية التى يعرف مكانها بكوم الفراعين نسبة الى الفراعنة ٠

التبشير بمولده

كان فى سنهور (٣) المدينة وهى قرية من القرى العامرة المشهورة القريبة من بلدة دسوق شيخ من كبار الصوفية العارفين اسمه محمد بن هارون (٤) وكانت

---

(١) محمد رمزى القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الثانى ط وزارة التربية والتعليم سنه ١٩٥٨ — ص ١٤ ٠

(٢) د. سليم حسن : مصر القديمة ج ٦ هامش ص ٦٠١ — ط دار الكتب سنة ١٩٤٩

(٣) سنهور المدينه من القرى القديمة ولا تزال الى اليوم تعرف باسمها القديم لشهرتها بين المدن المصرية القديمة ، وذكر اميلينو فى جغرافيته ان اسمها القبطى (Sunhouri) وذكرها ابن حوقل فى كتابه المسالك عند كلامه على الطريق البرى بين الفسطاط والاسكندرية فقال سنهور مدينة ذات اقليم كبير واسواق وحمامات وفنادق ولها غلات كثيرة من قمح وكتان وقصب سكر ، وفى نزهة المشتاق اسمها (سنهور) ووردت محرفة فى بعض الكتب تحت أسماء صنهون وسنهون والصواب سنهور ، وهى مذكورة فى قوانين ابن مماتى والمشترك لياقوت والتحفة السنية ٠

(٤) فى الكواكب الدرية للمناوى عند ترجمة ابن هرون قال (محمد بن هرون السنهورى امام جليل وصوفى نبيل فاق الاقران ، ستوطن سنهور وبنى له زاوية وقبره بها مشهور .. الى أن قال ومن كرامات ابن هرون انه كان اذا مر به المرشدى والد البرهان الدسوقى يقول : فى ظهر هذا ولى يبلغ صيته المشرقين) ٠

مخطوط — دار الكتب العامة بالقاهرة تاريخ رقم ٢٦٠ — الفقرة الاولى من الوجه ٣٦٨ والفقرة الثانية من وجه ٣٦٩ ٠

بينه وبين والد القطب الدسوقى صحبة ، ولاحظ أصحابه عليه أنه كلما رأى أبا المجد عبد العزيز قام له ، وعجبوا منه لشدة تكريمه اياه ، حتى سألوه عن السبب فقال لهم : « ان فى ظهره وليا يبلغ صيته المشرق والمغرب » ٠

ورأوه بعد مدة وقد ترك القيام ، فسألوه عن ذلك فقال : « ما كان القيام له بل كان لبحر فى ظهره وقد انتقل الى زوجته »

وكان مولده رضى الله تعالى عنه ليلة الثلاثين من شعبان (١) سنة ٦٥٣ هـ وموضع ولادته هو مكان دفنه ، طبقا لما جاء فى لسان التعريف اذ يقول الجلال الكركى : « ودفن بدسوق (٢) محل مولده » ٠

ويروى لنا الجلال الكركى الكرامة المتواترة عن القطب الدسوقى وهى كرامة صيامه فى المهد اذ يقول :

« فلما وضعته فى الليلة التالية للتاسع والعشرين من شهر شعبان سنة ثلاث وخمسين وستمائة ، اتفق وقوع الشك فى هلال رمضان فقال ابن هارون : أنظروا هذا الصغير هل رضع فى هذا اليوم ٠ فأخبرت والدته أنه من الاذان فارق ثديه ولم يرضع » (٣) ٠

ولم يقصد ابن هارون أن يثبت بذلك دخول شهر رمضان ، فان الصوم لا يصح شرعا الا بثبوت رؤية هلال رمضان ، ولكنه قصد من ذلك تعريف الناس بولادة ذلك القطب ٠

وقد سجل القطب الدسوقى نفسه هذه الكرامة فى كتابه « الحقائق ! وقد نقل الجلال الكركى ذلك فى كتاب لسان التعريف فكتب ما نصه :

« قال الاستاذ ــ يعنى القطب الدسوقى ــ فى الحقائق : ان الفقير ــ يعنى نفسه ــ من الله عليه من ظهر أبيه ولطف به فى الاحشاء : فحين وضعتنى أمى

---

(١) هناك روايات تذكر أن مولده كان سنة ٦٣٣ هـ وقد فندناها فى الباب السادس عند الكلام على تاريخ مولده ووفاته ٠

(٢) لسان التعريف ظهر الورقة ٦٤ ٠

(٣) وتكملة الكرامة فى لسان التعريف (فأرسل ابن هرون يقول لها لا تحزنى فانه اذا غربت الشمس شرب) ظهر الورقة ١١ ٠

كنت مبشرا فى ذلك العام بالصيام ، ولم ير الهلال ، وان ذلك أول كرامتى من الله » (١) انتهى .

وسأله مؤدب الاطفال فيما بعد : « هل شعرت بصومك فى المهد ؟ »

فقال الاستاذ : « وهل يتقبل ممن يعبد الله على جهل كما خلق الله التمييز لعيسى عقب ولادته فنادى أمه مريم : ألا تحزنى ، الى آخر ما قص الله علينا » (٢) .

وممن حكى صومه فى المهد : صاحب كتاب التذكار وكنز الاخبار فى كتابه مراسم الطريقة فى فضائل أهل الشريعة والحقيقة .

ومسألة الصوم فى المهد لم ينفرد بها القطب الدسوقى بل وردت عن كثير من كبار العارفين مثل القطب الجيلانى (٣) ، وأبى السعود بن أبى العشائر (٤) والقطب الشهير السيد أحمد البدوى وغيرهم رضى الله تعالى عنهم . الا أن هذه الكرامة لصقت به دون غيره ، لان العارف محمد بن هارون جعلها دليلا على ولادته ، ولانه هو تولى تسجيلها بنفسه فى مؤلفاته وتواترت روايتها عنه وعن معاصريه .

وقد عنى والده بتعليمه منذ طفولته ، وكان نبوغه واضحا ظاهرا ، ملفتا للنظر ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم وتفقه على المذهب الشافعى بنيت له خلوة بدسوق ، فدخلها واقام بها عشرين سنة طبقا لما وصلنا من الروايات .

قال الجلال الكركى : « ولما أتم الاستاذ بخلوته من السن ثلاثا وعشرين سنة توفى والده (٥) فخرج من الخلوة وصلى عليه ، ثم أراد أن يدخلها فحلف

---

(١) و (٢) لسان التعريف وجه وظهر الورقة ١٢ على التوالى .

(٣) هو الامام المجمع على جلالته فى العلم والمعرفة السيد عبد القادر بن موسى الجيلانى أو الكيلانى الشريف الحسنى (٤٧٠ — ٥٦١) هـ كان امام عصره فى علوم الشريعة والحقيقة وأسس الطريقة الصوفية المنسوبة اليه ولها مكانة خاصة فى جميع انحاء العالم الاسلامى وله تراجم حافلة لو جمعت لخرجت فى عدة مجلدات .

(٤) أصله من العراق وهاجر الى مصر واستوطنها وتخرج بصحبته كثير من كبار العارفين توفى سنة ٦٤٤ هـ ومن كلامه (لا ينصحك من لا ينصح نفسه ، ولا تأمن الغش ممن غش نفسه ومن كان سببا لغفلتك عن مولاك فأعرض عنه ، وعليك بحسم مادة الخواطر الشاغلة التى يتولد عنها محبة الدنيا واذا صدر منها خاطر فأعرض عنه وأشتغل بذكره عز وجل عن ذلك الخاطر) .

(٥) هذا يخالف ما ذكره الطبرى الحسينى اذ قال « وقد كان سيدى ابراهيم صغيرا يوم وفاة أبيه » وعلى هذا القول يكون والده قد توفى سنة ٦٥٦ هـ وهو عام وفاة القطب الشاذلى .

عليه بعض الفقراء الا يدخلها ، فجلس تجاهها ، فقطـع الناس أسباب معايشهم واشتغلوا بالنظر اليه ، وكيف لا وهو مفلح ، ومن لا يقع عليه نظر مفلح لا يفلح ، فأرخى له برقعا على وجهه » ، حتى لا يفتتن الناس به وينشـغلوا بالتطلع اليه .

والذى نرجحه أن مدة الخلوة كانت عشر سنوات ٠

واذا كان قد التجأ الى الخلوة من صغره فما هى صلته بأساتذة الطرق الصوفية المعاصرة له ، وهل كان فتحه وهبيا أم كسبيا ؟ هذا ما سنناقشـه فى الباب التالى ٠



البَابُ الثانى

المنابع التى استقى منها طريقته فى التصوف

صلة القطب الدسوقى بالطرق الصوفية

المعاصرة له وأساتذتها

شهد القرن السابع الهجرى حركة بعث صوفية عميقة الجذور بعيدة الاثار، وكانت رد فعل لابد منه للابتعاد التدريجى عن المفاهيم الاصيلة للاسلام ، وهو ابتعاد جعل ذلكم الدين الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يقف غريبا بين معتقدين : معظمهم لا يعمل بتعاليمه ، أو يفسرونه تفسيرا يلائم انحطاطهم الادبى والمعنوى ، وبدلا من التمسك بحبل الله المتين وسلوك صراط الله العزيز الحميد ، يتعثر هؤلاء فى أودية النفس وغاباتها ومهاويها يؤول كل منهم الدين طبقا لما يسوله له الهوى .

فالجهاد فى سبيل الله تعالى اصبح يفسر على أنه القتال فىحروبالكفار والمشركين ، مع أن الجهاد فى سبيله عز وجل يشتمل على أرقى المعانى وأكملها ، فهو يشتمل أولا على الجهاد الاكبر ، ألا وهو جهاد النفس وتطويعها للاوامر والنواهى الالهية ، وتدريبها على التخلق بالاخلاق الايمانية التى لا يصح الايمانالسليم بدونها ، كما أنه يشمل التضحية ببذلالنفس والمال فى سبيل الله تعالى ، كما يشمل تحرير النفس والغير من الظلم والطغيان والمذلة والعبودية لمخلوق .. فالجهاد فى سبيل الله تعالى له جوانبه :النفسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحربية والعسكرية ، الادبية والمعنوية .

ولكن ضعيف الايمان يؤمن بما وافق الهوى ، ويترك ماثقل على النفس، وأصبح من المألوف سفك الدماء لا فى سبيل الله عز وجل ولكن فى سبيل السيطرة والحكم ونهب الاموال فى سبيل الوصول الى الاغراض التى لا تمت الى المصلحة العامة بصلة ثم يقال أن هذا هو الجهاد .

وأصبح الصبر يفسر على أنه الصبر على الفساد والظلم والمنكرات وسلب الحقوق وانتهاك الحرمات !

وأصبح الاستسلام والخنوع من الاسباب الموصلة الى الرضوان الاكبر والنعيم المقيم ! لا الى عذاب الله تعالى وسخطه ·

مع أن الصبر فى الاسلام بمنزلة الراس من الجسد ، فمن لا صبر له لا ايمان له ، لانه الصبر على طاعة الله عز وجل ، والجهاد فى سبيله مهما تجرع الانسان من مرارات ، أو لاقى من مشقات فعلامة حب الله تعالى استعذاب العذاب فى سبيله تعالى لا فى سبيل الشيطان ·

وبدلا من أن يكون الاسلام هو اسـلام النفس لخالقها فـلا تبغى سوى مرضاته ، أصبح الاستسلام للبؤس والظلم من علامات الاسـلام الكريم التى لا تخطىء !

وأصبح التعالى على الاخرين والترفع على الغير وسلوك جميـع السبل التى تمكن الانسان من الاستحواذ على جميع أدوات الظهـور كاملة غير منقوصة ، أصبح ذلك هو مقياس المجـد والرفعـة والعظمة ، وتغلغلت الفتن فى أغوار النفـوس حتى أصـبحت هى الدافع المحرك للسلوك والميزان الذى تقاس به صحة الاعمال ·

فحيث يأمر القرآن العظيم ، يفعل أصحاب الهوى العكس : فاذا أمر بالوفاء غدروا وخانوا ، واذا أمر بحفظ الامانات ضـيعوها ، واذا أمر بالصدق كذبوا ، واذا أمر بحفظ الاعراض وغض الابصار ، انتهـكت الاعراض وأطلقت الابصار ، يستحيون من الناس ولايسـتحيون من الله تعالى ، أفعالهم صادرة عن حب الذات والهوى ولا تصدر عن الاخلاص لله تعالى أبدا .

وحيث ينهى القرآن العظيم يحلو لهـم ارتكاب المنهيـات : يتلون القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، وكم من قارىء للقرآن والقرآن يلعنه ·

وفى الوقت نفسه كان زئير الحوادث وقصف الرعود يجتاح العالم الاسلامى نذيرا بحلول الكوارث ، وأخذت أسنة الرماح تدق الابواب من كل جانب محذرة المسلمين : فاما التمسك بحبل الله تعالى ، واما الاسترقاق وسفك الدماء ما لم ينتبهوا من غفلتهم ، ويهبوا من سباتهم ·

وفى هذا الجو هب قادة الفكر الصـوفى فى كل مكان لتجـديد مفاهيم المسلمين للاسلام ولدعوة الناس الى التمسك بحبل الله عز وجل العروة الوثقى التى لا انفصـام لها ليسـعدوا دنيا وأخرى .

كبار الصوفية المجددين فى القرن السابع الهجرى

وقد بدأت حركة البعث الصوفى فى منتصف القرن السادس الهجرى وبلغت أوجها فى القرن السابع الذى نحن بصدد الكلام عليه .

ونكتفى هنا بذكر كبار الصوفية المجددين فى هذا القرن لنربط بينهم وبين المدرسة البرهامية وسنذكرهم بحسب ترتيبهم التاريخى فى كل بلد :

١ ـ فى مصر :

أبو الحسن على بن حميد الصباغ ت ٦١٢ هـ وهو من أجل أصحاب القطب القنائى .

أبو العباس أحمد بن على البونى ت ٦٢٢ هـ .

أبو العباس أحمد البصير : ٥٠٦ ـ ٦٢٣ هـ .

عمر بن الفارض : ٥٧٦ ـ ٦٣٢ هـ .

عبد الله بن مسعود بن مطر الرومى : ٥٤٠ ـ ٦٣٥ وهو من تلامذة أبى النجيب السهروردى .

كمال الدين أحمد بن على القسطلانى المالكى : ٥٥٩ ـ ٦٣٦ هـ من أجل تلامذة أبى عبد الله القرشى .

الشريشى : تاج الدين أحمد بن محمد البكرى ٥٨١ ـ ٦٤١ هـ وأصله من المغرب ونزح الى مصر واستوطن الفيوم وبها توفى ، وهو صاحب الرائية المشهورة فى سلوك الطريق .

أبو الحجاج الاقصرى : يوسف بن عبد الرحيم من تلامذة الشيخ عبد الرزاق ابن محمود الجزولى تلميذ أبى مدين التلمسانى ت ٦٤٢ هـ بالاقصر وابنه نجم الدين أحمد ت ٦٨٠ هـ ، وجمال الدين محمد ت ٦٩٦ هـ .

أبو السعود بن أبى العشائر الباذينى أصله من العراق واستوطن مصر ت ٦٤٤ هـ بالقاهرة ، وكان السلطان ينزل الى زيارته وتخرج بصحبته : داود المغربى وشرف الدين الكردى وخضر الكردى وغبرهم •

أبو داود مسلم المسلمى : ٦٦٠هـ ، وله عقب باق الى الان ومن عقبه الشيخ مسلم المسلمى : ٧٦٤ هـ ، وأبو مسلم سليم دفين الصوة من أعمال الزقازيق ، وأبو مسلم دفين عزبة السيد عمر مكرم ، والحاج عليوة أبو مسلم دفين بلدة الاحراز مركز شبين القناطر ، وأبو مسلم بالزاوية المعروفة باسمه بالجيزة •

عز الدين بن عبد السلام السلمىت٦٦٠هـ •

أبو القاسم القبارى بن منصور المالكى الاسكندرى ، مقامه مشهور بالاسكندرية ت ٦٦٢ هـ •

أبو الحسن على بن عبد الله الششترى أصله من ششتر من أعمال وادى آش بالاندلس ، وكان من الاسرة المالكة بها ، وهاجر الى مصر واستقر بدمياط ت ٦٦٨ هـ •

داود بن مرهف الاعزب من تلامذة أبى السعود بن أبى العشائر ت ٦٦٨ يتفهنا العزب ومناقبه كثيرة جمعت فى مجلد •

عبد الغفار بن نوح القوصى صاحب كتاب الوحيد فى علم التوحيد : ٦٧٠ هـ •

أبو عبد الله الشاطبى ، محمد بن سليمان المعافرى الشاذلى ت ٦٧٢ هـ بالاسكندرية •

أبو العباس أحمد الملثم ت ٦٧٢ هـ بقوص •

أبو الفتيان السيد أحمد البدوى الشهير : مؤسس الطرق السطوحية الاحمدية ولها فروع فى جميع انحاء العالم الاسلامى ت ٦٧٥ هـ •

أبو الغنائم نجم الدين محمد المطوعى ، من أجل تلامذة داود الاعزب التفهنى ت ٦٨٣ هـ •

أبو عبد الله بن السائح المغربى ت ٦٨٤ هـ بدمنهور ٠

قطب الدين القسطلانى ٦١٤ — ٦٨٦ هـ وطريقته سهروردية .

ابراهيم بن معضاد الجعبرى الشافعى وكان يخشاه السلطان فمن دونه ولا يخشى فى الحق لومة لائم ت ٦٨٧ هـ ٠

عبد العزيز الدرينى ت ٦٩٤ هـ .

اسد الحديث عبد الله بن أبى جمرة ، صاحب الشرح المشهور على مختصره لصحيح البخارى المسمى « بهجة النفوس وتحليها » ت ٦٩٩ هـ .

كمال الدين بن عبد الظاهر الجعفرى الاخميمى ت ٧٠١ هـ ٠

ابن دقيق العيد ، محمد بن على بن وهب ت ٧٠٢ هـ ٠

ومن أئمة السادة الشاذلية :

الامام أبو الحسن الشاذلى ت ٦٥٦ هـ ٠

أبو العباس أحمد بن عمر الانصارى المرسى ت ٦٨٦ هـ بالاسكندرية ٠

مكين الدين الاسمر ، أبو عبد الله بن منصور الاسكندرى ت ٦٩٢ هـ ٠

البوصيرى : شرف الدين محمد بن سعيد الصنهاجى : ٦٠٨ ـ ٦٩٤ هـ ٠

ومن الجيلانية :

نور الدين أبو الحسن على بن يوسف بن جرير الشطنوفى ولد سنة ٦٤٤ هـ ، وجمع سيرة القطب الجيلانى فى مجلدات ٠

٢ ـ الشام :

السادة الائمة العارفون :

عبد الله بن عثمان اليونينى ٥٣٠ — ٦١٧ ويونين قرية تابعة لبعلبك .

شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله السهروردى ت ٦٣٢ هـ ، وهو من أكبر رجال الطريقة السهروردية التى أسسها أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله السهروردى البكرى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ ٠

أبو الحسن على بن أحمد بن ابراهيم الحرالى ت ٦٣٧ هـ · وتنسب اليه الحرالية ·

على بن حسن الحريرى ت ٦٤٥ بحوران .

أبو بكر بن قوام : محمد بن عمر ت ٦٥٨ هـ بقرية علم ثم نقل الى دمشق سنة ٦٨٠ هـ بسفح قاسيون ·

أبو بكر العردوك بن قتيان بن معن الشطى الفراتى المنجى ت ٦٧٢ هـ ·

محيى الدين يحيى النووى ت ٦٧٦ هـ ·

سعد الدين الجباوى ت ٦٨٢ هـ ، مؤسس الطريقة الجباوية

صفى الدين الحموى ت ٦٩٣ هـ بدمشق وهو أجل أصحاب السيد أحمد الصياد ·

محمد بن أبى بكر العردوك ، استشهد فى قتال التتر سنة ٧٠٠ هـ ·

٣ ـ العراق :

السادة الائمة العارفون :

أبو البركات بن صخر بن مسافر بن أخ عدى بن مسافر مؤسس الطريقة العدوية) توفى سنة ٦٣٠ هـ ·

أبو بكر بن هوار البطائحى ، وهو من قبيلة كردية تعرف بالهوارين ·

ومن السادة الرفاعية فى العراق وغيرها :

السيد ابراهيم الاعزب٥٤٦ ـ ٦٠٩ هـ ، وقطب الدين أبو الحسن على الرفاعى ٦٣٠ هـ ·

السيد نجم الدين أحمد بن على ت ٦٤٥ هـ ·

السيد عز الدين أحمد الصياد : ٥٧٤ ـ ٦٧٠ هـ ·

والامام الرفاعى جده لامه · دخل مصر ٦٢٨ هـ وتزوج الاميرة درية حفيدة الملك الافضل ورزق منها بالسيد على الشهير بأبى شباك ·

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد المستعجل ت ٦٧١ هـ ٠

ومنهم بمصر : على أبو شباك بن السيد عز الدين احمد الصياد ٦٣٥ — ٧٠٠ هـ بمسجد الرفاعى بالقلعة ٠

وحسن الراعى القطنانى بالشام ٠

٤ ــ اليمن وحضرموت :

الائمة العارفون :

عيسى الهتار ٦٠٦ هـ ٠

محمد بن أبى كير الحكمى صاحب عواجه ت ٦١٧ هـ ومن تلامذته محمد بن حسين البجلى ت ٦٢١ هـ ٠

محمد بن اسماعيل الحضرمى ، مختصر شعب الايمان للبيهقى وله فيه زيادات حسنة ت ٦٥١ هـ ٠

محمد بن على بن محمد صاحب مرباط ويلقب بالاستاذ الاعظم توفى بتريم : ٦٥٣ هـ ٠

أبو الغيث بن جميل ويلقب بشمس الشموس اليمنى ت ٦٥٦ هـ ٠

عمر بن سعيد بن أبى السعود الهمدانى ت ٦٦٣ هـ ٠

عيسى بن حجاج العامرى من أصحاب أبى الغيث بن جميل ت ٦٦٤ هـ ٠

عمرو بن على بن عمر التباعى ت ٦٦٥ هـ ٠

صفى الدين أحمد بن علوان اليمنى ، وهو من أجل تلامذة السيد أحمد البدوى باليمن ت ٦٦٥ هـ ٠

سعيد بن عيسى العمورى الحضرمى ت ٦٧٦ هـ ٠

عيسى بن مطير الحكمى ت ٦٨٠ هـ ٠

أبو العباس أحمد بن أبى الخير الصياد اليمنى ٠

أحمد بن موسى بن عجيل ت ٦٩٠ هـ ٠

على بن عمر الاهدل ، مؤسس الاهدلية وهى شعبة من الجيلانية ومن أبنائه أبو بكر بن على بن عمر بن الاهدل ت ٧٠٠ هـ ٠

أبو العباس أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى ت ٧٠٤ هـ ٠

٥ ـ تونس :

أبو يوسف يعقوب الدهمانى : ٥٤٩ ـ ٦٢١ هـ ٠

ومن تلامذته عبد السلام بن عبد الغالب المسراتى ت ٦٤٦ بالقيروان وأبو هلال السدادى وتلميذه أبو على سالم بن أبى عثمان القديدى ت ٦٩٩ هـ ٠

٦ ـ المغرب الاوسط والاقصى :

الجزائر ومراكش :

عبد السلام بن بشيش الحسنى ت ٦٢٦ هـ ، وفى رواية ٦٢٢ هـ ٠

أبو عبد الله محمد الهزميرى ت ٦٧٨ هـ ٠

الاندلس :

الشيخ الاكبر محمد بن على الحاتمى الطائى سلطان العارفين محيى الدين ابن العربى ، ولم يشهد التصوف بعده مثله فى علوم التصوف ت ٦٣٨ هـ بدمشق ، ومؤلفاته تزيد على المائتين ، واكبرها يزيد على مائة مجلد ٠

وممن أفرده بالترجمة من الائمة العارفين الجلال السيوطى ، وعلى ابن ميمون ، والجلال الدوانى ، والفيروز أبادى ، والعيدروس ، والنابلسى ، وغيرهم ٠

ومن أجل تلامذته صدر الدين القونوى ، محمد بن اسحاق الرومى ت ٦٧٢ هـ في قونية ٠

عبد الحق بن سبعين المرسى توفى سنة ٦٦٧ أو سنة ٦٦٩ هـ بمكة ومن تلامذته على بن عبد الله الششترى ، توفى بالقدس ٦٦٨ هـ ٠

٨ ـ خوارزم :

نجم الدين احمد بن عمر الخوارزمى الشهير بالكبرى ت ٦٨١ هـ ٠

وهو مؤسس الطريقة الكبروية ولها فروع متعددة ٠

« هجرة زعماء الصوفية الى مصر
فى القرن السابع الهجرى »

من الظواهر الملفتة للنظر هجرة الصوفية الاعلام الى مصر فى القرن السابع الهجرى ، ولعل السبب فى ذلك انها تزعمت حركة المقاومة الصليبية فى العالم الاسلامى .

ومعظم المهاجرين اليها كانوا من المغرب ، ونذكر منهم :

القطب عبد الرحيم القنائى الحسنى وأصله من سبتة ، قدم مصر واستقر بقنا وتوفى سنة ٥٩٢ هـ ، واستوطنتها اسرته ، فتوفى بها ابنه الحسن سنة ٦٥٥ ، والسيد محمد سنة ٦٩٢ هـ .

يوسف بن محمد بن على الهاشمى توفى بقنا سنة ٦١٩ هـ .

أبو العباس أحمد بن محمد البصير الانصارى الاندلسى كان أبوه من ملوك المغرب ، واختار التصوف وهاجر الى القاهرة وأقام بها وتخرج عليه سبعة آلاف عالم فى القراءات السبع ت ٦٢٣ هـ .

القطب الاقصرى يوسف بن عبد الرحيم بن غزى أصله من المغرب .

ابراهيم بن على بن عبد الغفار الاندلسى ، توفى بقنا سنة ٦٥٦ هـ .

أبو الحسن الشاذلى على بن عبد الله بن عبد الجبار مؤسس الطريقة الشاذلية ، توفى بصحراء عيذاب بقنا سنة ٦٥٦ هـ .

أبو العباس أحمد بن محمد بن حسن الملوانى القاسمى : ٥٤٨ ــ ٦٥٧ هـ . تجاوز عمره مائة وتسع سنوات .

صفى الدين ابو الحسن بن على بن ابى المنصور بن ظافر الازدى : ٥٩٥ ــ ٦٨٢ هـ ، وهو من اجل تلامذة العارف الشهير ابو العباس الحرار التجيبى الاشبيلى .

وللصفى بن ابى المنصور رسالة جمع فيها من لقيهم من كبار الصوفية اثناء رحلاته فى العالم الاسلامى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسادة الغنيمية فى مصر أصلهم من المغرب . فقد هاجر جدهم غنيم بن سلامة الغنيمى الى مصر وبها توفى سنة ٥٠٣ هـ ، وتزوج السيد ادريس بن غنيم الغنيمى ت ٥٦٧ هـ شقيقة القطب الرفاعى ، وخلفه ابنه يوسف أبو طاقية الغنيمى الذى حضر وفاة أبى الفتيان القطب السيد أحمد البدوى ، واسندت اليه من خدمة المولد الاحمدى : حراسة المولد واطعام المحتاجين عاش : ٥٥٦ — ٦٧٩ هـ وتوفى فى أتريب ببنها العسـل .

محمد بن موسى بن النعمان التلمسانى ثم المرسى ٦٠٧ ــ ٦٨٣ هـ .

أبو العباس المرسى ت ٦٨٦ هـ بالاسكندرية .

والسادات الوفائية المشهورون فى مصر أصلهم من المغرب وبيتهم من بيوت الصوفية التى كان لها أثر كبير فى تاريخ التصوف الاسلامى فى مصر ، وقد قدم جدهم السيد محمد النجم الادريسى الحسنى واجتمع بالقطب الدسوقى واليه تنسب الزاوية النجمية بالاسكندرية .

ومن الفقهاء الذين هاجروا من المغرب .

شمس الدين عثمان بن سعيد الصنهاجى الشافعى ٥٦٥ — ٦٣٩ هـ .

والقرطبى أحمد بن عمر المالكى ٥٧٨ ــ ٦٥٦ هـ .

ابن الجرح التلمسانى ت ٦٥٦ هـ .

ومن أئمة القراء أحمد بن على بن محمد الاندلسى ت ٦٤٠ هـ .

ابراهيم بن محمد الاموى الاشبيلى ت ٦٥٤ هـ .

على بن عبد الله بن أبى بكر أبو الحسن بن القلال الجزائرى ت ٦٦٨ هـ .

وسنذكر فيما يلى الائمة الذين قيل ان القطب الدسوقى قد تلقى عنهم ونناقش مدى صحة هذه النسبة :

أئمة الطرق الصوفية الذين نسب اليهم القطب الدسوقى

ندرس فى هذا البحث صلته بأئمة الطرق الاتية :

١ ـ المدينية بالمغرب ٠

٢ ـ السهروردية ٠

٣ ـ الرفاعية ٠

٤ ـ الشاذلية وفرعها الوفائية ٠

٥ ـ الاحمدية البدوية ٠

١ ـ الطريقة المدينية بالمغرب :

فى الطبقات الكبرى للشرنوبى أن القطب الدسوقى والقطب الاقصرى أبو الحجاج يوسف أخذا الطريق عن العارف عبد الرزاق[١] وهو تلقاه عن أبى مدين (٢) شعيب التلمسانى ٠

وممن نص على أخذ القطب الدسوقى عن العارف عبد الرزاق السيد محمد توفيق البكرى[٣] ٠

وهذه الرواية لا تصح لوفاة العارف عبد الرزاق الجزولى قبل ولادة القطب الدسوقى ٠

---

(١) هو العارف الكبير السيد عبد الرزاق بن محمود الجزولى صاحب أبى مدين ومن مشايخ أبى الحسن على بن حميد الصباغ الذى تخرج فى التصوف على القطب القنائى ٠

(٢) هو أبو مدين شعيب بن الحسن الاندلسى ثم التلمسانى أستاذ العارفين فى عصره وكان من أعلام العلماء فى الشريعة والحقيقة وكان من حفاظ الحديث ولازم دراسة جامع الترمذى واحياء علوم الدين للامام الغزالى وأفرده ابنُ الخطيب القسنطينى بالتأليف ٠ توفى سنة ٥٩٤ هـ وله كتاب رفيع فى الحكم ٠ ومن كلامه (اذا رأيت من يدعى مع الله تعالى حالا وليس على ظاهره شاهد فاحذروه) (حسن الخلق معاشرة كل شخص بما يؤنسه ولا يوحشه ٠ فمع العلماء بحسن الاستماع والافتقار ، ومع أهل المعرفة بالسكون والانتظار ، ومع أهل المقامات بالتوحيد والانكسار) ٠

(٣) تراجم بعض رجال الصوفية خط ـ تاريخ دار الكتب العامة ص ٨٧ ٠

٢ ـ السهروردية :

ذكر فى مسرة العينين أن القطب الدسوقى تلقى الطريق عن نجم الدين البكرى ونور الدين الطوسى ، وهما من رجال الطريقة السهروردية (١) وساق الاسناد كما يلى :

أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ٠

الحسن البصرى : ١١٠ هـ ٠

حبيب العجمى : ١٢٥ هـ ٠

داود بن نصير الطائى : ١٦٢ هـ ٠

معروف الكرخى : ٢٠٠ هـ ٠

السرى السقطى : ٢٥١ هـ ٠

أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادى : ٢٩٧ هـ ٠

رويم البغدادى : ٣٠٣ هـ ٠

أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى : ٢٧١ ـ ٣٧١ هـ ٠

أبو العباس النهروانى (أو النهرجورى أو النهاوندى) ٠

فرج الزنجانى ٠

ممشاد الدينورى : ٢٩٧ هـ ٠

أحمد الدينورى : ٣٤٠ هـ ٠

محمد السهروردى (البكرى)

القاضى وجيه الدين السهروردى ٠

أبو النجيب السهروردى (ضياء الدين عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن عمر السهروردى البكرى ٤٩٠ ـ ٥٦٣ هـ ، ابن أخ السابق] .

---

(١) سار على هذا الشيخ حسن بن حسين القادرى فى كتابه منة الوهاب .

أبو حفص سراج الدين عمر السهروردى : ٦٣٣ هـ [ابن أخ السابق]
برغوث الشيرازى وصحة اسمه نجيب الدين على بن برغش الشيرازى ت ٦٧٨ هـ ٠

نور الدين النظرى (نور الدين بن عبد الصمد النظرى) : ت ٦٩٥ هـ ٠

نجم الدين البكرى ونور الدين الطوسى ٠ كلاهما عن نور الدين النظرى ٠

تصحيح هذ االاسناد :

١ ـ لا يصح تلقى القطب الدسوقى عن نور الدين الطوسى ولا عن نور الدين ابن عبد الصمد النظرى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ ٠

وان صح فان الاخذ يكون أخاه أبا العمران موسى ٠

٢ ـ لا يصح تلقيه عن النجم البكرى مباشرة لطول الفارق الزمنى ، والنجم البكرى هو« شيخ الاسلام نجم الدين بن أبى المكارم عيسى بن أبى المحامد شعبان (١) الصديقى البكرى الشافعى » وكان موجودا سنة ٥٨١ هـ ، كما ورد فى وقف لابن أخ السلطان صلاح الدين الايوبى : وهو المظفر بن عمدة الدولة بن أيوب ، وقد ساق نص الوقف على مبارك فى الخطط التوفيقية ٠

وان صح التلقى عن النجم البكرى فلابد أن يكون ذلك بواسطة ولا يستبعد أن يكون والد القطب الدسوقى هو المتلقى عن النجم البكرى ٠

وفى الاسناد خطأ تاريخى واضح : اذ لا يصح تلقى النجم البكرى وهو من أهل القرن السادس الهجرى عن نور الدين النظرى وهو من أهل القرن السابع الهجرى ٠

٣ ـ خلط العلامة الحريرى عند ذكره لمشايخ القطب الدسوقى ما بين النجم البكرى هذا وما بين النجم الاصفهانى اذ ساق الاسناد المروى عن الشيخ حسن شمه فى مسرة العينين ، وهو الاسناد المذكور آنفا ، ثم قال عنه : انه مسطور فى الاجازة التى تلقاها عن الشيخ محمد المصرى شيخ السجادة البرهانية بمصر ، وبعد أنسا قه قال مستدركا : « ان النجم البكرى والنور الطوسى هما نجم الدين محمد بن سعد الله الاصفهانى وبدر الدين محمود الطوسى شيخا أبو

---

(١) بيت الصديق ط القاهرة ص ١٠٥ وما بعدها ٠

المحاسن جمال الدين يوسف العجمى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (١) ، فالنجم البكرى غير النجم الاصفهانى ولا يصح هذا الخلط ٠

٤ ـ سلسلة الاسناد عن العارف محمد السهروردى الى الامام الجنيد فيها أخطاء تاريخية وتصحيحها هكذا :

ممشاد الدينورى : ٢٩٧ هـ ٠ والجنيد البغدادى : ٢٩٧ هـ ٠

رويم البغدادى : ٣٠٣ هـ ٠

أبو يعقوب النهوجورى : ٣٣٠ هـ ، وأبو العباس أحمد بن محمد الدينورى ٠

أبو عبد الله محمد بن خفيف الضبى الشيرازى ٢٧١ ـ ٣٧١ هـ ٠

فرج الزنجانى (٢) .

محمد السهروردى ٠

ولمعروف الكرخى اسناد آخر عن أئمة أهل البيت كما يلى :

الامام الحسين السبط رضى الله تعالى عنه ٠

الامام على زين العابدين : ٣٨ ـ ٩٤ هـ ٠

الامام محمد الباقر : ٥٧ ـ ١١٨ أو ١١٣ هـ ٠

الامام جعفر الصادق : ٨٠ ـ ١٤٨ هـ ٠

الامام موسى الكاظم : ١٢٩ ـ ١٨٣ هـ ٠

الامام على الرضا ٢٠٣ هـ ٠

معروف الكرخى : ٢٠٠ هـ ٠

ولحبيب العجمى اسناد آخر عن محمد بن سيرين عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه ، ولجعفر الصادق اسناد عن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق عن سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنهم :

---

(١) العلامة كمال الدين الحريرى : تبيان الحقائق فى بيان سلاسل الطرائق ـ مخطوطات جامعة الدول العربية ميكروفيلم فى ـ ٣ ـ أجزاء ٠

(٢) فى منة الوهاب ٠ أبو الفرج الطرطوسى ٠

٥ ـ يقول نور الدين على بن الحسن الشاذلى البرهانى فى كتابه الزهرة المضية (١) .

« ويقولون ان معروفا صحب داود الطائى ـ أى أخذ عنه ـ وهذا لا أصل له ، وليس فى أخباره المعروفة ما ذكر أخذه عن داود الطائى شيئا » « وقال الحافظ ناصر الدين ذكر بعضهم أن معروفا لم يكن ممن اجتمع بعلى بن موسى الرضا وأنه لم ينقل معه أنه اجتمع به ولا أخذ عنه شيئا بل وكأنه ما رآه لان الرضا عاش ٢٠ سنة وتوفى سنة ٢٠٣ هـ . ومات معروف سنة ٢٠٠ هـ . وقيل ٢٠٤ هـ والاول أصح . » واجتماع معروف بالامام على الرضا ثابت لانهما متعاصران فكيف ينفذ من ذلك الى أنهما لم يجتمعا !

هذا الى أن على الرضا ولد عام ١٥٠ هـ وتوفى عام ٢٠٢ .

كلمة عن الاسناد فى الطريق

يلاحظ على كثير من أسانيد الطرق الصوفية اما عدم اتصال الاسناد أو اضطرابه ، بعدم ترتيب رجال السند أو تكرار بعضهم ، والسبب فى ذلك هو خلط اسناد أحد رجال السلسلة باسناد آخر متقدم أو معاصر ، وقد يختصر البعض رجال الاستاد فيحذف منهم رجلا أو رجلين ، وينتهى كلا الامرين باختلاط رجال السند فيقدم النازل ويؤخر العالى ، ولا يمكن تصحيح الاسناد لا بالرجوع الى كتب الطبقات والتراجم .

وبعد تصحيح جميع الروايات نجد أن الاسانيد متفقة فى النهاية ولا اختلاف بينها وهذا يؤيد المذهب الذى ذكرناه فى أسباب الاختلاف بين الاسانيد .

وتلقى الطريق نوعان :

أ) رواية

ب) هـداية .

ولا يهم ذكر الاسناد عند من تلقى الطريق من جهة الهداية « فعلى الانسان أن يلبسها من غير أن يرفعها بأن يقول لبستها من فلان عن فلان الى على بن أبى

---

(١) الزهرة المضية فى اسماء طرق السادة الشاذلية نسخة خطية بدار الكتب العامة . الورقة ٥٤ والمؤلف من علماء القرن العاشر الهجرى . فرغ من تاليفه سنة ٩٠٧ هـ .

طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم أو : ألبسها كما لبسها أو البسنيها فلان عن فلان ، وكذلك تلقين الذكر حذرا من أن يدخل فى زمرة الكذابين » (١) .

أما من تلقاها رواية فيجب عليه أن يذكر الاسناد صحيحا ، وفى ذلك يقول العارف نور الدين على بن الحسن الشاذلى البرهانى « يلزم ذكر مشايخ السند اذا كانت الطريق لبس خرقة فانها رواية والرواية ينبغى ذكر رجال سندها أما الهداية فلا » [٢]

وقد تكلم أهل الحديث على اسناد الخرق الصوفية ومنهم الحافظ شمس الدين السخاوى فى المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الاحاديث المشتهرة على الالسنة وتكلم غيره بما فيه الكفاية .

وفى معظم أسانيد الطريقة البرهامية نجد أن الاسناد منقطع بين القطب الدسوقى ومشايخه فى الطريق، ويرجع ذلك الى أن من ذكر رجال الاسناد قد حذف اباه العارف ابا المجد عبد العزيز بن قريش من رجال السلسلة مع اننا نعتبره أستاذه الاساسى وعلى هذا فلا انقطاع فى الاسناد .

٣ ـ الرفاعية :

ذكر الوترى (٣) أن القطب الدسوقى أخذ عن نجم الدين محمود الاصفهانى الذى تلقى الطريق عن شيخين :

الاول : نجيب الدين على الشيرازى السهروردى (وقد سبق الكلام على اسناده) .

الثانى : الحافظ عز الدين أحمد الفاروثى الكازرونى وهو من رجال السادة الرفاعية ، وقد تلقى الطريق عن أبيه الحافظ محيى الدين ابراهيم عن أبيه أبى الفرج عمر الفاروثى عن القطب الرفاعى .

---

(١) نور الدين على بن الحسن الشاذلى البرهامى : الزهرة المضية فى أسماء طرق السادة الشاذلية نسخه خطية بدار الكتب العامة بالقاهرة الفها سنة ٩٠٧ هـ ظهر ق ٥٤ .
(٢) نفس المرجع وجه الورقة ٥٥ .
(٣) الامام الرير : روضة الناظرين ط القاهرة ١٣٠٦ .

والظاهر أنه نقل هذا الاسناد عن الامام الواسطى (١) الذى قال عند كلامه على مشايخ السادة الرفاعية «ومنهم النحرير الكبير الولى العارف نجم الدين الاصفهانى ، وعنه أخذ السيد ابراهيم الدسوقى بن السيد أبى المجد العلوى أحد أقطاب الوجود المدفون بدسوق مصر ، شيخ الطائفة الابراهيمية» .

ويخالفهم فى هذا الاسناد السيد محمد أبو الهدى الصيادى الرفاعى (٢) الذى روى أن القطب الدسوقى قد أخذ مباشرة عن الحافظ عز الدين أحمد الفاروثى فحذف العارف نجم الدين الاصفهانى المذكور فى رواية الواسطى والوترى .

ويرى العلامة الحريرى (٣) انه لايصح أخذ القطب الدسوقى عن نجم الدين محمود بن سعد الله الاصفهانى وهو من أهل القرن الثامن الهجرى وأحد شيوخ العارف الكبير أبى المحاسن جمال الدين يوسف العجمى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ .

وان كان المراد من النجم الاصفهانى : نجم الدين عبد الله بن محمد الاصفهانى لا يصح ايضا ، لان هذا النجم من تلامذة ابى العباس المرسى ، وقد توفى بمكة سنة ٧٢١ هـ ودفن قرب الفضيل بن عياض وكان انتقاله الى مكة بعد وفاة شيخه الامام المرسى (٤) .

وهناك رواية أخرى تصله بالسادة الرفاعية : ذكرها السيد عبد القادر بن محمد الطبرى الحسينى (٥) المكى فقال «وكان أبوه السيد أبو المجد من أعيان خلفاء الشيخ أبى الفتح الواسطى الاحمدى ، وقد البس خرقته الاحمدية (٦) لولديه الجليلين : السيد موسى والسيد ابراهيم» .

وهذه هى الرواية التى نعتمدها .

---

(١) هو الامام المفتى على المداهب الاربعة تقى الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد المحسن ابن عمر بن شهاب الواسطى محدث واسط ولد سنة ٦٧٤ هـ وتوفى ببغداد سنه ٧٤٤ هـ ونقلنا هذا النص من كتابه ترياق المحبين فى طبقات خرقة المشايخ العارفين ط القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ ص : ١٨ .

(٢) تنوير الابصار فى طبقات السادة الرفاعية هـ القاهرة ١٣٠٦ هـ ٣٧ .

(٣) كمال الدين الحريرى : تبيان الحقائق — ميكروفيلم — دار مخطوطات جامعة الدول العربية .

(٤) الامام صفى الدين القشاشى (٩٩١ — ١٠٧١ هـ) : السمط المجيد فى شأن البيعة والذكر وتلقينه وسلاسل أهل التوحيد — ط الهند سنة ١٣٢٧ ص ١٢٣ .

(٥) كشف النقاب عن أنساب الاربعة الاقطاب ط القاهرة ١٣٠٩ هـ : ص ١٤ .

(٦) الاحمدية هنا يراد بها الرفاعية فلا تلتبس بالاحمدية البدويه .

٤ ـ الشاذلية :

ان دراسة صلة القطب الدسوقى بالسادة الشاذلية ذات شقين :

الاول : يبحث فيمن نسبه الى الشاذلية دون تحديد لطريقة التلقى •

الثانى : فيمن نسبه الى الشاذلية وحدد اسم من تلقى عنه الطريق •

أولا : من نسبه الى الشاذلية دون تحديد لطريقة التلقى •

نسب القطب الدسوقى الى الطريقة الشاذلية جماعة من العلماء منهم :

١ ـ الحافظ أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدى ، اذ قال(١) عند تعريفه الطريقة البرهامية : «البرهانية » (٢) شعبة كبيرة من الشاذلية واحدى الطرق المشهورة فى الديار المصرية منسوبة الى الولى الكبير والقطب الشهير المرشد للصواب المنقطع عن الخلق فى السرداب (٣) سيدى برهان الدين ابراهيم بن أبى المجد عبد العزيز بن قريش الحسينى الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ (٤) » .

٢ الحسن بن الحاج محمد الكوهن (٥) الفاسى وقد ترجمه فى طبقات الشاذلية ونسبه اليهم فقال : « سيدى ابراهيم الدسوقى القرشى الحسينى الهاشمى الشاذلى » .

٣ ـ أبو المعارف محمد عبد الرحيم النشابى الحسنى الشاذلى الاحمدى الشافعى الطندائى قال : « فالشاذلى مشيشى ، والدسوقى شاذلى ، والشناوى أحمدى (٦) وهكذا » .

وهناك نص من كلامه رضى الله تعالى عنه يفهم منه ان هناك صلة بينه وبين الامام الشاذلى اذ يقول : « أنا فككت طلاسم سورة الانعام التى لم يقدر على فكها الشاذلى خالى والامام الشاذلى لم يكن خاله قطعا من ناحية القربى وانما

---

(١) عقد الجوهر الثمين فى الذكر وطرق الالباس والتلقين ـ من مخطوطات المكتبة التيمورية ص ٣٢ .

(٢) النسبة هنا الى أحد ألقاب القطب الدسوقى وهو (برهان الدين) والذى نسبه الى اسمه قال (البرهامية) .

(٣) يعنى فى الخلوة وقد اشتهر بذلك لأنه قضى أكثر من عشر سنوات مختليا . ولو قال المنقطع من الخلق فى الخلوة لكان أفضل ، لان لفظ السرداب ملازم للشيعة الامامية وذكره متصل بانقطاع الامام .

(٤) اختلف العلماء فى تاريخ وفاته وقد رجحنا الروايات التى تقرر أنها كانت سنة ٦٩٦ هـ كما سيأتى فى بابه .

(٥) طبقات الشاذلية الكبرى ط القاهرة ١٣٤٧ هـ ص ٧٩ .

(٦) أسرار الحقيقة لمن يسلك الطريقة ط القاهرة ١٩٢١ م ص ٢٨ .

يقصد أنه خاله فى الطريق • وفى دار الكتب العامة مخطوط تحت عنوان « ورد الدسوقى الذى تلقاه عن خاله الشاذلى » •

ومما يؤكد صلة القطب الدسوقى بالشاذلية أن الحزب الكبير للقطب الدسوقى قد اشتمل على الحروف المركبة فى الدائرة الشاذلية الشهيرة وهى « طهور بدعق محببه صوره سقفاطيس سقاطيم أحون قاف ادم حم هاء آمين » • ووجود هذه الحروف فى الورد لا يأتى عن طريق المصادفة ، بل لابد انه تلقاها عن الشاذلية •

ثانيا : المصادر التى حددت شيوخه من الشاذلية

ان المصادر التى تعرضت لذكر أسماء شيوخ القطب الدســوقى من السادة الشاذلية تنقسم الى :

أ) مصادر قررت أنه اخذ الطريق عن شيخ الامام الشاذلى يعنى العارف الكبير السيد عبد السلام بشيش الحسنى •

ب) ومصادر قررت انه اخذ عن الامام الشاذلى مباشرة •

ج] ومصادر قررت انه اخذ عن تلامذة الامام الشاذلى •

وسنبحث هذه الروايات •

أ) صلته بشيخ الامام الشاذلى

ذكر الامام (١) الـ قشاشى أن القطب الدسوقى قداخذ الطريق عنسيدى عبد السلام بن بشيش الحسنى •

وقال العالم الصوفى محمود بن عفيف الدين (٢) الوفائى الشاذلى عند كلامه على العارف الشهير عبد السلام بن بشيش : « ويكفيك فى فضله وجلالة قدره أنه أستاذ الأقطاب الثلاثة : سيدى ابراهيم الدسوقى وسيدى أحمد البدوى وسيدى أبى الحسن الشاذلى رحمة الله تعالى عليهم أجمعين » •

---

(١) الامام صفى الدين القشاشى الدجانى (٩٩١ — ١٠٧١ هـ) السمط المجيد ط • الهند سنة ١٣٢٧ •

(٢) معاهد التحقيق له : ط • القاهرة ١٩٠٥ ص ١٧٠ •

وقال العلامة كمال الدين الحريرى (١) فى معرض الرد على هذه الرواية : « وأغرب من هذا ما ذكره القشاشى فى السمط المجيد من أن القطب الدسوقى أخذ عن عبد السلام بن بشيش وذلك لا يمكن : لان القطب عبد السلام توفى سنة ٦٢٢ هـ على ما ذكره أحمد بن عجيبة فى شرح الصلاة (٢) وذلك قبل ولادة القطب الدسوقى باحدى وثلاثين سنة ، ولعله أخذ عن روحانيته ولم يشعر (٣) القشاشى بذلك » .

ولا شك فى بطلان هذا التلقى رواية ، وهو تلق يحيله الفارق الزمنى والظاهر ان المقصود من هذه العبارات هو : التقاء اسناد الطرق المشار اليها عند العارف الكبير عبد السلام بن بشيش الحسنى ، وبهذا المعنى لا يوجد أى أشكال ، ويتحول البحث الى فحص صحة الاسناد .

ب صلته بالامام الشاذلى نفسه

هناك فريق قرر أن القطب الدسوقى قد أخذ الطريق مباشرة عن الامام الشاذلى ومن هؤلاء :

١ ــ العالم الصوفى الجلال (٤) الكركى اذ قال عقب ذكره لسند السادة الشاذلية [وهكذا نقله شيخنا السيد ابراهيم الدسوقى فى كتابه الحقائق عن الشيخ أبى الحسن نفسه] .

٢ ــ السيد محمد توفيق (٥) البكرى اذ قال عند كلامه على سند الطريقة البرهامية (أخذ سيدى ابراهيم الدسوقى عن سيدى أبى الحسن الشاذلى ثم ساق الاسناد .

---

(١) تبيان الحقائق ــ ميكروفيلم ــ باب (البرهامية) .

(٢) يعنى الصلاة الشيشية المشهورة وهى من بين الصيغ المختارة فى دلائل الخيرات ومطلعها (اللهم صلى على من منه انشقت الاسرار وانفلقت الانوار) وقد عنى كثير من العارفين يشرحها لجلالتها .

(٣) أى لم ينبه على ذلك : لان الاخذ عن روحانية أستاذ من أساتذة الطريق معتبر عند جماعة الصوفية بشرط الا يحتج به أحد فى أسناد الرواية وذلك كأخذ الامام بهاء الدين النقشبندى عن روحانية الامام عبد الخالق الفجدوانى . وهذا الاخذ يكون دائما للرقى لا للتربية .

(٤) نور الحدق فى لبس الخرق مخطوط فى دار الكتب العامة بالقاهرة ظهر الورقه ٦٨ .

(٥) السيد محمد توفيق البكرى : بيت الصديق . ط القاهرة ١٣٢٣ هـ ص ٣٨٣ ــ وقد صرح بذلك أيضا فى كتابه (تراجم بعض رجال الصوفية) مخطوط بدار الكتب العامة ص ٨٧ .

٣ ــ نص العلامة كمال الدين الحريرى على أنه تلقى الطريقة البرهامية عن الشيخ محمد المصرى شيخ السجادة البرهامية بمصر وفى هذه الاجازة ان سيدى ابراهيم الدسوقى أخذ عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى • وقد عقب العلامة الحريرى على ذلك بقوله (والشيخ الشاذلى توفى سنة ٦٥٦ هـ فكأن عمر سيدى أبراهيم كان ثلاث سنوات ، ويمكن أن يصح أخذه عنه كما أجاز سيدى عبد الغنى النابلسى الشيخ مصطفى الرحمتى وكان عمره اذ ذاك سنة ــ ورأيت فى بعض الاجازات ايضا انه قدس سره قال فى كتاب الحقائق اخذت الطريقة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعهد البيعة عن القطب أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه) هــ •

وهناك من وقف موقف الشك من هذا التلقى مثل السيد عبد القادر (١) ابن محمد الطبرى الحسينى المكى اذ عبر عن شكه بقوله (ويقال ان الدسوقى لبس الخرقة من الشيخ الجليل أبى الحسن على الشاذلى) •

وزيارة الامام الشاذلى لنواحى دسوق تؤيد وجود صلة بينه وبين والــد القطب الدسوقى

روى ابن فارس (٢) فى المنح الالهية عن القاضى ناصر الدين بن فوز بن أبى المواهب الشافعى : عن أبيه عن جده أبى المواهب المذكور أنه قال ان :

الاستاذ أبا الحسن الشاذلى قدس الله سره العزيز لما توجه للحج أرسى مركبه التى هو فيها على ساحل البحر المقابل لسنهور المذكورة وكان بها رجل من أكابر الصلحاء يقال له ابن هرون ــ وضريحه بها بسنهور ــ قال فجاء بأصحابه قاصدا زيارة الاستاذ أبى الحسن ، فوجده قد نصب له خيمة ، وهو بها ، فاغتسل الشيخ وقصد الامام ابا الحسن ، ومكث اسبوعا يطوف حــــول خبائه ولا يدخله ، ينتظر الاذن حتى أذن له ، فدخل : وأقام عنده قليلا ثم خرج • فأنكر عليه أصحابه ذلك • فقال (لما دخلت اليه حصل لى فى هذه اللحظة فوق ما حصل لى فى صحبة الشيخ أبى السعود (٣) فى خمس

---

(١) كشف النقاب عن أنساب اربعة الاقطاب ــ ص ١٤ •

(٢) المنح الالهية من مناقب السادة الوفائية ــ مخطوط بدار الكتب العامة بالقاهرة ظهر الورقة ١٥ ووجه ١٦ •

(٣) هو الصوفى الشهير أبو السعود بن أبى العشائر الباذينى توفى سنة ٦٤٤ هـ •

وعشرين سنة) قال : ثم دعاه الى بيته وأضافه ورفع له علما على رأسه وصار يقول : بسم الله يا ملك الاولياء · والتفت الامام أبو الحسن الى أبى المواهب المذكور وقال له (أنا رجل عيسوى (١) وسيظهر بعدى المحمدى (٢) ·

ولا يخفى أن والد القطب الدسوقى كان من أجل أصحاب العارف محمد بن هرون ، وقد نصت الرواية على أن هذا قد قصده فى وفد من أصحابه ، ومقابلة هذا الامام الشهير هى مقابلة يسرع ويبادر اليها كل من كانت له قدم فى التصوف ولو على سبيل الترحيب بضيافته ·

فاذا علمنا ان القطب الشاذلى قد قصد الحجفىعام وفاته اى سنة ٦٥٦ هـ ، فان عمر القطب الدسوقى يكون فى هذا التاريخ حوالى ثلاث سنوات .

وعلى هذا فان والد القطب الدسوقى يكون ضمن الوفد الذى استقبل الامام الشاذلى حين شرف ناحية سنهور بالزيارة ، وهى زيارة قصد منها تـــوديع اصحابه فلعله لايراهم فيما بعد ، وقد صحب معه اهله : اذ ان زوجته ـ والـــدة القطب الدسوقى ـ السيدة فاطمة الواسطية ـ عرفت فى كتب التاريخ بأنها الولية العابدة الزاهدة ، وكان القطب الدسوقى يشير الى الامام الشاذلى بأنه خاله وهذا اما لقرابة نسب بين أسرة والدته وأسرة الامام الشاذلى واما لانها قد تلقت طريق السادة الشاذلية فكانت من أخلص اتباع الامام الشاذلى أوهما معا · وكان معهما فىهذه الزيارة ابنهما الحبيب السيد ابراهيم ليتبرك بالامام الشاذلى على عادة المصريين كلما زاروا رجلا مباركا ·

---

(١) العيسوى فى اصطلاح الصوفية. هو الذى ينتقل منه الحال الى من له استعداد عن طريق الملامسة : كاللمس بالرد أو المعانقة أو أن يلبس الرداء الذى يهبه صاحب الحال ، وقد يأمرون الشخص ببسط ردائه فيغرفون له على قدر ما يجد لهم من الغرفات ثم يأمرون بضم الرداء الى صدره : قال الامام التلمسانى (فأى شيء فعلوا من ذلك سرى ذلك الحال فى ذلك الشخص المأمور المراد به فى وقته لا يتأخر وخرج مما كان فيه وانقطع) ونسب هذا المقام لسيدنا عيسى عليه السلام لان أشهر معجزاته الحسية كانت باللمس أو النفخ : لانه متولد من النفخ الجبرائيلى ثم قال الامام التلمسانى عن الحركة التى تصاحب هذا الحال (ما ظهر شىء من ذلك الا بحركة محسوسة لاثبات الاسباب التى وضعها الله تعالى ليعلم أن الامر الالهى لا ينخرم وانه فى نفسه على هذا الحال ا هـ وقد بسط الكلام على هـــذا المقام محمد بن أحمد التلمسانى فى كتاب التصوف له تحت عنوان (العيسوى من الاقطاب) ـــ مخطوط بدار الكتب العامة .

(٢) اعتبر السادات الوفائية هذه الاشارة تبشيرا بظهور القطب الكبير السيد محمد وفا الشـــاذلى .

ج)صلته بخلفاء الامام الشاذلى

نقصد بالخلفاء هنا تلامذة الامام الشاذلى بلا واسطة الذين اذن لهم بالتربية على طريقته ، وهم كثير : وقد ذهب الشيخ محمود بن(١) عفيف الدين الوفائى الشاذلى الى أن الامام الشاذلى لما دخل مصر كان معه من المتجردين نحوا من سبعين ألفا ـ وقد تضاعف عددهم حينما استقر الامام الشاذلى فى البلاد المصرية ٠

ومن أجل المعاصرين من خلفاء الامام الشاذلى للقطب الدسوقى :

بالاسكندرية :

منهم العارف القبارى : ابوالقاسم بن منصور بن يحيى المالكى ت ٦٦٢ هـ وابو عبد الله الشاطبى محمد بن سليمان المعافرى الشاذلى الشهير بالشاطبى ت ٦٧٣ هـ ٠

وأجلهم جميعا القطب المرسى ٠ ابو العباس أحمد بن عمر الانصارى ت ٦٨٦

وأجل خلفائه ابن عطاء الله السكندرى : أحمد بن محمد بن عبد الكريم ت ٧٠٩ هـ ٠

وبدمنهور :

ابو عبد الله السائح المغربى : سراج الدين ابو حفص عمر بن محمد المغربى الدمنهورى الشهير بالسائح : أصله من المغرب وساح فى البلدان الاسلامية وتولى الاقراء فى الحرم المكى ثم رحل الى مصر ٠ واستقر بدمنهور واتصل بالامام الشاذلى وصار خليفته على ناحية دمنهور ت ٦٨٤ هـ بدمنهور ٠

وقد اقتصرنا على الاسكندرية ودمنهور لانهما الناحيتان اللتان كانتا للقطب الدسوقى بهما علاقة وطيدة ٠

وسنذكر المصادر التى اثبتت للقطب الدسوقى الاخذ عن احد خلفاء الامام الشاذلى : قال العلامة حسن (٢) بن حسين القادرى عند ذكره لمشايخ القطب الدسوقى (وفى مشايخ سيدى ابراهيم الدسوقى فى العهد أيضا روايتان :

(١) معاهد التحقيق له ـ ط ـ القاهرة ١٩٠٥ ص ١٤٤ ٠
(٢) منة الوهاب ـ مخطوط بدار الكتب العامة وجه ظهر الورقة ١١ ٠

إحداهما انه اخذ العهد من نجم الدين البكرى) وبعد ان ساق اسنادهـــا قال (ثانيهما أنه أخذه عن سيدى يوسف بن حجاج الاقصرى عن أبى الحسن الشاذلى) .

والرواية الاخيرة مردودة لان القطب الاقصرى توفى سنة ٦٤٢ هـ ، والقطب الدسوقى ولد سنة ٦٥٣ هـ (١) فلابد أن يكون بينه وبين القطب الاقصرى رجل ولا يبعد أن يكون هذا الرجل هو والده .

ومن المقطوع به أن القطب الدسوقى لم يأخذ الطريق عن أحد من تلامذة الامام ولو حدث ذلك للازم القطب الدسوقى الامام المرسى وهو الخليفة المطلق على الشاذلية بعد وفاة الامام الشاذلى .

صلة القطب الدسوقى بالسادة الوفائية الشاذلية

روى ابن فارس فى المنح الالهية (٢) عن السيد على وفا : أن والده القطب محمد وفا الشاذلى دخل بلدة دسوق (وكان بهاسيدى ابراهيم الدسوقى فقصد الاجتماع به فى محل تعبده ، فسلم عليه . فلم يلتفت اليه . فنظر اليه سيدى(٣) وقال:ليس الشأن هذا ، قم معى . فمسك بيده ونزل بهمن الغرفة التى كان بها الى أرض الفلاة ، وكان وقت الربيع والارض مكسوة بالزرع . فاستغرق سيدى فى وادى الذكر يقول : الله . الله . الى أن صارت كل عشبة فى الارض تقول معه : الله . الله . فقال له كذايكون الشأن) أى أن يستغرق الذاكر فى المذكور حتى يذكر معه كل شىء .

ويرد على ذلك بان القطب السيد محمد وفا بن محمد الاوسط بن محمد النجم الحسنىالادريسى ولد سنة ٧٠٢هـ بالاسكندرية وتوفىبالقاهرة سنة ٧٦٥هـ وله ضريح مشهور بمسجد السادات الوفائية ـ ومن هذا نستطيع أن نحدد من كان معاصرا له من البيت البرهامى .

---

(١) قد نكون هذه حجة للروايات التى تقول أنه ولد سنة ٦٣٣ هـ وهى روايات أبطلناها ؛ وعلى فرض أنه ولد سنة ٦٣٣ هـ فلا يصح أن يقال أنه تلقى الطريق عن القطب الاقصرى وهو فى سن التاسعة ثم لا يتلقى الطريقة الشاذلية على يد صاحبها وهو فى سن الثالثه والعشرين . ثم أنه لو كان هناك أى رواية صحيحه فى هذا الصدد لاشتهرت واستفاضت وعدت من أكبر مناقب القطب الاقصرى .

(٢) المنح الالهيه من مناقب السادات الوفائية ـ مخطوط ـ ظهرالورقة ٦ .

(٣) يعنى افط ب محمد وفا .

ومعلوم ان القطب الدسوقى بعد وفاته ، قد خلفه اخوه ابو العمران شرف الدين موسى وبعد وفاته سنة ٧٣٩ هـ خلفه ابنه شمس الدين محمد والراجح ان الأجتماع كان مع الاخير • والظاهر أن القطب الوفائى قد زار دسوق معزياً فى وفاة شقيق القطب الدسوقى فحدثت الواقعة المذكورة آنفا فيكون فى القصة حذف تصحيحه أنه (دخل بلدة دسوق وكان بها خليفة سيدى ابـــراهيم الدسوقى) أو (ابن شقيق سيدى ابراهيم الدسوقى) • والخليفة يطلق على القائم بأمر الطريق •

والذى صح اجتماعه بالقطب الدسوقى من آباء السادة الوفائية هو السيد محمد النجم جد القطب محمد وفا وهو أول من نزل من أصول بنى الوفا بالديار المصرية وافدا من المغرب ، وكان نزوله بثغر الاسكندرية واليه تنسب الزاوية النجمية بالثغر الاسكندرى •

٥ ـ صلته بالسطوحية الاحمدية

تقول الروايات أن هذين القطبين الجليلين السيد أحمد البدوى فى طنطا والبرهان الدسوقى بدسوق كانا على اتصال عن طريق مريدى كل منهما ، اذ كان هؤلاء يتولون تبليغ ما يطلب منهم فيترددون ما بين دسوق وطنطا •

والمشهور أن كلا منهما كان يكن لاخيه الحب الخالص فى الله عز وجل ، ومما ينسب للقطب الدسوقى فى بيان فضل القطب السيد أحمد البدوى هذا البيت المشهور :

فضل الله علينـــــا عم كل الجماعة تبع والسيد عم

على أن الدليل القاطع الذى يثبت قوة الصلة بينهما هو اشتمال الحزب الدسوقى الكبير على ألفاظ من حزب أبى الفتيان ولا يتعقل اشتراك الحزبين فى هذه العبارات بدون وجود رابطة روحية قوية بين هذين القطبين الجليلين :

وحزب القطب النبوى السيد احمد البدوى هو هذا

لووا [١] عما نووا ، فعموا وصموا عما طووا رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين •

---

(١) مبنى للمجهول : بمعنى صرفوا •

بسم الله الرحمن الرحيم

الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل • الم يجعل كيدهم فى تضليل • وأرسل عليهم طيرا ابابيل • ترميهم بحجارة من سجيل • فجعلهم كعصف مأكول •
اللهم اكفنيهم بما شئت ــ اللهم انى أعوذ بك من شرورهم وادرأ بك فى نحورهم ، بك أحاول وبك أقاتل ــ اللهم واقية (١) كواقية الوليد ــ بكهيعص كفيت ــ بحم عسق حميت ــ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ولاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين •

وجاء فى الحزب الكبير للقطب الدسوقى :

(رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين نووا فلووا عما نووا ثم لووا عما نووا فعموا وصموا عما نووا فوقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا • أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا) الى أن قال بعد حوالى اربعة عشر سطرا

(بكهيعص كفيت • بحم عسق حميت ــ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (ثلاثا) ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، الى آخر الحزب •

ومما يؤكد ما قلناه ما رواه البقاعى (٢) فى طبقاته نقلا عن العارف أحمد الشناوى : أن أبا الفتيان قال للقطب الدسوقى •

أما سمعت وعلمت أننا أخذنا العهود والمواثيق على بعضنا ؟
أما سمعت وعلمت ان الله حرم على من يفرق بيننا خيرى الدنيا والاخرة ؟
اما سمعت وعلمت أن الله لعن من يقول هذا على طريقة وهذا على طريقة ؟
أما تعلم أن الله لعن من يقول هذا له مجلس ذكر وهذا ليس له مجلس ذكر ؟

أما تعلم ان الله تعالى فتح على من لم يفرق بيننا ؟

ولاشك أن هذا الحديث جرى أثناء المراسلات التى تمت بينهما وهو حديث يدل على مبلغ ما كان بينهما من ود وحب وصفاء وقوة ارتباط فى الله عز وجل •

---

(١) فى رواية : وقاية وفى اخرى كلاءة •
(٢) طبقات الامام البقاعى ــ مخطوط بدار الكتب العامة بالقاهرة ظهر الورقة ١٢٦ •

« فتحه رضى الله تعالى عنه كان وهبيا لا كسبيا »

مما يستلفت النظر فى تاريخ حياته رضى الله تعالى عنه أنه كان ينطق بالعلوم الوهبية منذ طفولته مما يدل على أن فتحه كان وهبيا .

ولا توجد رواية واحدة تدل على أنه سلك الطريق على يد شيخ للتربية لازمه حتى وصل على يديه واذنه بتربية المريدين ولو كان ذلك والده رضى الله تعالى عنه، اذ لو حدثذلك لاشتهر واستفاض عنالمعاصرين نسبةالقطبالدسوقى الى أستاذ معين ، بل لاعلن القطب الدسوقى ذلك فى مجالسه العلمية وماأكثرها ، كما هو شأن العارفين مع أساتذتهم وهو من قبيل شكر من وصلت النعمة على يديه : وأى نعمة أكبر وأجل ممن كان سببا فى معرفة العبد بخالقه عز وجل ؟

والروايات التى صرحت بذكر شيوخه فى الطريق ، انما هى روايات تبرك لا تربية ، ومعظمها لا يتم اتصاله بالقطب الدسوقى الا عن طريق والده الذى يجب ان يكون من ضمن رجال الاسناد فى الطريقة البرهامية والا انقطعت رواية هذا الاسناد .

ومما يؤكد ما ذهبنا اليه ـ من أن فتحه كان وهبيا ـ انه لم يشتهر عنه انه قام برحلات فى طلب الاساتذة العارفين ـ شيوخ التربية ـ كما هى عادة كبار الصوفية المشهورين ، وكل ما نعرفه عنه أنه كان يتنقل لتربية المريدين فى دائرته . ومن المدن التى تردد عليها : دمنهور .

حكى فىالحقائق[١] أنه [سافر الى دمنهور الوحش بالبحيرة ، فمر ببئر، فطلب منها ماء ليشرب فقيل له ان ماءها مالح ـ فتفل فيها ، فحلت ببركته فقال :

اذا وردوا الاطـــلال تاهت بهم عجبـــا
وان لمسوا عـــودا زها غصنه رطبـــا

---

(١) الجلال الكركى : لسان التعريف ظهر ق ٤٤ ـ نور الحدق له ظهر ٦٢ .

وان وطئـــوا يوما على ظهـــر صـــخرة
لأنبتت الصـــماء من وطئهم عشـــــــبا

وان وردوا البحـــــر الأجاج شـــــواربا
لأصـــبح ماء البحـــر من ريقهم عـــذبا (١)

قال ابن مغيزل : (٢)

ومن شاهد عذوبة الماء ببركاتهم أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي لما دفن بحميثرا (٣) وغسل من مائها ، عذب الماء بعد ذلك وكثر حتى صار يكفى الركب اذا نزل عليه ، ولم يكن كذلك قبل ذلك ، والى ذلك اشار ابو عبد الله بن النعمان بقوله فى قصيدة له :

رأيت له بعـــد المـــات عجـــائبا   تدل على من كان للفتح يجحـــــد

ونقل الجلال الكركى عن كتاب « مراسم الطريقة فى فضائل اهل الشريعة والحقيقة » أن (الشيخ له كرامات كثيرة وانه كان مجذوبا من صغره) واستدرك عليه الجلال الكركى بقوله (وليس (٤) المراد بالجذبة لاستاذنا غيبته عن التدبير بالعقل ، لانه كان له استنباط وتأليف لمصنفات كما سيأتى . بل المراد والله أعلم : أنه سبحانه جذبه اليه من صغره حتى بلغ حالة الكمال فى رتبة المشيخة فصار مجذوبا متداركا بالسلوك) .

يقول الامام السهروردى (٥) فى هذا الصدد فالشـــيخ قد يكون (٦)

---

(١) فى نور الحدق خلاف فى ترتيب الابيات اذ وضع الثانى مكان الثالث وبالعكس .

(٢) الامام عبد القادر بن الحسين الشهير بابن مغيزل (الكواكب الزاهرة) مخطوط بالمكتبة الازهرية . وقد قمنا بتصحيحه والتعليق عليه فى انتظار من يتفضل بنشره .

(٣) وترسم أيضا (حميثرة) مكان فى صحراء عيذاب بين قنا والقصير فى طريق الحج فى ذلك الوقت .

(٤) لسان التعريف ــ مخطوط ظهر ق ١٢ ق

(٥) هو الامام الصوفى العالم العارف شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله الصديقى السهروردى المتوفى سنة ٦٣٢ هـ وهو اجل رجال الطريقة السهروردية ومن اشـــهر كتبه عوارف المعارف .

ولا يلتبس الامر بعمه الامام ضياء الدين عبد القاهر بن عبد الله أبو النجيب السهروردى الصديقى المتوفى ببغداد سنة ٥٦٣ هـ .

وهناك سهروردى آخر هو الحكيم الاشراقى شهاب الدين يحيى بن حبشى السهروردى ، ولد سنة ٥٥٠ هـ مصر وأعدم بأمر من السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٨ هـ وهو ليس من هذه الاسرة ــ وسهرورد باقليم الجبال قرب زنجان وتعرف بعراق العجم .

(٦) عوارف المعارف ــ طبعة ملحقة بكتاب الاحياء للامام الغزالى ص ٤ ٧٥ : ٧٦ .

مأخوذا فى ابتدائه فى طريق المحبين ، وقد يكون مأخوذا فى طريق المحبوبين، وذلك أن أمر الصالحين والسالكين ينقسم أربعة اقسام :

(سالك مجرد ، ومجذوب مجرد ، وسالك متدارك بالجذبة ، ومجذوب متدارك بالسلوك : فالسالك المجرد لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه ، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى فى مقام المعاملة والرياضة ولا يرتقى الى حال يروح بها عن وهج المكابدة .

(والمجذوب المجرد من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين ويرفع عن قلبه شيئا من الحجاب ، ولا يؤخذ فى طريق المعاملة — والمعاملة اثر تام سوف نشرحه فى موضعه ان شاء الله تعالى — وهذا ايضا لا يؤهل للمشيخة ويقف عند حظه من الله مروحا بحاله غير مؤاخذ فى طريق اعماله ماعدا الفريضة .

والسالك الذى تدورك بالجذبة هو الذى كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالاخلاص والوفاء بالشروط . ثم أخرج من وهج المكابدة الى روح الحال فوجد العسل بعد العلقم، وتروح بنسمات الفضل وبرز من مضيق المكابدة الى متسع المساهلة ، وأونس بنفحات القرب ، وفتح له باب من المشاهدة ، فوجد دواءه وقاض وعاءه وصدرت منه كلمات الحكمة ، ومالت اليه القلوب، وتوالى عليه فتوح الغيب وصار ظاهره مسددا ،وباطنه مشاهدا ، وصلح للجلوة وصار له فى جلوته خلوة ، فيغلب ولا يغلب ويفترس ولا يفترس ، يؤهل مثل هذا للمشيخة لانه أخذ فى طريق المحبين ، ومنح حالا من أحوال المقربين بعدما دخل من طريق أعمال الابرار الصالحين .. ويكون له أتباع ينتقل منه اليهم علوم ويظهر بطريقه بركة ، ولكن قد يكون محبوسا فى حاله محكما حاله فيه ، لا يطلق من وثاق الحال ولا يبلغ كمال السؤال ، يقف عند حظه ، وهو حظ وافر سنى ، والذين أوتوا العلم درجات .

(ولكن المقام الاكمل فى المشيخة القسم الرابع وهو المجذوب المتدارك بالسلوك : يباديه الحق عز وجل بالكشوف وأنوار اليقين ، يرفع عن قلبه الحجب ، ويستنير بأنوار المشاهدة ، وينشرح قلبه ، ويتجافى عن دار الغرور ، وينيب الى دار الخلود ويرتوى من بحر الحال ، ويتخلص من الاغلال

والاعلال : ويقول معلنا « لا أعبد ربا لم أره [١] ثم يفيض من باطنه على ظاهره وتجرى عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء بل بلذاذة وهناء حتا يصير قالبه بصفة قلبه (٢) لامتلاء قلبه بحب ربه ويلين جلده كما لان قلبه : وعلامة لين جلده اجابة قالبه للعمل كأجابة قلبه ، فيزيده الله تعالى ارادة خاصة ويرزقه محبة خاصة المحبوبين المرادين : يقطع فيواصل ويعرض عنه فيراسل ، ويذهب عنه جمود النفس ، ويصطلى بحرارة الروح ، وتنكمش عن قلبه عروق النفس قال الله تعالى ؟ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله** » (٣) اخبر أن الجلود تلين كما أن القلوب تلين ولا يكون هذا الا حال المحبوب المراد .

(فالمحبوب المراد هو الذى اهل للمشيخة ، وقد سلم قلبه وانشرح صدره ولان جلده فصار قلبه بطبع الروح ، ونفسه بطبع القلب ، ولانت النفس بعد أن كانت امارة بالسوء مستعصية ولان الجلد للين النفس ، ورد الى صورة الاعمال بعد وجدان الحال ، ولا تزال روحه تنجذب الى الحضرة الالهية فيستتبع الروح القلب ، ويستتبع القلب النفس ، ويستتبع النفس القالب : فامتزجت الاعمال القلبية والقالبية وانخرق الظاهر الى الباطن ، والباطن الى الظاهر ، والقدرة الى الحكمة ، والحكمة الى القدرة ، والدنيا الى الاخرة ، والاخرة الى الدنيا : ويصح له أن يقول « لو كشف الغطاء (٤) ما ازددت يقينا » فعند ذلك يطلق من وثاق الحال ويكون مسيطرا على الحال ويصير حرا من كل (٥) وجه .

---

(١) يعنى بالقلب فيستغرق القلب فى مشاهدة آيات الله عز وجل وعظمته وعجائب قدرته وبدائع حكمته وجميل صنيعه ، ويتغذى الروح من هذه المشاهدة وتفيض أنواره على وجود الانسان : فيتصف بمكارم الاخلاق ، وينزه نفسه عن سفاسفها ، ولا يشرك بالله عز وجل أحدا فى جميع افعاله وأقواله وحركاته وسكناته ، يختار أن يلقى فى النار ولا يحتجب عن الله عز وجل طرفة عين .

(٢) يعنى يصبح جسمه تابعا لروحه وتتخلص الروح من أسر الشهوات الحسية التى تفرضها النفس على الانسان فتحجبه عن معرفة الخالق سبحانه وتعالى .

(٣) من الآية ٢٣ سورة الزمر ة

(٤) هذا من كلام أمير المؤمنين سيدنا على ابن أبى طالب رضى الله عنه ة

(٥) هذه هى الحرية الحقة التى جرى وراءها فلاسفة السياسة والاجتماع والاقتصاد وعلماء النفس والتربية والاخلاق فلم يتجاوزوا فى معرفتها سوى القشور بقى اللب وراء الوراء انها التحرر من كل عبودية لغير الله عز وجل ، انها التحرر من العبودية للاشياء فى جميع صورها ، وتخليص النفس من الارتباط بشىء سوى الخالق سبحانه وتعالى : هذه هى الحرية =

بل يؤخذ من كلامه رضى الله تعالى عنه أن فتحه كان وهبيا ولم يكن على يد مرب : فقد اشتهر عنه أنه (كان اذا مد القلم وكتب افتتح الكلام بقوله « هذا ما فتح الله به من فتوح الغيب من روضة النفس فى حظيرة القدس » ولا يزال يكتب بتلك المدة الواحدة حتى ينقطع الكلام سواء قل أم كثر) ٠

وقال فى الجوهرة (١) عن نفسه .

[لقد أخذنى حبيبى من اياى ، وسلبنى عن معناى ، وأفنانى عن فناء ، فتلقيته لا من تلقاى ، واستجليته لا بمرآى ، وخاطبته لا باياى ، »وناجيته لا باصغاى ، واجلسنى على سرير الصفا وسقانى بكأس الوفا ، وعقد لى لواء الولا فاستعذبت فيه اليم العذاب والبلا ، ورضيت فيه بقديم القضا : فلو جرعنى كؤوس المنية لشربتها ، ولو عذبنى بفنون الرزية لاستعذبتها ، ولو أوردنى موارد الهلكة لوردتها ، فانا معه كما يريد لا كما أريد فهو المراد وانا المريد) ٠

وفى شرح هذه العبارة يقول الجلال الكركى :

يستفاد (٢) من قول الاستاذ (وأفنانى عن فناى) انه صار من عباد الله الذين محق الله سبحانه أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه ، وذواتهم بذاته ، وحملهم من أسراره ما تعجز عامة الاولياء عن سماعه فارتفعوا بفنائهم عن رؤية فنائهم ، وهم الذين غرقوا فى بحار الذات وتيار الصفات ٠

[فهى اذا فناءات ثلاث أن يفنيك عن أفعالك بأفعاله ، وعن أوصافك بأوصافه وعن ذاتك بذاته ٠٠ فالاول فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق ، ثم الثانى فناؤه عن صفات الحق بشهود الحق ، ثم الثالث فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه فى وجود الحق : وهذا مقام الخاصة ، اذ العامة نظرهم الى الخلق والخاصة نظرهم الى الحق ، فلا تدبير لهم ولا اختيار فهم محجوبون بالحق عن الخلق) ٠

=

الكبرى التى جاء بها خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه فأعجز العالمين فى الكشف عنها وبيانها وتأسيسها ووضعها وتأمينه ، وتعميمها بحيث تشمل البشر جميعا فى كل زمان ومكان .

(١) نقل هذا النص الجلال الكركى فى لسان التعريف وجه الورقة ١٤ .

(٢) لسان التعريف ظهر ق ١٩ وما بعدها .

ويعنى من قوله « فلا تدبير لهم ولا اختيار » اى لا يتعدى احدهم حدود الشريعة بالانغماس فى الملذات والشهوات ، فلا وجه له فى كل لحظة أو فى كل فعل أو قول سوى رضى مولاه عنه ٠

ثم قال (وأما خاصة الخاصة فيشهدونهما لا يحتجبون بأحدهما عن الاخر لوصولهمالى مقام البقاء ، ومن وصل الى هذا المقام يكون اختياره مناختيار الله لزوال هواه ووفور علمه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه ٠

وقول الاستاذ [وخاطبته لا باياى وناجيته لا باصغاى] يعنى لم أسمع مناجاته لى وقت مناجاتى له باصغاء السمع بل بالقلب والسر لان سماع كلام الله تعالى يحصل بجميع وجود السامع لا بحاسة من حواسه فهو يسمع من الله بالله كما جاء فى الحديث القدسى [**كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به**] فهو السامع المسموع ، الشاهد المشهود ، ومن توهم الحلول أو الجهة فقد كفر . فالحجاب الذى بين الانسان وخالقه انما هو حجاب معنوى وليس بحجاب حسى ، وهو حجاب منسوج من أوهام النفوس التى أصيبت بمصيبة الاعراض عن الله تعالى لانصرافها عن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمشاهدة التى يعنيها الصوفية : ليست من الرؤية البصرية ولكنها مشاهدة القلوب لعظمة الله عز وجل واستغراقها فى هذه المشاهدة بقدر معرفة صاحبها وفى هذا يقول ابن عروس :

من لم يشاهد بالبصيرة ذاته   فلقد أحاط به حجاب عماه

فالاعمى هو الذى انطمست بصيرته فلم تشهد عظمة الخالق وجلالهوجماله وكماله ، فانطلقت النفس ترتع بلا حسيب ولا رقيب فى ميادين حجب الغرور والظلم والفساد ، ولا رادع يردعها ولا لجام يكبح جماحها ٠

يقول الجلال الكركى : (وأما قوله « وسقانى بكأس الوفا » فمن جملة قصيدة لـه .

شربت دنان الصرف فى حضرة الرضا   وكان دليلى للهدى سيد العرب

لا شك ان صفاء معاملاتهم توجب لهم ذوق المعانى ، والذوق عند ساداتنا

الصوفية أول درجات شهود الحق بالحق فى اثبات البوارق المتوالية عند أدنى لبث من التجلى البرقى · فاذا زاد وبلغ أوسط مقام الشهود سمى شربا ، فاذا بلغ النهاية سمى ريا ، وذلك بحسب صفاء السر عن ملاحظة غيره ، فالمراد بالشرب فى كلامهم النور الساطع المسفر عن جماله ، والمراد بالكأس اللطف الموصل لذلك الى أفواه القلوب) ·

ويقول رضى الله عنه عن نفسه فى كتابه الحقائق :

(اعلموا وفقكم الله : ان الفقير – يعنى نفسه – كان بقرية لا بها فقيه ولا معلم ، ولكن ذلك بما فتح الله به من فتوح الغيب من بركة سيد الانبياء والمرسلين خير الانام ومصباح الظلام ورسول الملك العلام على قلب عبده ابراهيم الدسوقى القرشى الصوفى المقتدى بالقرآن) يعنى ان علومه الوهبية لا منه لأحد عليه فيها سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد صرح فى مكان آخر من كتابه « الحقائق »بقوله) ان النبى صلى الله عليه وسلم آخذ على العهد بيمينه وصار يكشف لى عن الامور ويفتح لى أقفال الحجب) ·

يقول الجلال الكركى [من هنا قيل أنه رحمة الله عليه كان اذا البس أصحابه خرقة الفقر[1] يقول تلقيتها عن سيد الاولين والاخرين : اعلموا البسنا الله واياكم لباس حبه وألحقنا وأنتم بموجبات قربة ، ان العارف قد يجذبه الله اليه فلا يجعل عليه منة لاستاذ ، وقد يجمع شمله بالنبى صلى الله عليه وسلم فيكون آخذا عنه وكفى بهذا منة) ·

وهذا مقام لم ينفرد القطب الدسوقى به ، بل صرح ببلوغه كثير من أقطاب الطرق الصوفية : وقد تواترت الروايات عن كل العارفين انهم لا يعرفون لهم مرشدا سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

ومن الذين صرحوا بذلك قبل القطب الدسوقى :

الامام عبد القادر الجيلانى الشريف الحسنى ت ٥٦١ هـ . والامام أحمد الرفاعى الحسيني ت ٥٧٨هـ ، والشريف القطب عبد الرحيم القنائى ت ٥٩٢هـ

---

(١) يعنى التصوف .

وكان يقول (أنا لا منة لاحد على الا رسول الله صلى الله عليه وسلم) والعارف الشهير عبد السلام بن بشيش الحسنى ت ٦٢٦ هـ والشيخ الاكبر محيى الدين بن العربى الحاتمى الطائى ت ٦٣٨هـ والامام الشاذلى ت ٦٥٦هـ

ومن المعاصرين له :

أبو الفتيان السيد أحمد البدوى القطب الشهير رضى الله تعالى عنه وكان يقول :

ليس لى شـــيخ ولا لى قــدوة غـــير خير الرســـل طـــه الأولا

وأبو العباس أحمد بن عمر المرسى ت ٦٨٦ هـ وكان يقول [والله لو غاب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ماعددت نفسى من المسلمين) وقال مقالته الكثيرون من بعده حتى الان .

والعارف الشهير مكين الدين الاسمر : عبد الله بن منصور الاسكندرى ٦١٠ ـ ٦٩٢ هـ وكان يقول (انا ماربانى الا رســـول الله صلى الله عليه وسلم .

والحافظ الامام عبد الله بن أبى جمرة ت ٦٩٩ هـ .

وممن جاءوا بعده :

العارف الكبير السيد محمد وفا الشاذلى ت ٧٦٥ وابنه القطب السيد على وفا ت ٨٠١ هـ والعارف المتبولى ت ٨٨٨ هـ والامام جلال الدين السيوطى ٩١١ هـ وتاج العارفين شيخ الاسلام أبو الحسن البكرى ت ٩٥٢ هـ وابنه شيخ الاسلام الشمس محمد البكرى ٩٤٤ هـ والامام اللقانى . وقد سئل العارف عبد المجيد بن أبى القاسم البادسى ت ١٠٠٤ هـ من أين اعترتك هذه الاحوال ؟ فأجاب « والله ما لاحد على منة الا لرسول الله صلى الله عليه وسلم » الى آخر ما قاله .

ومنهم القطب الصوفى عبد الله بن ابراهيم الشريف العلمى ت ١٠٨٩ هـ وابنه العارف السيد محمد ت ١١٢٠ هـ .

والعارف الكبير السيد عبد العزيز بن مسعود الدباغ الحسنى الادريسى ت

١١٣١ هـ وتلميذه الحافظ أحمد بن المبارك السجلماسى ت ١١٥٥ هـ وقد نقل عن استاذه ما يبهر العقول فى كتابه الابريز .

ومنهم الامام العارف مصطفى بن كمال الدين البكرى ت ١١٦٣ هـ والقطب محمد بن عبد الكريم السمان ١١٨٩ هـ ، والشمس محمد بن سالم الحفنى شيخ الاسلام ت ١١٨١ هـ ، والعارف على الجمل بن عبد الرحمن الحسنى اليمرانى : ١٠٨٨ — ١١٩٤ هـ ، ومؤسس الطريقة التيجانية أبو العباس احمد التيجانى الحسنى ت ١٢٣٠ هـ ومولاى العربى بن أحمد الدرقاوى ١٢٣٩ هـ ، وتلامذته البوزيدى والحراق وابن عجيبه ومحمد حسن بن حمزة ظافر المدنى .

والقطب احمد بن ادريس الحسنى ت ١٢٥٣ هـ ومن خلفائه المشهورين السيد محمد عثمان الميرغنى والشيخ ابراهيم الرشيد .

والقطب الصقلى : الطيب بن محمد ت بين ١٢٦٠ ، ١٢٧٠ هـ وابنه الشريف محمد الصقلى ت ١٢٧١ هـ .

والسيد محمد الشاذلى المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ
وتلميذه المجاهد الكبير أمير العلماء السيد عبد القادر الحسنى الجزائرى ١٣٠٠ هـ وله كتاب المواقف فى ثلاثة مجلدات أتى فيه بغرائب الفتح .

والشريف العارف الشهير محمد بن عبد الكبير الكتانى ت ١٣٢٧ وغيرهم وغيرهم . وهؤلاء الذين ذكرنا : منهم من ترك لنا من المؤلفات ما تجاوز المائة والمائتين ، ومنهم من فسر القرآن العظيم فى ستين مجلدا .

وقد تكلم العارفون والائمة على هذا المقام : ومنهم الامام عبد القادر بن الحسين بن على الشهير بابن مغيزل فى كتابه (الكواكب الزاهرة فى فى اجتماع الاولياء يقظة بسيد الدنيا والاخرة) وهو قسم من كتابه (الفتح المبين بمعرفة مقامات الصديقين) وكلاهما مخطوط — وممن حاول تعريفه من المتأخرين العلامة يوسف بن اسماعيل النبهانى فى كتابه (سعادة الدارين) (١)

---

(١) ط — بيروت سنة ١٣١٦ هـ . من ص ٤٠٩ : ٤٦٥ .

يقول العارف محمد المغربى الشاذلى ت [حوالى ٩١٠ هـ] فى هذا المعنى [المراد برؤيته صلى الله عليه وسلم كذلك ــ أى يقظة ــ يعنى يقظة القلب لا يقظة الحواس الجثمانية ، لان من بالغ فى كمال الاستعداد والتقرب صار محبوبا للحق، واذا أحبه كان نومه من كثرة اليقظة القلبية كحال اليقظة التى لغيره] .

فهو مقام من مقامات العارفين كالمقام الخضرى الذى يتحدث فيه العارف عن اجتماعه بالخضر عليه السلام ، وقد أكد الامام داود بن محمود القيصرى أن هذا الاجتماع الخضرى انما هو مقام من مقامات المعرفة وأفرد ذلك فى رسالة سماها (تحقيق ماء الحياة فى تحقيق أن الخضر مقام من مقامات الصوفية) وهى مخطوطة بدار الكتب العامة .

ومرتبة الاخذ عنه صلى الله عليه وسلم مرتبة عزيزة من مراتب كمل العارفين يصلون فيها الى درجة مشاهدته صلوات الله وسلامه عليه فى جميع شئونهم وامورهم ومن هذه المشاهدة تسرى اليهم العلوم والمعارف التى تنمى استعداداتهم وتسقيهم بالعلوم فى كل لحظة .

وللعارفين بالله عز وجل علامات فيمن بلغ هذه المرتبة اهمها : العلم بالكتاب والسنة ، والاهتداء بهديه صلى الله عليه وسلم فى جميع الاقوال والاعمال والاحوال ، والتحقق بشعب الايمان ، ومعرفة ادب كل وقت وكل حال وابتغاء الله عز وجل فى كل أمر من أمور الوجود الى آخر ما ذكروه من الشروط التى لا تخفى على احد .

البَابُ الثالث

بعض صفاته من شريف أحواله


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان معرفة الانسان لنفسه من اصعب الامور واعقدها ، مع ان النفس اقرب مخلوق الى الانسان ! ويكفى هذه المعرفة شرفا وعلوا ان من عرف نفسه عرف ربه ، وتختلف مراتب العارفين بحسب تفاوتهم فى معرفة النفس ، فاعلاهم معرفة بنفسه اعلاهم معرفة بربه · ولا يعلم اسرار النفس البشرية مثل المؤمنين ، ولا يهتدى الى امراضها ودسائسها سوى من اهتدى بهدى المرسلين : ولذا نجد ان اقرب المؤمنين من العمل بكتاب الله عز وجل وهدى الحبيب الاعظم صلى الله عليه وسلم اشدهم علما بخبايا النفوس ونزعاتها واهوائها · ولا تعرف النفس الا من هذا الباب فقط ما ثم باب غيره ·

ومن المتفق عليه بين العلماء ان الانسان لا يستطيع ان يرسم لغيره صورة متكاملة عن نفسه التى بين جنبيه ! هذا الانسان الذى قد يذهب به الغرور الى الادعاء بأنه يعلم كل شيء : يجهل نفسه فلايكاد يدرى عن طبيعة وجودها شيئا ما لم يسترشد بالوحى الالهى ·

ولذا نجد ان آراء العلماء لا تتعدد وتختلف وتضطرب مثلما تتعدد وتختلف وتضطرب عند بحث موضوع النفس البشرية وطرق تقييمها ! بل ما لنا نذهب بعيدا ، ونحن نلمس الاختلاف الفاضح عندما يتعرض العلماء لبحث الصفات التى يجب اعتبارها عند تقييم مهنة من المهن ·

فمثلا نجد ان علماء التربية وعلماء العلوم النفسية فردية وتجريبية وتحليلية واجتماعية ينقسمون الى مدارس متعددة بصدد الصفات التى يجب توافرها فى المدرس الناجح ، والمثقف الهامشى يظن ان هذا التعدد فى الاراء انما مرجعه الى اختلاف المقومات الثقافية لكل شعب · والواقع ان هذه الصفات اصبحت تختلف من دولة الى دولة طبقا لمفهوم التربية عند الدولة : فالمدرسة النازية لها شروطها ، والمدرسة الفاشية لها شروطها ، والمدرسة الشيوعية لها شروطها وتنقسم بعد ذلك الى اقسام · وكل مدرسة بعد ذلك كله تحرص كل الحرص على مصادرة حجج المدارس الاخرى وتتفنن فى اظهار عيوبها · وقد وصلت نقاط التقييم فى بعضها الى ٦٠ نقطة كل نقطة تنقسم الى خمسة انواع ! هذا كله عن

الصفات اللازمة لمهنة من المهن التى يمارسها الانسان فما بالك بالانسان نفسه ٠

لقد حاولت مدارس التربية والنفس والاخلاق والاجتماع وضع المعايير لتقييم الشخصية والحكم عليها، فكانت النتيجة ان كلاً منها وصلت الى موازين لا تصلح الا للحكم على الاعمال الظاهرية ليس الا ، وتبقى الشخصية الحقيقية للانسان مختفية وراء غوامض أسرار النفس البشرية بعيدة كل البعد عن متناول احكام هذه الموازين السطحية ٠

ولذا نجد ان الكتاب المتخصصين فى الكتابة عن الشخصيات يتناولون شخصية واحدة بالدراسة والبحث والتحليل ويبذل الواحد منهم ما عنده من جهد ويحاول ماوسعته المحاولة العلمية ان يلم بأطراف الشخصية التى يكتب عنها واذا بكل منهم يطالعنا بجديد لم يكشفه غيره ٠

نقول هذا لان البعض يظن ان التعريف بالشخصية امر بسيط او هو فى متناول العلوم الحديثة ، ولذا نجد ان امثال هؤلاء يتسرعون باصدار احكام هامشية لاتمت بصلة الى الشخصيات التى يتحدثون عنها ويرغبون فى تصويرها وقد يتمادى بهم الجهل الى الظن بأنهم قد نجحوا فى سبر غورها، وكشف خباياها وخفاياها ، والجهل بالجهل هو الجهل المركب :

قـال حمـار الحـكيم يوما	لو أنصـف الدهـر كنت أركب
فأنـا جهـلى بسـيط	وراكبى جهـله مـركب

فهو يجهل انه جاهل :

هذا فى حق الشخصيات الدنيوية التى لم يتعد وجودها ابعاد الانطباعات الحسية وما يدور حولها من رغبات واهداف واهواء وشهوات ومطامع واخلاق ودوافع وسلوك ٠

فما بالك بشخصيات اكمل البشر بعد الانبياء والمرسلين وصحبهم ؟ الا وهم الاولياء ٠٠ ان كل ما يستطيعه الانسان بصدد هؤلاء الكمل هو ان يعرض احوالهم وشئونهم ليعطر بذكراهم صفحات التاريخ البشرى ليقتدى بهم من يسعى الى خيرى الدنيا والاخرة ، وليهتدى بهم من يطلب الله عز وجل وهو صادق فى الطلب ٠

ولكن عرض احوالهم وشئونهم ليس بالامر الهين : ذلك لان هؤلاء القوم ابعد الناس عن حب الظهور والمظاهر الكاذبة والدعاية المقيتة التى اضاعت المتمسكين بتلابيب الدنيا فضلوا واضلوا ٠

ان القوم لا يعرفون سوى الله عز وجل ولا يتصلون بالناس الا بقصد جمعهم على خالقهم تباركوتعالى ، فلا يجد الكاتب سوى شذرات وصلتنا عن تاريخ حياتهم وما اقلها وعلى ضوء هذه الشذرات يكتب كل على قدر فهمه لمن يكتب عنه ٠ واقوم السبل للتعريف بهم هو دراسة آثارهم العلمية ثم الاستدلال بها على شريف أحوالهم ٠

وسنبذل الوسع لنعرفه رضى الله تعالى عنه من نفس عباراته واحواله كما رواها الثقاة عنه ، ونفرد فصلا نعرض فيه مختارات من اقواله لعلها تكون اصدق تصوير لكثير من ملامح شخصيته ٠

« مخاطباته فى مشاهداته »

قال رضى الله تعالى عنه فى الحقائق : « اننى ذات يوم جالسا فى مكانى فاخذتنى سنة من النوم ، فنوديت فى سرى يا ابراهيم نمت عن النظر الينا (١) والمشاهدة فى هذه الساعة ، اترضى ان تكون من الغافلين ، فقمت مرعوبا » ٠

وفى ذلك يقول :

كلى بكلك مشـــغول عن البشــــر ... فكيف انساك يا سمعى ويا بصرى
ولو أن عينى اليـــك الدهر ناظرة ... دنت وفاتى ولم اشــبع من النظر

وللعارفين فى مقام المشاهدة احوال تدق عن الوصف فلا يدرك معانيها الا من ذاقها ، شأن كل علوم الاذواق : يقول سلطان العاشقين السيد عمر بن الفارض فى التائية الكبرى :

يشــــاهد منى حســـنها كل ذرة ... بها كل طرف جال فى كل طــرفة
ويثنى عليهـــــا فى كل لطيفـــــة ... بكل لســـان جال فى كل لفظـــة

(١) لسان التعريف : وجه ق ٢٠ ٠

وانشــق رياها بــكل رقيقـــة	بها كل أنف ناشـــق كل هبــة
ويسمع منى لفظهــا كل بضـــعة	بها كل ســمع ســامع متصنت
ويلثم منى كل جـــزء لثامهـــا	بــكل فم فى لثمـــه كل قبـــلة

فالانسان يصل الى حالة يكون ادراكه فيها بسائر ذرات وجوده ، ولايعلم هذه الحالة الا من ذاقها ، فيكون كله ذرات تشهد وتصغى وتعقل عظمة الله عز وجل . ولا يصل الى هذه المرتبة الا من عمل بالقرآن العظيم واهتدى بهديه صلى الله عليه وسلم ، وحرم ذلك على غير المؤمنين .

وهذا هو السر فى أن بعض العارفين فى هذا المقام تمضى عليه الايام ولا ينام دون تكلف منه فى ذلك ، وبعضهم قد يمكث اياما لا يكلم أحدا لانه لا يطيق الحديث مع الغير .

وقد ورد فى الروايات المتواترة عن ابى الفتيان القطب السيد احمد البدوى انه كان يطوى الاربعين يوما لا ينام بل يمكث شاخصا ببصره لا يجول له فكر الا فى مشاهدة عظمة الخالق الاعظم جل جلاله .

والسماع والمخاطبة والمشاهدة من المقامات التى لايصل اليها الا من صفت نفسه ، وخلا قلبه من ظلمة الخواطر ، وتجرد من كل وصف دنىء وتخلق بكل خلق سنى ولم يطلب فى الوجود سوى رضا مولاه ، فكان فى كل حركاته وسكناته مجموعا على الله عز وجل لا يبغى سواه .

وللعارفين ـ فى ضبط انفسهم من الالتفات الى المخلوقات ـ عجائب : قال الشيخ أبو بكر الكتانى : كنت بوابا على باب قلبى أربعين سنة وما فتحته لغير الله حتى صار قلبى لم يعرف غير الله عز وجل .

وقال الامام ابو الحسن الخرقانى المتوفى سنة ٤٢٥ هـ : لى اربعون سنة والله ينظر الى قلبى لا يرى فيه غيره ، ما بقى فى لغير الله شىء ولا فى صدرى لغيره قرار .

والمراد بحفظ القلب من الخواطر عدم ثباتها عند مرورها عليه ، فانها اذا ثبتت تحجب العارف عن الفيض وتخرجه من الحضرة .

وفى ذلك يقول العارف علاء الدين العطار (المتوفى سنة ٨٠٢ هـ) حرست

قلبى من الخواطر عشرين سنة ثم جاءت ولكن ما استقرت ، فلا عبرة بالخواطر اذا لم تتمكن ٠

وقد جمع بعضهم المخاطبات التى جرت له مثل ابن عبد الجبار النفزى (١) ٠

قال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمى قلبه وضيع عمره ٠

وقال الخراز : الانس محادثة الارواح مع المحبوب فى مجالس القرب ولا يكون ذلك الا بكمال التقوى وقطع العلائق ومحو الخواطر والهواجس .

وروى عن ابى العباس المرسى انه قال : لى الان اربعون سنة ما حجبت عن الله طرفة عين ، وكان ينشد من قصيدة لابن العطار :

رفعت مقامات الوصـــال حجـــابى ... حتى احتجبت بكم عن الحجـــاب
ولزمت محـــرابى لزوم مجمـــع ... فرأيت وجه الحق فى محـــرابى
وقتـــلت من نفسى غـــلاما قتـــله ... سبب النجـــا من أعظم الاســـباب
وخرقت لوح ســـفينتى لأعيبهـــا ... فنجوت من ملك لهـــا غصـــاب
وكشـــفت عن قلبى جـــدار حجـــابه ... فبدأ كنزه البـــاقى بغـــير ذهاب
ورقيت فى السبع السموات العـــلا ... حتى دنوت فكنت مثـــل القـــاب

وينصح القطب الدسوقى مريديه بالعمل للحصول الى مقام المشاهدة بقوله : « فاعمل لعلك تكون من الذين عادت ارواحهم روحانية لطيفة نورانية جوالة تجول فى الملكوت وتشاهد الحى الذى لا يموت وهى تنظر عجائب غرائب ما يكون من الامر المكنون » .

قال الجلال الكركى فى لسان التعريف (١) : « والظاهر ان استاذنا ترقى بعد ذلك عن مقام السمع بالسر الى مقام السمع بالاصغاء بحاسة السمع وسائر الحواس » ٠ والاولى ان يقول بسائر قوى وجوده ٠

---

(١) هو العالم الصوفى العارف الشهير محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفزى : ـــ المتوفى سنة ٣٥٤ هـ ، وكتابه المواقف مطبوع فى آخره كتابه المخاطبات ، تصحيح ارثريوحنســـا أربرى ، طبع دار الكتب العامة المصرية ١٩٣٤ ، ونفزه بكسر النون قبيلة بالمغرب وبفتحها بلدة بالمغرب وأخرى بالاندلس .

(٢) لسان التعريف ظهر الورقة ٢٠ .

ومما يروى فى هذا الباب ان ابن عطاء الله دخل على العارف الشهير ابى العباس المرسى فوجده على حالة لم يعهده عليها ، فسأله عن السبب فقال سمعت البارحة يقال لى السلام عليكم يا عبادى ، وهذا قد اسمعه فى السنة مرة او مرتين ، وهو من الحديث الذى قال فيه أبو العباس بن العريف (١) .

بدا لك سر طال عنـك اكتتـامه	ولاح صباح كنت انت ظـلامه
فأنت حجاب القلب عن سر غيبـه	ولولاك لم يطبـع عليـك ختـامه
فان غبت عنه حل فيـه وطنبت	على موكب الكشف المصون خيامه
وجاء حـديث لا يمـل سـماعه	شـهى لدينـا نثره ونظـامه

تمكنه فى مقامات الرضـا

يقول القطب الدسوقى : « فاستعذبت فيه أليم العذاب والبلا ، ورضيت بقديم القضا » ٠

وفى بيان ذلك يقول الجلال الكركى : « يفيدنا كما لا يخفى عليك اللهم وصلنا به اليك ، انه قدس سره جاوز مقام المحبة وارتقى الى مقام الرضا ، اذ هو اتم من مقامها على الراجح ، لان المحبة ربما حكم سلطانها على المحب وقوى على وجوده الشغف فاداه ذلك الى طلب ما لا يليق بمقامه ، الا ترى ان المحب يريد دوام شهود الحبيب ، والراضى عن الله راض عنه اشهده ام حجبه ٠ والمحب دوام شهود الوصلة ، والراضى عن الله راض عنه أوصله أم قطعه : اذ ليس هو مع ما يريد لنفسه بل انما هو مع ما يريد الله له ، ومن ثم لما ارتقى بعض المشايخ الى مقام الرضى انشد :

وكنت قديما أطلب الوصـل منهم	فلما اتانى العلم وارتفـع الجهـل
تيقنت أن العبـد لا اختيـار له	فان قربوا فضل وان ابعدوا عـدل
وان أظهروا لم يظهروا غير وصفهم	وان ستروا فالستر من اجلهم يحلو

فلما وصل الى هذا المقام استعذب فيه ـ كما قال الاستاذ ـ العذاب والالام ، لكن الحق سبحانه لا يعذب قلوبا تركت شهواتها لرضائه ، كيف وهم من خاصته واحبائه ٠

---

(١) هو اجمد بن محمد بن عطا الله المنهاجى الاندلسى عرف بابن العريف كان من الفقهاء المحدثين والقراء المجودين وهو من أعلام الصوفية المشهورين توفى بمراكش ٥٣٦ هـ. من هامش الديباج (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) ص ٥٨ .

ويستفاد من رضى العبد عن الله ٠: ان الله رضى عن ذلك العبد كما نقل عن الدقاق (١) : ان تلميذا قال لاستاذه : هل يعرف العبد ان الله راض عنه ؟

فقال : لا ، كيف يعلم ذلك وهو غيب !

فقا ل التلميذ : يعلم ذلك !

فقال : كيف ؟

قال ، اذا وجدت قلبى راضيا [٢] عن الله ، علمت أنه راض عنى ٠

قال : احسنت يا غلام ٠

فالعبد لا يكاد يرضى عن الحق الا بعدما يرضى عنه الحق كما قاله القشيرى قال : لان الله عز وجل قال : « **رضى الله عنهم ورضوا عنه** » ٠

ثم ان المشايخ رضى الله عنهم اختلفوا فى الرضا ، هل هو من المقامات او من الاحوال ؟

فأهل خراسان قالوا انه من المقامات ، وهو نهاية التوكل ، ومعناه يؤول الى انه مما يتوصل اليه العبد باكتسابه ٠

واهل العراق قالوا : الرضا من الاحوال ، وليس ذلك كسبا للعبد ، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الاحوال ٠

وجمع الامام القشيرى بينهما بأن بداية الرضا مكتسبة للعبد وهى من المقامات ونهايته من جملة الاحوال وليست بمكتسبة ، وبالجملة فقد تكلم القوم فى الرضا ، فكل عبر عن حاله ومشربه : فهم فى العبارة عنه مختلفون ، كما انهم فى الشرب والنصيب من ذلك متفاوتون ٠

ومن شاهد قول الاستاذ : « فاستعذبت فيه أليم العذاب والبلا ، ولو

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن نصر الدقاق الكبير كان من اقران الامام الجنيد ، قال الكتانى لما مات الدقاق انقطعت حجة الفقراء فى دخولهم الى مصر — ومن كلامه : من لم يصحبه التقى فى فقره اكل الحرام ، ومن هتف به هاتف أى حقيقة لا تتبع الشريعة فهو كفر .

(٢) ومن أين له العلم بأنه راض الرضى الحقيقى ، اذ من الضلال أن يعتقد العبد أنــه راض عن الله عز وجل بينما هو فى الواقع راض عن الله تعالى فى كل ما وافق هواه . والاستحسان هنا للجواب ينصرف الى صادق مخلص تحقق فى مقام الرضى بعد التخلص من الهــوى .

عذبنى بفنون الرزية لاستعذبتها ، ولو أوردنى موارد الهلكة لوردتها » قول رابعة[١] لما سئلت متى يكون العبد راضيا ؟

قالت : اذا سرته المصيبة كما سرته النعمة ٠

وقول رويد (٢) : الرضا ان لو جعلت جهنم على يمينه ، ما سأل أن يحولها الى يساره ٠

وقول ابى بكر بن طاهر (٣) : الرضا اخراج الكراهة من القلب حتى لا يكون فيه الا فرح وسرور ٠

وقول ذى النون (٤) : ثلاثة من علامات الرضا : ترك الاختيار من قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحب فى حشو البلاء ٠

وقول ابى سليمان (٥) : ارجو أن أكون عرفت طرفا من الرضا : لو أنه ادخلنى النار لكنت بذلك راضيا ٠

وقول النورى (٦) : هو سرور القلب بمر القضا .

---

(١) هى السيدة العابدة العارفة الزاهدة رابعة العدوية البصرية توميت سنة ١٨٥ هـ ٠

(٢) رويد بن أحمد البغدادى كان من مشايخ الصوفية فى بغداد توفى سنة ٣٠٣ هـ وكان يقول (لاينال هذا الامر الا ببذل الروح فان مكنك الخول فيه على هذا والا فلا تشتغل بزخارف الكلام (من قعد مع القوم وخالفهم فى شىء مما يتحققون به نزع الله نور الايمان من قلبه) وسئل عن المحبة فقال : هى الموافقة فى جميع الاحوال وأنشد :

ولو قيل لى مت قلت سمعا وطاعة ... وقلت لداعى الموت أهلا ومرحبا

(٣) هو أبو بكر عبد الله بن طاهر الابهرى من أقران الشبلى توفى سنة ٣٣٠ هـ ٠ وكان يقول (همة الصالحين الطاعة بلا معصية ، وهمة العلماء مزيد من الصواب ، وهمة العارفين اعظام الله تعالى فى قلوبهم ، وهمة أهل الشوق سرعة الموت وهمة المقربين سكون القلب الى الله تعالى) ٠

(٤) هو أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم : وهو أول من عبر عن علوم المنازلات ٠ فأنكر عليه أهل مصر وقالوا (أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة !) وسعوا به الى الخليفة المتوكل ورموه بالزندقة ، فأرسل اليه من يحمله الى بغداد ٠ فلما مثل بين يديه وسمع كلامه بكى الخليفة ورده مكرما ٠ وهو ممن حدث عن الامام الليث والامام مالك بن أنس رضى الله تعالى عنهم ، مولده بأخميم (محافظة سوهاج) وتوفى سنة ٢٤٥ هـ وقد ناهز التسعين ٠

(٥) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى من داريا — من قرى دمشق — كان من كبار أهل الحقيقة توفى سنة ٢١٥ هـ ٠ وكان يقول (اذا سكنت الدنيا فى قلب ترحلت عنه الآخرة) ٠ وسأله رجل عن اقرب ما يتقرب به العبد الى الله عز وجل ؟ فقال (ان يطلع الله على قلبك وانت لا تريد فى الدارين غيره) وكان يقول (من لم يتلاش فى قلبه ذكر كل شىء يضاد ذكر الله تعالى ، لم يجد صفوة ذكر الله تعالى) ٠

(٦) أبو الحسن أحمد بن محمد النورى البغدادى : صحب سريا السقطى ومحمد بن القصاب ،وكان من أقران الجنيد توفى سنة ٢٩٥ هـ ، وكان يقول (أعز الاشياء فى زماننا هذا شيئان : عالم يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقة) (ليس التصوف رسوما ولا علوما وانما هو أخلاق) (من لم يعرف الله فى الدنيا لم يعرفه فى الآخرة) ، (هذا زمان المعروف فيه زلل والصواب فيه خطأ ، والوداد فيه دخل)

وقول عتبة الغلام(١) : ؟ **ان تعذبنى فانا لك محب وان ترحمنى فانا لك محب ! .**

وهنا دقيقة : هل محل الرضا قبل القضا بما يقضى او بعد القضا بما قضى ؟

فالجواب : ان قوله صلى الله عليه وسلم : « اسألك الرضا بعد القضاء » ظاهره الثانى ، وقد بينه أبو عثمان (٢) لما سئل عن الحديث فقال : لان الرضا قبل القضا عزم على الرضى ، والرضا بعد القضا هو الرضا

دقيقة اخرى : هل الرضا افضل من الزهد فى الدنيا ؟

الجواب : نعم ، كما قال الفضيل (٣) . .

لبشر (٤) : قال : لان الراضى لا يتمنى فوق منزلته .

الكنز التاسع : قول استاذنا « فلو جرعنى كؤوس المنية لشربتها » دليل على اثبات ولايته ، اذ من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت ، وهذا ميزان اعطاه الله للمريد ليزن به على نفسه اذا ادعى فيه او ادعى ولاية الله ، فان من شأن النفس وجود الدعوى والتوثب الى المراتب العلية من غير ان يسلك السبيل

---

(١) هو عتبة بن أبان عرف بالغلام ، عاش مجتهدا فى طاعة الله عز وجل ، ومجاهدا فى سبيله حتى استشهد فى قتال الروم .

(٢) هو ابو عثمان الخيرى النيسابورى صحب يحيى بن معاذ الرازى وشاه بن شجاع الكرمانى وصاهر أبا حفص الحداد بنيسابور ، وهو امام الطريقة بنيسابور توفى بها سنة ٢٩٨ هـ وكان يقول (أنت فى سجن ما تبعث مرادك) (لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئا ، وانما يرى عيوب نفسه من يتهمها فى جميع الاحوال) .

(٣) هو الفضيل بن عياض التميمى اليربوعى كان من أئمة التسليك وأقطاب العارفين توفى بالحرم ١٨٧ هـ وكان يقول (أهل الفضل هم أهل الفضل ما لم يروا فضلهم) وكان يقول (من أحب أن يسمع كلامه اذا تكلم فليس بزاهد) (لا ينبغى لحامل القرآن أن يكون له حاجة عند أحد من الامراء والاغنياء ، انما ينبغى أن يكون حوائج الخلق اليه هو) (قراء الرحمن أصحاب خضوع وذبول ، وقراء الدنيا أصحاب عجب وتكبر وازدراء للعامة) (من عرف ما يدخل جوفه كان عند الله صديقا ، فانظر من أين يكون مطعمك يا مسكين) يقصد بذلك أن يكون كسبه حلالا لا يشوبه ظلم ولا حرام .

(٤) هو بشر بن الحرث الحافى أصله من مرو وسكن بغداد وبها مات سنة ٢٢٧ هـ ومن كلامه (لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس) أى لا يسعى فى الدنيا الا للشهرة فهو عبد للشهرة ، ومن أحب أن يطلع الناس على صفاته لينظروه بعين التعظيم فقد أحب أن يعبد من دون الله تعالى وهذه هى الفرعونية وكان يقول (سيأتى على الناس زمان تكون فيه الدولة للحمقى والاراذل على أهل العقول والاكابر) (انى لاجل الله تعالى ان أذكره عند من لا يعرفه ولا يتعرفه) صحبة الاشرار تورث سوء الظن بالاخيار ، وصحبة الاخيار تورث حسن الظن بالاشرار . وسئل عن التصوف فقال هو اسم لثلاث معان : وهو أن لا يطفى نور معرفة العارف نور ورعه . وان لا يتكلم فى علم باطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ، ولا تحمله الكرامات على هتك استار محارم الله تعالى .

الموصلة اليها. ولهذا قال سبحانه : « **فتمنوا الموت ان كنتم صادقين** » (١) . وقال : « **قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين** » ، ولا يحب الموت من فيه البقايا ، ولا من هو مصر على شيء من الخطايا ، وجعل الله تمنى الموت شاهدا للولى بولايته ، وعدم تمنيه شاهدا للغوى على غوايته ، قال سبحانه : « **واقيموا الوزن بالقسط** » والموت ميزان فى دائرة الرتب ، وعلى الافعال والاحوال .

اما الرتب فلان الولى على الحقيقة لا يكره الموت ان عرض عليه لانه ذاق انس مولاه ، فأحب لقاءه ، قال تعالى : « **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين** » قال القشيرى فى باب احوالهم عند الخروج من الدنيا يعنى طيبة نفوسهم ببذلهم مهجهم لا يثقل عليهم رجوعهم الى مولاهم .

قال على رضى الله تعالى عنه : « لا ابالى سقطت على الموت او سقط الموت على » . وقال عمار بصفين : « الان الاقى الاحبة محمدا وحزبه » ، وقال حذيفة حين احتضر : « لا افلح من قد ندم » اى على التمنى وآثار القوم فى ذلك كثيرة .

وأما الافعال والاحوال : فاذا ألبس عليك أمر أنت فيه لا تدرى هل الارضى لله تركه أو فعله ، أو حالة أنت بها لا تدرى هل قمت فيها بحق أو بهوى ، فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال ، فكل عمل وكل حالة تثبت مع تقدير ورود الموت وأنت عليها ولم تهزم فهى حق وكل عمل وحالة هزمها الموت فهى باطل ، اذ الموت حق والحق يهزم الباطل ويدمغه قال عز وجل « **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون** » (٢) .

« **قل ان ربى يقذف بالحق علام الغيوب ــ ٤٨ ــ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ــ ٤٩ ــ** » (٣) .

« **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** » (٤) .

---

(١) من الآية ٩٤ من سورة البقرة وبعدها « ولن يتمنوه أبدا بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين ــ ٩٥ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا يود احدهم لو يعمر الف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون) ٩٦ .
(٢) من سورة الأنبياء : ١٨
(٣) من سورة سبأ .
(٤) سورة الاسراء : ٨١

فما كنت قائما فيه بحق لم يهزمه الموت اذ هو حق ، والحق لا يهزم الحق ، ومن ثم قيل الذى يقرأ العلم لله هو الذى اذا قلت له غدا تموت لم يضع الكتاب من يده ، اهـ كلام القشيرى .

فان قلت ، صح الخبر عن سيد البشر صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ولا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به** » (١) ، أجيب بأن المراد بالضر فى الحديث الضر الدنيوى ، اما اذا نزل بالمرء أمر دينى فيجوز له تمنيه خوفا من تطرق الخلل فى الدين على أن ذلك لا ينافى ما نقلناه من كلام القوم .

تمكنه من أخلاق أهل الفتوة

الفتوة فى اللغة : السخاء والكرم ، وفى اصطلاح أهل الحقيقة تشمل ،

ايثار الخلق على النفس عند شدة الحاجة ، والصفح عن عثرات الاخوان وستر عيوبهم ، والسعى فى قضاء مصالحهم دون شعور منهم ، والفتوة لها تعريف بحسب كل شأن : فصورتها « فى (٢) البدايات : الوفاء بعهد الايمان وعقود الاسلام وترك الخصومة مع الانام .

وفى الابواب : نسيان الاحقاد والاذيات والتغافل عن الزلات .

وفى المعاملات : قطع النظر عن الاعمال والاعراض عن الاعواض ، ودرجتها فى الاصول : ألا يتعلق فى المسير اليه بدليل ولا يأنس مما سواه بخليل .

وفى الادوية تنوير العقل بنور القدس وتنزيهه عن الميل الى الجانب الوهم والحس .

وفى الاحوال ، الاكتفاء بالمواهب والارتقاء عن ريب المكاسب .

---

(١) الحديث (لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فان كان متمنيا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى) رواه الشيخان عن أنس — وروى مسلم عن أبى هريرة (لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه : اذا مات أحدكم انقطع عمله ، وأنه لا يزيد المؤمن عمره الا خيرا) وروى البخارى عن أبى هريرة « لا يتمنين أحدكم الموت : أما محسنا فلعله يزداد واما مسيئا فلعله يستعتب) . فالتمنى جائز اذا نزل الضر بالدين وحينئذ يستبسل المؤمن فى الجهاد فى سبيل الله عز وجل وهو يتمنى أن يدركه الموت فى جهاده .

(٢) امام أحمد ضياء الدين الكمشخانوى — جامع الاصول ص ٣٤٨ — ط القاهرة ١٣٢٨ هـ .

وفى الولايات : التخلى عن كمالات القلب والتحلى بصفات الحق ·

وفى الحقائق : بذل الروح للفوز بحياة المحبوب ·

وفى النهايات : القيام بالحق من غير رسم والوقوف مع الحقيقة لا مع الاسم » ·

وأصل الفتوة الايمان ، اذ أن شروطها لا تتحقق الا اذا تحقق وجود شعب الايمان · ولا يكمل وجود شعب الايمان الا اذا حرر الانسان نفسه من العبودية لغير الله عز وجل وحينئذ يصل الى الحرية الكاملة التى لا تشوبها شائبة استعباد ·

فالحرية شرط فى الفتوة ولا تكمل حرية الانسان الا اذا كمل ايمانه · كذلك من شروطها طهارة القلب من غواشى حجب الشرك والكفر ، ومن شروطها التنزه عن الدنايا والرذائل والخبائث وكان ما هو حقير .

ومنها التخلق بالعدالة الشرعية التى تدفع المؤمن الى انصاف الغير ولو من نفسه وأهله وولده ·

ومنها انبساط النفس لفعل الخير دون تكلف ·

وجميع ذلك لا يكمل الا بالايمان بالله تعالى والايمان لا يكون أيمانا الا بالاقتداء بامام الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه ، وقد بين لنا صلى الله عليه وسلم شعب الايمان وبها تقاس درجة الفتوة ، فبقدر نصيب المؤمن من شعب الايمان تكون درجته فى الفتوة الحقة ، فكلما كان حظه منها أوفر كانت فتوته أكبر ·· هذه هى الفتوة

أما التمادى فى الباطل والقسوة والاستبداد والتسلط والتعالى فليس بفتوة بل هو من طباع الجبارين والظلمة ا والسفاحين والقتلة ولا دخل لهذا هنا

وأى ناحية من نواحى أخلاق القطب الدسوقى أو أحواله تقودنا الى أخلاق أهل الفتوة :

فهو لا يركن ولا يسكن الى غير الله عز وجل فهو فتى فى ورعه : ينزه نفسه عن الطمع فى فضل مخلوق ، ويخلع الانداد والارباب ولا يقف مع الوسائط والاسباب ، ولا يحول بينه وبين اجابة داعى الحق حائل : روحه منجذبة الى

النور الالهى لا تحيد عنه ، غير ملتفتة الى الاعتماد على طاعة ولا ساكنة الى عادة تظنها عبادة ، ولا ساكنة الى مقام من مقامات الولاية ، ولا تعلقت همته بأمر من أمور الدنيا أو شأن من شئون الاخرة : لا يطلب من الله تعالى الا الله عز وجل ؟

لو شاء الرياسة لنالها من أوسع الابواب ولكنه كان يعرض عنها كما نعرض عن القاذروات : بل كان السلطان فمن دونه يقصدونه لقضاء مصالحهم أو للفرار من ظلمة أنفسهم ، وطغيانها ، ابتغاء التماس الطمأنينة فى رياض الايمان بمعية الحق عز وجل وخاصته من أوليائه ٠

فكان لا يمل من قضاء حوائجهم ، وفى الوقت نفسه لا يركن اليهم ، ولقد مكث بخلوته ما مكث من العمر ما تطلعت نفسه الى الدنيا ولا الى أهلها « ولا أرسل طوال حياته يلتمس شيئا من أبنائها » (١) ٠

بل ها هو السلطان يعرض عليه ما شاء من البلاد فيأبى ، ومع شهرته وحب كل مؤمن له ، نجده يخرج من الدنيا ما بنى له لبنة على لبنة ولا اتخذ بستانا ولا ترك ميراثا ولا خلف وراءه مالا ولا عقارا ٠

يظن بعض الناس فى نفسه الزهد ، ولكنه زهد من لا يملك الوسائل والاسباب ، فاذا ما ملكها انقلب هذا الزاهد القانع الى وحش مفترس وذئب متوحش دونه ذئاب الحيوان بمراحل : يقتل فى سبيل المال ، وفى سبيل الجاه وفى سبيل الرئاسة ، وفى سبيل السلطة ، ويسلب ويعتدى ويمثل بغيره أشنع تمثيل ٠

وكان من قبل يسمى هذه الوحشية الكامنة فى اعماقه زهدا وقناعة ! وهى وحشية تعجز جميع مسابر التحليل النفسى عن اختراق الحجب التى كانت تغلفها ٠

وقد يظن البعض فى نفسه التواضع ، وهو تواضع يغطى به وحش الكبر والتسلط الكامن فيه ، فيغطيه أمام الناس بالذلة والمسكنة وخفض الجناح ولين الجانب فاذا ما تمكن عاد سفاحا لا يراعى حرمة أقرب الناس اليه ٠

---

(١) لسان التعريف وجه الورقة ٦٠ ٠

أين الثرى من الثريا ؟ أين الذهب من النحاس الاصفر ؟ أين التبر من التراب ؟

تأمل فى الفوارق يهولك البون الشاسع ٠

أين هذا الذى يتستر بالفضيلة ليرتكب أبشع الرذائل ، وليتخذ هذا الساتر حجابا يرتكب وراءه ما شاء من أنواع الفسق ، أين هذا من ذاك الذى يأتيه السلطان أو الامير فيعرض عليه ما عنده ـ وماذا عنده سوى المال والجاه ـ فيقف هذا أمامه كالطود الشامخ غير مكترث بما يعرض عليه ،فيهزجلال الموقف الخير الكامن فى أعماق صاحب العرض ، ويتوب الى رشده ، ويشعر بذور ايمانه بدناءة العرض وخسته ، فلا يطلب من القطب الدسوقى سوى أن يلتفت اليه لعله أن يهتدى باذن الله تعالى وينجو بنفسه من حمأة النفس وشهواتها ٠

أراد السلطان قايتباى أن يقترب الى العارف الكبير محمد المغربى الشاذلى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، والسلطان كالمعتاد اذا أراد أن يعبر عن حبه ورضاه عن شخص أعطاه شيئا من عرض المال أو الجاه ، فوهبه ألف دينار فردها عليه وهو يقول :

اقنع بلقمة وشربة ماء ولبس الخيش
وقل لعقلك ملوك الارض راحوا بيش

فبكى السلطان وكان من خيرة السلاطين مروءة وعدالة وخلقا ٠ فتأمل بربك أمثال هؤلاء وقارنهم بمن يبذل ماء وجهه ويسفح عرضه ويتفنن فى ضروب التذلل فيأتى بالعجب العجاب : كل ذلك كى ينال لقمة من حاكم أو مطلبا كائنا ما كان ، وهو لا يدرى أن ما بذله لا يقوم بثمن ، لانه تبرأ من صلته بخالقه كى يعتاض عنها بعوض فان ، قد يبذله له المخلوق وقد لا يبذله وهو الخاسر فى كل حالة .

ومن فتوته ترحيبه ، بل مطالبته للملهوف أن يحتمى به ويلتجىء اليه يقول فى تائيته ،

فنحن نحمى الذى قد أتى لنا   اذا قال غثنى يا دسوقى بنية
اذا كان فى شرق أو الغرب قال لى   أغثنى أغثه من سيوف صقيلة

ومما يروى أن احد الظلمة كلف أحد مريدى القطب الدسوقى بحلج كمية كبيرة من القطن دون مقابل ، فاعتذر له بعدم الاستطاعة ، وظن أنه لو أخبره بأنه من أتباع القطب الدسوقى فانه ينصرف عنه تكريما للشيخ ، ولكن الرجل كان لا يعتقد فى ولى فكانت النتيجة عكسية ، اذ زاد له فى الكمية المطلوبة منه وطالبه بحلجها فى أسرع وقت قائلا : « ادع شيخك يساعدك » ٠

فعاد المريد منكسر الخاطر يائسا ، فرأى الشيخ فى منامه وهو يقول له : « قد حملنا حلج القطن عنك » ، فلما استيقظ وجده محلوجا ٠

وكان يقول لمريديه : « اعلموا لو كان أحدكم بالمشرق وأنا بالمغرب وضاقت عليه الارض برحبها وطلبنى لا تحجبنى عنه قبضة التراب التى بينى وبينه فها أنا واقف بين يديه »(١) ٠

وقد يظنه المرء عاجزا لطول صبره على الاساءة تتلوها الاساءة ومع ذلك لا يحرك ساكنا ولا يتغير له خاطر ! ولكنها فتوة الذى يقدر ، فيعفو ويصفح ، أما اذا استلزم الامر ردع المسىء لانه من النوع المستهتر الذى لا يزيده العفو الا تماديا فى الاساءة شأنه شأن كل لئيم لا يزيده كرم الكريم الا لؤما وخسة ، فانه عند ذلك يوقفه عند حده رحمة بالناس خشية الفتنة التى تجتاح النفوس كلما استطار شره ٠

وفى هذا الصدد تواترت عنه القصة التالية ، وهى مروية فى معظم الكتب التى ترجمت للقطب الدسوقى مثل نور الحدق ولسان التعريف وروضة الناظر ونور الابصار وطبقات الابرار : (٢)

كان قاضى الاسكندرية يبغض الصوفية ويناصبهم العداء ،وكانت القصص والروايات تبلغه عن القطب الدسوقى فيتبرع بالتصدى له ، فى شخص مريديه ، حتى كثرت شكاياتهم منه لاستاذهم ، فكان يأمرهم بالصبر على ايذائه ، وازاء هذا الاضطهاد عزف عن الاسكندرية منهم من تضطره مصالحه الى المثول بين يدى القاضى ٠

---

(١) هذا النص نقله الجلال الكركى من كتاب الحقائق للقطب الدسوقى ٠

(٢) نور الحدق الورقة ٦٣/لسان النعريف ظهر الورقة ٤٦ ووجه ٤٧/ ونور الابصار للسيد مؤمن بن حسن الشبلنجى ص ٣٥٣/ وطبقات الابرار للامام البقاعى وجه الورقة١١٥/ والعارف السيد حسن شمه فى مسرة العينين وغيرها ٠

وحدث ذات يوم أن بعض تلامذة القطب الدسوقى اشترى حاجة من رجل من السوقة فتشاجر هذا معه وسبه ، وساقتهم الشرطة الى المحكمة ، ومثلوا بين يدى القاضى ، ولما علم هذا بأن خصم البائع من مريدى القطب الدسوقى أمر بحبسه وأهانه ·

فأرسل زملاؤه الى أستاذهم بدسوق يستغيثون به من ظلم ذلك القاضى فكتب رقعة وأعطاها لرجل من عنده وأمره بتسليمها للقاضى ، وكانت تتضمن هذه الابيات :

سهام الليل صائبة المرامى ... اذا وترت بأوتار الخشوع
يصوبها الى المرمى رجال ... يطيلون السجود مع الركوع
بألسنة تهمهم فى دعاء ... وأجفان تفيض من الدموع
اذا أوترن ثم رمين سهما ... فما يغنى التحصن بالدروع

ولما وصل الى منزل القاضى استأذن عليه فى الدخول فأذن له ، وكان فى جمع من أصحابه ، ولما علم أنه مرسل من عند القطب الدسوقى آذاه بالكلام والتفت الى من عنده وهو يقول : « انظروا الى هذه الورقة التى جاءت من هذا الرجل الذى يدعى الولاية » !

وبعد أن سب الاستاذ شرع فى قراءتها جهرا ، فلما وصل الى قوله سهما خر ميتا ·

فهاج الجالسون وعلم الناس بالخبر فأطلقوا الرجل تكريما لاستاذه ·

قال الجلال الكركى :

« وأخبرنى بعض علماء المالكية نفع الله به أنه وقف على هذه القضية ، وان الذى كتبه الاستاذ له هو نقطة الباء ، والتمس منى لما وردت على المحلة الكبرى وجه ذلك ؟ فأخبرته باطلاعى على الحقائق وان الذى به كتابة الابيات المذكورة · فنشأ السؤال عن وجه الجمع بين الكلامين مع السؤال الاول فظهر الجواب عن ذلك ، والله أعلم بذلك : ان الكتابة وقعت من الشيخ مرتين الاولى بالنقطة ، اشار الى الفقراء وان كانوا بالنسبة لابناء الدنيا فى الدنيا اسفل منهم كنقطة الباء أسفلمنها ، الا انهم فى المرتبة أعلى منهم اذ هم موصلون لهم الى نيل المقامات السنية فى الدار الاخروية ، فعلى يدهم يكون التعريف بحال

السعيد المحسن اليهم ، والشقى المعرض عنهم أو المؤدى لهم ، كتعريف الباء بالنقطة ، اذ لولاها لا لتبست بالتاء والثاء ٠

أو الاشارة بالنقطة الى أن الفقراء ملوك الدنيا والاخرة كالنقطة ركب الحق منها ما خلق فى الدنيا والاخرى ٠

فلما لم يفهم القاضى الاشارة ، ولم يكف عن أذيتهم نفسه الامارة ، حذره الاستاذ من تفويف السهام بصريح الكلام لاجئا الى مولاه ، فحكم عليه بما امضاه ، فرشقته سهام الرب ، قائلة : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، فكيف والوقيعة فيهم أكل للحومهم ولحومهم مسمومة ؟ والالام والكواين لمتناول السم معلومة ؟ فلا يبعد أن يخر من هذا وصفه ميتا ٠

فان قلت ، قد ذكر الاستاذ فى رسالته تبعا للقوم : « ان الفقير لا يكون فقيرا حتى لا يؤذى من يؤذيه : **اذا ابتلى صبر : واذا قدر عفا : فهو كالسلطان** مهابة ، وكالعبد الذليل مهانة » (١) الى آخر كلامه ، ولهذا قال المرسى ، ؟ كان اذا آذاني انسان يهلك للوقت ، وأنا الان لست كذلك ٠ **قال التاج بن عطاء الله** فرآنى مستشرقا لسبب ذلك ؟ فقال : اتسعت المعرفة » ٠

فالجواب : ان انتصار الحق لاوليائه ليس لانهم طلبوه من الله ، بل لما صدقوا التوكل عليه ، وأرجعوا الامر اليه ، انتصر الحق لهم كما قال سبحانه « **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** » (٢) « **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** » « **والله غالب على أمره** » ، فهو الغالب الذى لايغلب والقادر الذى لا يعجز ، والقهار الذى لا قبل لاهل السموات والارض بذرة من بلاه ، ولو وضع ذرة من ذرات قهره على الجبال لاذابها » ٠

على أن أولياء الله اذا ظلموا على طبقات : فمنهم من يدعو على من ظلمه ، ليرد عن نفسه ، أذاه ، وليكف ضرره عن الناس ، فهؤلاء لا يردلهم دعاء لماورد

---

(١) لا يقصد من المهانة مهانة أهل الدنيا فهذه خسة وذلة ولكنه يقصد المهانة لله عز وجل ومن والاه وهذه فى الواقع هى العزة التى ليس وراءها عزة ٠

(٢) المؤمنون هم المنصوص عليهم فى القرآن العظيم والسنة المطهرة أما من حاد عن صفات هؤلاء فهو اما من العصاة أو من المنافقين او الكفرة طبقا لدرجة مروقه من الدين ، فهؤلاء لم ينصروا الله تعالى بل نسوا الله فأنساهم انفسهم :

وعـــالم بعلمـــــه لا يعملــــن معـذب فى النـار قبـل عبـاد الـوثن

فى الحديث ، « اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينهما وبين الله تعالى حجاب » (١) ٠

ومنهم من اذا ظلم لجا الى الله فى طلب النصرة وفوض أمره الى الله عز وجل وهو يعلم آنه سبحانه لا يخفى عليه شىء فى الارض ولا فى السماء ، وآنه محيط بالموجودات ولا يضيع عبدا صدق فى توكله عليه عز وجل ٠

ومنهم من اذا ظلم رحم من ظلمه ومن هذا القبيل أن جنديا قال لابراهيم بن آدهم : آين العمران ؟

فاشار الى ناحية ، وكانت فى الطريق اليه مقابر فظن الجندى انه يشير الى المقابر لا الى العمران استهزاء به ، فضربه على رأسه فشجه فطأطأ ابراهيم بن آدهم رأسه وهو يقول : اضرب رأسا طالما عصى الله ٠

وأقبل جماعة من الناس فخفوا اليهما وقالوا للجندى ، ويلك ، هذا ابراهيم بن أدهم زاهد خراسان !

فوقع الجندى على قدميه يقبلهما ويطلب الصفح ، فقال ابن ادهم ، والله ما رفعت يدك من ضربى الا وانا أسأل الله لك المغفرة ، لانى علمت أن الله يثيبنى على ما فعلت بى ويؤاخذك على ما فعلت ، فاستحييت أن يكون حظى منك الخير وحظك منى الشر !

ومنهم من تطهر من بقايا النفس فصار لا يغضب الا لتعدى محارم الله تعالى ، والتهجم على أحبابه ، فربما يدعو على من ظلمه لا لانه آذاه بل لكونه تعدى حدود الله عز وجل فهو يدعو غيره على الجناب الالهى ، فلم يستقض الحق لنفسه بل لربه ، وهذه أكمل المراتب ٠

ومن هذا القبيل ما حدث لسعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه وهو أن امرأة ادعت عليه أنه احتاز شيئا من بستانها ، فقال : اللهم ان كانت كاذبة فاعمها وأمتها فى مكانها ، فعميت وجاءت يوما تمشى فى بستانها فوقعت فى بئر فماتت ٠

---

(١) رواه الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا وأبو يعلى عن أبى سعيد مرفوعا واللفظ له ، وفى رواية (اتقوا دعوة المظلوم وأن كانت من كافر فانه ليس بينها وبين الله تعالى حجاب) ٠

ومن ذلك أن رجلا تسور الدار فى حادث استشهاد أمير المؤمنين ذى النورين عثمان رضى الله تعالى عنه ، فلطم الرجل زوجة أمير المؤمنين فدعا عليه بقطع يديه ورجليه واخلاده فى النار ، فكان هذا الرجل يرى فى الشام مقطوع اليدين والرجلين وهو يقول : دعوة عثمان استجيبت فى اثنتين وبقيت الثالثة ٠

ومن هنا قد تلتبس أحوال الرجال على العامة فيفضلون وليا ظلم وانتصر على الوجه المذكور وبالعكس ، وليس الامر كذلك ، فقد يكون صفح من صفح لعلمه بالبقايا فى نفسه فيكف عن الدعاء خشية أن يكون طالبا للنصر لشهوة فى نفسه ، وقد يكون من دعا على من ظلمه فأراحه الله منه ، لعلم الداعى بأنه لا يدعو الا غيرة على جناب الحق عز وجل ٠

وكان رضى الله تعالى عنه شديد النصح فى دين الله تعالى لا تأخذه فى الله عز وجل لومة لائم ، وله مكاتبات يرسلها الى الامراء والحكام ومن له منصب فيه ولاية على الناس ، وهى تشتمل على مواعظ تبهر الالباب لما حوته من علوم ومعارف مع حلاوة فى اللفظ وسمو فى المعنى وهيبة يشعر بها الانسان عند قراءة كلامه أو استماعه ٠

ولما اختصه الله تعالى من خصائص امتاز بها على أهل عصره ، ناصبه الخاصة العداء ، شأنه فى ذلك شأن كل رجل فذ فى أى مصر من الامصار ٠

فالامراء والحكام عادوه لجرأته وشجاعته وقوة فهمه لقواعد الحكم وأصوله ٠

فالحكم ليس غنيمة يستأثر بها الفرد ويبذل كل ما فى وسعه لا لخدمة المحكومين بل للتخلص من كل من يشتم فيه رائحة منازعته للسيطرة أو الرياسة أو الجاه ٠

والحكم كذلك ليس بوسيلة يتوصل بها الفرد الى استعباد الناس واذلالهم ، ونهبهم وتسخيرهم لاهوائه ومطامعه باسم المصلحة العامة ، والمصلحة من كل هذا براء : بل ان الحكم فى شريعة الله عز وجل تكليف لا تشريف وعبء كبير، قل من يقبل القيام بمسئولياته : فالحاكم فى الشريعة خادم للناس وليس بسيدهم ، وهو مسئول مسئولية مباشرة عن كل تصرفاته العامة ، ومن حق كل

فرد أن يقاضيه حقه لم ضيعه أو تهاون فيه أو قصر ، هذا الى مسئوليته المباشرة عن مصالح الشعب مجتمعة ٠

ولذا أحاطت الشريعة السلطة بسياج من الضمانات لايفلت منها حاكم ، ولو فهم الناس هذه المعانى حق الفهم وصدقوا فى اخلاصهم لانفسهم لفروا من مسئولية الحكم فرار السليم من الاجرب أو فرار انسان من حيوان مفترس ٠

والحكام المستبدون يكرهون اشد الكراهية كل من يفهم القواعد الدستورية للحكم ، اذ أن هؤلاء يكونون فى نظرهم بؤرة لتجميع الوعى العام لا تلبث أن تنطلق منها الصرخة المدوية التى تقوض أركان الطغيان والاستبداد ، ولذا نجد أنهم فى كل بلد يطاردون أمثال هؤلاء ويتخلصون منهم ما وجدوا الى ذلك سبيلا ٠

وقد حدث صدام من هذا القبيل بين القطب الدسوقى وبين السلطان الملك الاشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ ــ ٦٩٣هـ) نوجزه فيما يلى :

بدأ الصدام بمكاتبات كان يرسلها القطب الدسوقى الى السلطان كلما وجد منه تهاونا فى كبح جماح رجاله الذين يسيئون فى تصرفاتهم العامة أو يعبثون بحقوق الرعية ٠ وقد أثار ذلك حنق هؤلاء خشية أن يتنبه السلطان الى ظلمهم وجورهم ٠ وكالمعتاد فى كل عصر انبرى فريق من المنافقين ليوغر صدر السلطان على القطب الدسوقى ، ويتكلم باسم الاخلاص والحب الذى يكنه للسلطان ، ويتهم القطب الدسوقى بالاستهانة والاستهتار بالسلطان مما قد ينتهى بحدوث فتنة ، وبهذا يضربون على الوتر الحساس عند كل حاكم ٠ وأخذوا فى اغراء السلطان على الفتك به ، ولما أنسوا منه الاصغاء لوشاياتهم ، بادروا الى سرعة التخلص من القطب الدسوقى ليأمنوا شره ، ويرتعوا فى غيهم باسم المصلحة العامة :

بدأوا بارسال طرد من شهد مسموم هدية للقطب الدسوقى ، وتقول الروايات أنه حينما تسلم الهدية جمع الفقراء وقال لهم : هذا شهد ان شاء الله تعالى كلوه ولا مبالاة باذن الله ، فأكله الفقراء ولم يؤثر فى أحد ! ٠

وما زالوا بالسلطان حتى أرسل اليه الامير عز الدين ، واليه تنسب سويقة العزى فى القاهرة ، فلما وصل ركب الامير الى دسوق ، نصب خيمته على

شاطىء النيل ، وارسل من يستدعى الشيخ للمثول بين يديه ، فأرسل اليه الشيخ من قبله من يقول له : « أجلس فى خيمتك » فلم يقدر الامير على الحركة ، ومكث فى خيمته مشلول الحركة ٠

وابطأ خبره على السلطان وكثرت الشائعات وأصبحت المسألة مسألة تتعلق بكرامة السلطان وهيبته التى أصبحت فى الميزان ، فاما أن يقتل الشيخ أو يذله على الاقل ، واما ان يعترف بانه اذل من ان يخضع احد رعاياه لسلطانه ٠

وارسل السلطان وفدا من قبله ومعهم سباع يرافقه سبع يلقى اليه من يغضب عليهم السلطان ، ولما وصلوا الى دسوق وعلموا بأمر الامير قصدوا خلوة الشيخ ، فلما اقتربوا من خلوته برز لهم الاستاذ ، فهاج الاسد وقطع الطوق من رقبته ويمم شطر الاستاذ ، فخشى عليه مريدوه — وهم يفدونه بأرواحهم — فطمأنهم قائلا ، « انه لايفترس الا الغافل » ، وكاد الاسد ان يفترس الوفد المرافق له ٠

وجرت امور بعد ذلك علم منها السلطان انهقدوقع فى حبائل الوشاة ، وكاد ان يهلك بوقيعتهم فى يد أمام من أئمة العارفين ، ورأى أنه لا يكفر عن هذه سوى سفره بنفسه الى دسوق ليعتذر له عما حدث ٠

وتقول الروايات ان السلطان شاهد من القطب الدسوقى احوالا خارقة زادته اعتقادا فيه ٠

يؤيد ذلك أنه عرض عليه ما شاء من العقار والمال ، فرفض أن يطلب شيئا لنفسه ، وطلب من السلطان ان يترك نصف الجزيرة المواجهة لدسوق للفقراء ينفقون منها على مصالحهم ، فوافق (١) ثم بشره بالنصر على الصليبيين فى عكا (٢) ٠

ومن هذه الواقعة كان السلطان اذا كتب للشيخ يقول له « مملوكك خليل » ٠ فتأمل طريقته فى ترويض السلطان حتى انتهى امره بأن صار يتمنى رضاه ،

---

(١) يقول الامام شرف الدين يحيى بن الجيعان (ت ٨٨٥ هـ) عن هذه الجزيرة (جزيرة دسوق مساحتها ٧٠ فدانا عبرتها ٣٠٠ دينار كانت باسم المقطعين (الجنود) والان للعربان النصف ، والنصف وقف لسيدى ابراهيم الدسوقى. عمت بركاته) — التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية بولاق سنة ١٨٩٨ ص — ٨٤ ٠

(٢) تم فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وهى آخر حصن كان بيد الصليبيين فى الشام وبفتحها انتهت الحروب الصليبية فى الشام فى العصر الوسيط ٠

وتأمل فى الهيبة التى رزقها الى درجة أنه لا يخشى السلطان ومن دونه ، ويعلق الجلال الكركى على هذه الهيبة بقوله :

« السر فى ذلك ـ أى فى هذه الهيبة ـ أن من أراد الله به من أوليائه أن يكون داعيا اليه فلابد من اظهاره الى العباد ويكسوه كسوتين البهاء والجلالة : أما البهاء فلينظروا اليه بعين المحبة فيكون ذلك باعثا لهم على الانقياد ، قال تعالى : « **وألقيت عليك محبة منى** » وقال : « **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** » · وأما الجلالة فليعظمه العباد فيقفوا على حدود الادب معه ، ويقع له فى قلوب العباد هيبة ينصره بها ليكون ذا أمر ونهى مسموعا أمره ونهيه » ·

وهذه الهيبة (١) التى جعلها الحق فى قلوب العباد لاوليائه سرت اليهم لانبساط جاه المتبوع عليهم ، ألم تسمع قوله صلى الله عليه وسلم : « **ونصرت بالرعب مسيرة شهر** » البسهم الحق ملابس هيبته ، واظهر لهم جلال عظمته فهم الملوك وان لم تخفق عليهم البنود ، والقواد وان لم تسر أمامهم الجنود ، ولله در القائل فى الامام مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه

يأبى الجواب فما يراجع هيبة   والسائلون لديه نواكس الأذقان
أدب الوقار وعز سلطان التقى   فهو المطاع (٢) وليس ذا سلطان

ومن ملكه الله أمر نفسه وهواه فقد آتاه الله الملك « **قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء** » ·

قال الامام الشاذلى : لكل ولى حجاب ، وحجابى الاسباب ·

قال الجلال الكركى فى ذلك : « فمنهم من حجابه ظهوره بالسطوة والعزة ، سبب ظهور ذلك الولى بذلك تجلى الحق عليه ، فاذا تجلى عليه بصفة ظهر بها ، فاذا غلبت عليه شهودا ، غلبت عليه ظهورا ، فلا يقدر على صحبته ويثبت معه

---

(١) هذه الهيبة بخلاف الهيبة التى يجدها الناس للسفاحين والظلمة فهذا خوف من شدة البطش ، وهيبة الاولياء رهبة من سطوة تجليات الحق ، والفرق بينهما أن طاعة الناس للظلمة مع الكراهية والمقت لهم وتمنى زوال وجودهم ، وطاعتهم للاولياء عن رضى وانبساط نفس وتمنى بقائهم ·

(٢) فى رواية فهو المهيب · قالهما الامام الثورى رحمه الله تعالى ·

الا من محا الله نفسه وهواه ومن هذا الصنف أستاذنا رحمة الله عليه مع ملوك الدنيا ورؤسائها ، لا يجلس واحد منهم بين يديه الا والرعب قد ملك قلبه .

« ومن خلصه الله من نفسه وهواه فلا يستغرب ظهوره بالعز ، فأى ملك أعظم من هذا الملك » .

قال الامام عبد الله بن اسعد اليافعى (من أنس بالله أنس به كل شىء ، ومن هاب الله تعالى هابه كل شىء) . ونقل ابن عباد (١) عن الامام الشاذلى فى معنى عزة المؤمنين بالله : انعزة المؤمن هى (ان يمنعه الله من التعبد للنفس والهوى والشيطان والدنيا أو لشىء من المكونات فى الغيب والشهادة والدنيا والاخرة . والمنافق لا يعلم العزة الا بالاسباب والتعبد للارباب) (٢) ولذا نجد أن المنافق يفضل الاعتماد على المخلوق ولا يطمئن قلبه الى الاعتماد على خالقه ، ويظن أنه بذلك قد بلغ الحكمة ومنتهى الفطنة ، واجتهد كل الاجتهاد فى نفعه لنفسه ، مع أنه فى الواقع قد حرمها من كل سبيل موصل الى حقيقة العزة والكرامة ، وساقها الى أرض الذل المقيم والهوان الدائم .

ودخل عليه مرة أحد الامراء فوجده ملثما على عادته ، فقال فى نفسه : « لا يخلو من جذام أو برص فى وجهه » . فما تم هذا الخاطر حتى كشف الاستاذ اللثام عن وجهه ، وقال : « يا هذا لا أجذم ولا أبرص » .

فلما رأى الامير وجهه سقط على الارض مغشيا عليه ، لما وقر فى نفسه من الهيبة (٣) .

وتعرض القطب الدسوقى فى نفس الوقت الى هجوم من العلماء لايقل شدة عن هجوم الامراء .

---

(١) هو محمد بن ابراهيم بن عبد الله الشهير بابن عباد النفزى الرندى : الفقيه العارف كان من أئمة الصوفية ، وله قلم فى التصوف انفرد به وسلم له فيه ، وأشهر مؤلفاته شرح حكم ابن عطاء الله ، ومن كلامه (من لازم الكون وبقى معه ، وقصر عليه همته لم تفتح له طريق الغيوب الملكوتية ، ولا خلص له سير الى مشاهدة الوحدانية فهو مسجون بمحيطاته محصور فى هيكل ذاته) توفى سنة ٧٩٢ هـ .

(٢) طبعة ١٩٣٧ .

(٣) لسان التعريف وجه الورقة ٤٣ .

ومن النادر أن ينجو عالم من هذا الهجوم يشنه عليه أقرانه اذا ما طالعهم بجديد فى تخصصهم ، فيقفون منه ما بين قلة نادرة مؤيدة ، وأكثرية معارضة ، وجماعة من أهل الشك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، وينتهى الامر اما بالقضاء على فكرة هذا العالم أو بانتصاره على هذا الهجوم العنيف الذى يوجه باسم العلم ٠

فكان يأتيه فريق ليمتحنه ، ويسبر غوره ، ليكشفه أمام الناس على زعمه ، فريق يأتى بعنجهيته ليقوم باستعراض علمى يقنع بعده الناس أنهم من أعلم العلماء ٠

ولكن سرعان ما يتبخر هذا العلم عند مقابلتهم الاولى للقطب الدسوقى اذ يرتج على الواحد منهم فلا يدرى ماذا يقول ٠

ويصف القطب الدسوقى أمثال هؤلاء لتلامذته بقوله : « يا أولادى كم عالم غافل محجوب مزكوم لا شم ولا لم ولا فهم ولا علم ولا نظر ولا اطلع على ما اطلعت عليه » .

ومنهم من يأتى ليعرف حقيقة الامر فاذا صدقت الحقيقة الخبر ، صار من أتباعه ، لانه يبحث عن الحق أينما كان ٠ وقد استسلم له كبار علماء عصره واعترفوا له بعلو كعبه فى العلوم والى ذلك يشير فى تائيته :

وكم عالم قد جاءنا وهو منــكر فرد بفضل الله من أهل خرقتى

ومما يروى عنه :

أن سبعة من القضاة جاءوا ليمتحنوه ، فلما وصلت المركب بهم الى ساحل دسوق ، ونزلوا منها ، قصدوا مكان القطب الدسوقى ٠

وتقول الروايات أن نقيبه نهرهم ، فأصيبوا بذهول مدة من الزمن ثم عادت اليهم الذاكرة ، فتعجبوا من أمرهم ، وما آل اليه حالهم من تغير مظهرهم ورثاثة ثيابهم وطول لحاهم وشواربهم ، وعلموا أن ذلك من تهجمهم الذى لا مبرر له على عارف من كبار العارفين ، فتابوا الى الله عز وجل ، وقصدوا الى دسوق مرة أخرى ، واذا بالقطب الدسوقى قد أرسل نقيبه لاستقبالهم فتلقاهم وقادهم الى الاستاذ رضى الله تعالى عنه فابتدرهم بقوله : « قولوا ما

عندكم من المسائل » يقصد المسائل التى أعدوها لامتحانه فيها قبل فقدان الذاكرة الذى أصابهم ، فضحكوا وقالوا « يكفينا ما جرى لنا » • وأخذوا عليه العهد ، وصاروا من أخلص تلامذته •

اجماع من كتبوا عنه على علو مقامه

قال عنه فى لوافح الانوار القدسية (١) :

« وقد ترجمه بعضهم بانه أحد الائمة الذين ابرز الله لهم المغيبات وخرق لهم العادات ، وأوقع لهم الهيبة فى القلوب ، وانعقد على فضله اجماع المشايخ ، وكان مقصودا لحل المشكلات ، وكشف خفيأت الموارد رضى الله تعالى عنه •

وترجمه بعضهم أيضا بانه الشيخ الكامل الراسخ أحد أعيان المشايخ الواصلين وصاحب الكرامات والخوارق فى حياته وبعد مماته ، انتهت اليه رياسة الكلام على خواطر الخلق وتتلمذ له خلائق من العلماء والصلحاء والقضاة •

وترجمه بعضهم بأنه الشيخ الكامل ، كان له المقام العالى فى قلوب العلماء والملوك ، والمهابة فى الصدور ، وقصد للزيارة وللتبرك من سائر الافاق •

وترجمه بعضهم بأنه الشيخ الكامل الراسخ من أجل مشايخ مصر وسادات العارفين ، صاحب الكرامات الظاهرة والافعال الفاخرة ، والاحوال الخارقة والمقامات السنية والهمم الفخيمة ، صاحب الفتح الموفق ، والتصدر فى مواطن القدس والترقى فى معارج المعارف ، وكان له الباع الطويل فى التصريف النافذ واليد البيضاء فى احكام الولاية ، والقدم الراسخ فى درجات النهاية والطور السامى فى الثبات والتمكين ، وهو أحد من ملك أسراره ، وقهر أحواله ، وغلب على أمره ، وهو أحد اركان الطريق •

وترجمه بعضهم بأنه صاحب المحاضرات القدسية والمعراج الاعلى فى المعارف ، والمنهاج الاسنى فى الحقائق ، والطور الارفع فى المعالى والقدم الراسخ فى احوال النهايات واليد البيضاء فى علم الوارد والباع الطويل فى

---

(١) الامام الشعرانى : لوافح الانوار وجه الورقة ١٠٢ و ١٠٣ •

التصريف النافذ والكشف الخارق عن حقائق الايات ، والفتح المضاعف فى معنى المشاهدات ،وهو أحد من أظهره الله تعالى الى الوجود وابرزه رحمة للخلق واوقع له القبول التام عند الخاص والعام ، وصرفه فى العالم ومكنهفى أحكام الولاية ، وقلب له الاعيان ، وخرق له العادات ، وانطقه بالمغيبات ، وأظهر على يديه العجائب ، وصومه فى المهد .

وحلاه المناوى (١) فى طبقاته بقوله :

« شيخ الخرقة البرهامية صاحب المحاضرات القدسية والعلوم والاسرار العرفانية ، أحد الائمة الذين أظهر الله لهم المغيبات وخرق لهم العادات ، ذو الباع الطويل والتصريف النافذ واليد البيضاء فى أحكام الولاية ، والقدم الراسخ فى درجات النهاية ، انتهت اليه رياسة الكلام على خواطر الانام وكان يتكلم بجميع اللغات ، ويعرف لغات الوحش والطير » ويقصد باللغات الانسان وغيره من المخلوقات كما هو ظاهر كلامه .

ونقل شيخ الاسلام الشيخ أحمد الصاوى (٢) هذه التحلية عن الامام المناوى وحلاه المذيلة لى محمد أمين المدنى (٣) بقوله : كان من صدور المقربين وكان صاحب كرامات ظاهرة ومقامات فاخرة » .

وحلاه القطب (٤) محمد البهى بقوله : « فهو قطب الاقطاب ، وعمدة العمد الانجاب ، وكعبة الحقيقة وبحر الامداد والطريقة ، ومناقبه كثيرة وكراماته شهيرة » .

وحلاه الجلال الكركى فى لسان التعريف (٥) بقوله :

« سلطان الاولياء وسكردان الاصفياء برهان الدين ، جوهرة سلك الصالحين ، واسطة عقد المخلصين ، لسان حال المتكلمين ، الخائض فى بحر العلوم بأقوى قواعد التمكين » . وأطال رضى الله تعالى عنه فى وصفه .

---

(١) الكواكب الدرية مخطوط — ج ٢ وجه الورقة ٢٢٨ .
(٢) حاشيته على شرح الخريدة للامام الدردير — ص ٧٩ .
(٣) طبقات الفقهاء والعباد والزهاد — مخطوط ظهر الورقة ٧٨ .
(٤) شرح حزب القطب الدسوقى له ظهر الورقة ١ . مخطوط .
(٥) لسان التعريف مخطوط ظهر الورقة ١٠ .

« تعريفـه بعلو مقـامه »

وكان رضى الله تعالى عنه يضمن كلامه وشعره التعريف بعلو مرتبته وهو ما يسمونه « الشطح » ، وينسب اليه الكثير فى هذا الباب ·

فمن كلامه :

« أعرف تلامذتى من يوم : ألست بربكم »(١) ·

وقال مثل هذا كثير من العارفين مثل الامام التسترى وغيره ·

« ومن كلامه رضى الله تعالى عنه فى كتابه المسمى برهان الحقائق(٢)انه قال يا فوز من رآنى او رأى من رآنى او رأى من رأى من رآنى » الى ثلاثة عشر ·

قال البقاعى واجتمعت والحمد لله على الشيخ اسماعيل بن محب الدين العيساوى البصرى وهو راى الشيخ الخرشى أمام المالكية فى عصره وهو رأى الشيخ على الاجهورى العارف الكبير ، وهو رأى الشيخ خير الدين الكركى، خليفه المقام ، وهو رأى السيدة فاطمة بنت الشيخ عبد الله أبى الطيور ، وهى رأت أباها ، وهو رأى أباه السيد محمد ، وهو رأى أباه السيد موسى ، وهو رأى أخاه القطب الدسوقى » ·

والرؤية هنا لها معنى عند العارفين ، والا فقد يرى العارف الكافر والفاجر والمنافق والمؤمن ، والرؤية المقصودة هنا ، هى رؤية البصيرة اى رؤية الاتباع بشروطه المعلومة والا فلا ·

وقد قال هذه المقالة كثير من العارفين ولا تخرج عن هذا المعنى ومتابعته صلى الله عليه وسلم هى أساس كل سعادة ، جاء فى الحديث الشريف « **لا تجتمع أمتى على ضلاله** » ، والامة على ثلاثة أقسام : أمة الدعوة وأمة الاجابة وأمة المتابعة ، والاخيرة هى التى لا تجتمع على ضلالة أبدا .

والعارف حين يتحدث يكون مستغرقا فى شهوده صلى الله عليه وسلم فيجرى على لسانه كلام يناسب مشاهدته فحيث يشهد بديع أنواره صلى الله

---

(١) ، (٢) طبقات الابرار للبقاعى ظهر ق ١١٦ ·

عليه وسلم ، وأن كل خير متفجر من أقواله وأفعاله وألا نجاة الا بالاهتداء بهديه ، يقول العارف : طوبى لمن رآنى ، وهو يقصد رؤية من استغرق فى أنواره كل عارف ، فمن لم يتحقق بذلك فلا سبيل له الى هذه الرؤية ٠

ومن هذا القبيل جميع تصريحات القطب الدسوقى فهى خارجة منه وهو مستغرق فى شهود مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحمة الشاملة للعالمين ٠

قال القطب البهى فى شرحه على حزب القطب الدسوقى أنه أخبر عن نفسه ان من زاره مات على الاسلام ، وهذا ايضا من هذا القبيل ، فلا يتحقق الموت على الاسلام الا بشروطه فلا اشكال ٠

ومنها قوله (١)

« انا البحر الذى لاساحل له ، انا نار الله الموقدة ، انا المنتقم لله ، اناوقاد الحرب ، أنا سيف الله على أعدائه ، أنا الشهاب الثاقب الساطع ،أناالسيف القاطع ، أنا البرق اللامع ، أنا الدرع المانع ، أنا القطب الغوث ، الفرد الجامع ، أناصاع يوسف فىحضرة الملك ، لولا حجاب الشريعة على فمى لتكلم الصاع بما فيه » ٠

ومنه : « حكمت فى مشارق الارض ومغاربها ، وخضت البحار ، ودقت كاساتى فى الاقطار ، وصرت أمام قوم أخيار ، وكل ذلك من العزيز الجبار » ٠

ومن شعره فى هذا المعنى :

على مذهبى كل المحبين يممـــوا ... ونشأة خمـرى هيمتهم فهمهـوا
وكل ملاح الحى أرخوا لثـــامهم ... على وعن غيرى أبوا وتلثمـــوا
أنا الصاحىأنا السكرانمنغير خمرة ... أنا الضاحك البـاكى وسرى مكتم
اذا ما حضرنا والرقيب بمعــــزل ... ترانا سـكوتا والهـوى يتـكلم
بحق الهوى من مات من لفحةالهوى ... ويبطل أصـحاب الحديث المغمغم

وله تائيتان ، تائية مختصرة وتائية مطولة :

(١) من لسان التعريف ظهر الورقة ٣٨ ووجه ٣٩ ٠

وهاهى التائية الاولى :

سقانى محبوبى بكأس المحبة فتهت على العشاق سكرا بخلوتى
ولاح لنا نور الجلالة لو أضا لصم الجبال الراسيات لدكت
ونادمنى سرا بسر وحكمة وان رسول الله شيخى وقدوتى
وعاهدنى عهدا حفظت لعهده وعشت وثيقا صادقا بمحبتى
وحكمنى فى سائر الارض كلها (١) وفى الجن والاشباح رب البرية
وفى أرض الصين والأرض كلها الى اقصى بلاد الله صحت ولايتى
انا الحرف لا اقرا لكل ناظر وكل الورى عن امر ربى رعيتى (٢)
وكم عالم قد جاءنا وهو منكر فصار بفضل الله من أهل خرقتى
وما قلت هذا القول فخرا وانما أتى الاذن كى لا تجهلون طريقتى

ونذكر مختارات من التائية المطولة فمنها :

نجلى لى المحبوب فى كل وجهة فشاهدته فى كل معنى وصوره
وخاطبنى منى بكشف سرائر تعالت عن الاغيار لطفا وجلت
وانظر فى مرآة ذاتى مشاهدا لذاتى بذاتى وهى غاية غايتى
وما شهدت عينى سوى عين ذاتها لان سواها لا يلم بفكرتى
فأغدوا وامرى بين امرين واقف علومى تمحونى ووجدى مثبتى

ومنها :

نعم نشأتى فى الحب من قبل آدم وسرى فى الاكوان من قبل نشأتى
على الدرة البيضاء كان اجتماعنا وفى قاب قوسين اجتماع الاحبة
وكل ولى للاله مؤيد يشهد أنى ثابت فى ولايتى
أنا القطب شيخ الوقت فى كلمذهب انا السيد البرهان شيخ الحقيقة

ومنه قوله :

قدمى هذا على كل ولى حتى على ابن الرفاعى قد علا
كل شيخ آخذ عهدى كذا كل قطب كان قبلى أولا

والقدم يعنون به : المقام اى أن مقامه على كل قطب

---

(١) الارض : فى اصطلاحهم : أرض النفوس .
(٢) الرعية : هى كل قوى الانسان الوجودية .

ومن ذلك قوله :

يقولون ما العـــلم ما السر الذى ... هو الجوهر العالى من البحر خبرنا
فقلت لهم هذى مطـالع نورنـا ... ومغربهـا فينـا ومشرقهـا منا
على الدرة البيضاء كان اجتماعنـا ... ومن قبل خلق الخلق والعرش قد كنا
تركنا البحـار الزاخـرات وراءنا ... فمن أين يدرى الناس أين توجهنا (١)

ومنه قوله :

ولـو ألقيت سرى فـوق ميت ... لقـام بقـدرة المـولى سعى لى
مريـدى لا تخف وأعـلم بأنى ... قـريب السر من مولى المـوالى
مريدى طب وهم واشـطح وغن ... واطلب ما تشـا فالاسم عـالى
مريـدى اننى ادعى الدســوقى ... وشـيخى المصـطفى كأسى ملالى

وكان القطب الدسوقى يتولى بنفسه شرح بعض المعانى المشكلة ، حتى لا يلتبس أمره على السامع ويقول (وما يعلم ما قلت الا من انخلع من طبعه وصار كالملائكة) ٠

ويقول (فيا جميع الاخوان والاولاد من جد وجد ومن حصلت له العنايات الربانية اغناه الله من فضله الجزيل) ويقول (فاياك يا ولدى أن تعترض على أفعالنا فان أولياء الله متصلون بحضرة الله تعالى) ٠

وقد علق الجلال الكركى على بعض (٢) عباراته فى الشطح بقوله :

---

(١) هذه الابيات ذكرها الدكتور زكى مبارك رحمه الله تعالى فى كتابه التصوف الاسلامى وقال معلقا عليها (نقلنا هذه الابيات عن (جواهر الحقائق) منسوبة للدسوقى ، اتراها كانت لابن عربى وغفل النابلسى عن صحة النسبة ؟ والبيت الاخير ذكره الشعرانى فى كتاب البحر المورود وقال ان الشيخ محيى الدين كان ينشده كثيرا — ﺣ ١ ص ٢٧٣ ط القاهرة ١٩٣٨ ووجدت ان بعض هذه الابيات منسوب للامام الجيلانى فقد نقل العلامة التادفى عن أحد أصحاب القطب الجيلانى أنه قال « كان سيدنا الشيخ محيى الدين عبد القادر رضى الله عنه قد غاب عن أصحابه فى بعض رياضاته فلما خرج أتوه وسألوه عن حاله مع الله تعالى فأنشد يقول) ثم ساق قصيدة له جاء فيها :

وشمس على المغنى مطـالع نورها ... مغاربها فينـا ومطلعهـا منـا
وما البحر والمغنى وما الشمل قل لنـا ... وما جوهر البحر الذى عنه عبرنها ؟
تركنـا البحـار الزاخرات وراءنـا ... فمن أين يدرى النـاس أين توجهنـا !
وتم حديث جـل كنه صـفاته ... عن الوصف ما فهمنـا بذاك ولا بحنـا
شـهدنا جمـالا ما تجلى لغيرنـا ... تلاحظه أرواحنـا عنـه ما حدنـا

قلائد الجواهر للعلامة محمد بن يحيى التادفى : ص — ٤٠ —

(٢) لسان التعريف وجه الورقة ٣٩ وما بعدها ٠

(ان قلت ان هذه الامور التى صدرت من الشيخ دعاوى ، ولايخفى ماورد فى كلام القوم من ذمها وان كانت صادقة ، وقد تضمن ذمها نهى الشيخ فى رسالته عن أمور منها القول بالمشاهدات قال : فان كل هذا نفوس وشهوات »

قلت : كلام القوم واستاذنا فى ذلك انما هو فى حق المريد على سبيل التربية له : فأشاروا الى أنه لا يتفوه بما يشاهده · وأما العارف فلا ملام عليه بما يبديه الحق على لسانه من المعارف اذ قد عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله فى معاملاته ثم تنقى من اخلاقه الردية ، فحظى من الله بجميل اقباله ، وصدق الله فىجميع أقواله ، وانقطع عنه هوى نفسه ، ولم يصغ بقلبه الى خاطر يدعو الى غيره ، فصار من الخلق اجنبيا ومن آفاته النفسية بريا ومن المساكنات والملاحظات نقيا ·

ودام فى السر مع الله نجيا · وحق فى كللحظة اليه رجوعه ، وصار محدثا من قبل الحق بتعريف أسراره ، فيما يجريه من تصاريف أقداره ، فيسمى عند ذلك عارفا وتسمى حالته معرفة ، وحينئذ يكون اخباره أعنى العارف بما منه الله عليه من النعم الجسام ، وأنه بلغ من الوصول الى الله لافضل مرام من باب التحدث بالنعمة ، وقد أمر سبحانه بذلك نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام بقوله : (**وأما بنعمة ربك فحدث**) ·

قال المفسرون الخطاب له والحكم له ولغيره عام ، والتحدث بنعم الله والاعتراف بها على وجه الخضوع : شكر على الحقيقة ، كما قال أهل الطريقة : العبودية التبرى من الحول والمنة ، والاعتراف بما يعيطك ويوليك من الطول والمنة · ويؤثر عن الحسن بن على السبط رضى الله تعالى عنه أنه قال : اذا أصبت خيرا أو عملت خيرا فحدث به الثقة من اخوانك · وعن عمرو بن ميمون اذا لقى الرجل من اخوانه من يثق به يقول : رزقنى الله تعالى من الصلاة البارحة كذا وكذا · وكان أبو فراس اذا أصبح يقول : لقد رزقنى الله البارحة كذا ، وقرأت وصليت كذا وذكرت كذا وفعلت كذا · ويقال له : ياأبا فراس ان مثلك لا يقول هذا ، قال : يقول الله تعالى (**وأما بنعمة ربك فحدث**) وتقولون أنتم لا تحدث بنعمة الله تعالى ! ونحوه عن أيوب السختيانى (١) وأبى رجاء العطاردى ·

---

(١) من كبار التابعين (٦٨ -- ١٣١) هـ ·

ولتحديد هذه المسألة يجب أن نعرف : ماهى نعمة الله تعالى · ومن هو الذى يتحدث بها ؟ ونعمم الله عز وجل هى كل ما قربك لله عز وجل ، كما ان النقمة هى كل ما أبعدك عنه سبحانه وتعالى .

ولكن ضعاف العقول والجهلة فهموا غير هذا : اذ اعتقدوا أن نعمة الله تعالى هى ما يحصل عليه أحدهم من الماديات ، فيتباهى ويتفاخر ويتلذذ بالحديث عما عنده من وسائل الرفاهية ، ثم يردف ذلك مبتسما (وأما بنعمة ربك فحدث (مع انه فى طريقة عرضه لما سماه نعما ، انما يحاول ان يستذل غيره ويتعالى عليه ، ليجبره على احترامه والاعتراف بأنه أكثر منه جاها وعزة ومالا وهذا الذى يتحدث بنعمه سبحانه وتعالى لو طلب منه بذل درهم فى سبيل الله تعالى لثقل ذلك عليه ، وتسمح نفسه بشراء زينة تافهة أو شىء من الكماليات بعشرات الجنيهات ، يفعل هذا ويظن أنه مؤمن شديد الايمان . مع أنه لو علم لعرف ان ماعده من النعم على هذا الوجه انما هى نقم يفتتن بها ويفتن غيره ، وهذا من سوء الادب الذى انتشر بين الناس واعتبروه من الاعمال التى حث عليها الشرع · والشرع من ذلك براء ·

اما الذى يحق له التحدث بالنعمة فهو من اذا تحدث كان ذلك شكرا لله عز وجل ، أو تذكيرا للغير بآلائه سبحانه وتعالى أو حثا له على الاخلاص له تعالى فى كل موطن ·

أما الذى يحق له التحدث بالنعمة فهو من اذا تحدث كان ذلك شكرا لله عز
وآفاتها ، صافى السريرة حاضر القلب مع الله عز وجل ، هؤلاء اذا تحدثوا بنعمه تعالى ازداد الناس ايمانا على ايمانهم واشتاقت نفوسهم الى الطاعات وامتلأت حياء من الله تعالى ·

يقول رضى الله تعالى عنه(١) :

الا اننـــا من معشر سبقت لهم ... اياد من الحسنى فعوفوا من الجهل
ولم ينظروا يوما الى ذات محـــرم ... ولم يعلموا غير التقية فى الفعــــل
نعاين ما فوق الســـموات كلهـــا ... معاينة الاشخاص بالجوهر المجلى

---

(١) من كتاب (مختصر مسرة العينين) للشيخ عبد الحى بن على ــ خط وجه وظهـر الورقة ٣ .

ونعـــــلم ما كنـــا ومن أين نورنا وما نحن بالتصوير فى عالم الشكل
وانا وان كنـــا فى عـــالم الثـــرى فأرواحنـــا فى عالم الغيب تستعلى

ونختتم هذا الباب بسؤال وقع فى هذا الصدد للامام ابن حجر (١) الهيتمى اذ سئل بما نصه : (ما الذى يجاب به عما وقع من شطحات الاولياء من كلماتهم واشاراتهم التى ظاهرها انتقاد وباطنها حق ..) ونلخص فيما يلى جوابه عن هذا السؤال :

لقد أجاب الائمة العلماء ، العارفون الحكماء عما صدر عنهم بأحسن الجواب وحملوا أقوالهم على أحسن المحامل وأقومها ، ولهم فى ذلك أجوبة مسكتة وتحقيقات مبهتة لا يهتدى اليها الا الموفقون ولا يعرض عنها الا المخذولون ، فمن حارب أولياء الله تعالى أو تعدى بالانكار عليهم لا يفلح أبدا فقد قال تعالى على لسان الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم **(من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب** والمسالك التى تحمل عليها شطحاتهم هى :

١ ـ (ان تلك الكلمات حكاية عن حضرة الحق ونطق عما يليق بما شاهدوه من الانوار ، وغلبة التجوز فى نحو ذلك من مقامات المحبة والعبودية والقرب يبسط لهم العذر ويرفع عنهم الاصر ، وممن اعتمد هذا المسلك الشهاب السهروردى ، المجمع على امامته فى العلوم الظاهرة والباطنة فى عوارفه) ثم استشهد بنصوص من عوارف المعارف .

٢ ـ (ان ذلك وقع منهم فى حال الغيبة والسكر الناشئين عن الفناء فى المحبة والشهود لموارد الاحوال المزعجة للقلب ،الاخذة له من صحوه وتمييزه ، الا ترى ان بعض الهموم أو الواردات الدنيوية اذا وردت على القلب أذهلته وأذهبت تمييزه لشدة تمكنها منه ، واستغراقه فى فكره وخطرها فاذا كان هذا فى الامور السافلة التى لا تقوم بجناح بعوضة ، فكيف بواردات الحق على القلوب ولواعج المحبة المذهلة عن كل مطلوب ومرغوب وعوالم الملكوت المنكشفة لهم فى منازلاتهم ، ومشاهدة عجائب القدرة فى ترقياتهم فان ذلك لا

---

(١) الامام شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى المكى (نسبة الى محلة أبى الهيتم بمصر وقد ولد بها) الشافعى المتوفى بمكة سنة ٣ ـ ٩٧٥ هـ وله كتاب الفتاوى الحديثية ط القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ ص ٢٢٨ وما بعدها .

يبقى فى القلب شعورا ولا تمييزا بل يصير صاحبه كالسكران التمل فحينئذ ، ينطق بما رسخ فى خلده قبل · ويرجع بطبعه قهرا عليه الى مكان يلحظه ويعول عليه ، فينطق لسانه بطبق تلك الاحوال لكن بعبارات لا يقصد بها ما يوهمه ظاهرها من اتحاد أو حلول او انحلال ، فتأمل ذلك وعول عليه تسلم · وكل سكر نشأ عن سبب جائز فصاحبه غير مكلف · وممن اعتمد هذا المسلك القطب الربانى عبد القادر الجيلانى نفع الله به ·

٣ ـ (أنهم قد يؤمرون بذلك تعريفا لجاهل أو شكرا وتحدثا بنعمة الله كما وقع للشيخ عبد القادر) ·

٤ ـ (ان الشطح قد يكون فيه نفع للخلق ، وقد عرفوا ذلك بالهام أو كشف أو خطاب او نحوها من وجوه التعريفات) · كما يقع من بعضهم حين يقول من رآنى دخل الجنة أو نحوه ·

٥ ـ (ظهور المراد من اللفظ وان أشكل ظاهره كما وقع للشيخ أبى الغيث بن جميل أنه جاء اليه جماعة فقال لهم مرحبا بعبيد عبدى فاشتد انكارهم عليه وذكروا ذلك للعارف الشهير اسماعيل(١) الحضرمى فقال لهم : صدق : (أنتم عبيد الهوى والهوى عبده) ·

وفى هذا المعنى يقول العارف الشهير السيد مصطفى بن كمال الدين البكرى فى ميميته :

ملوك ولكن الملوك عبيدهم وعبدهم أضحى له الكون خادما

٦ ـ الاشارة الى الخلافة عن الحق بالاذن له فى التصرف فى الكون كما قال الشيخ أبو الغيث :

وحبانى الملك الميهن خلعة فالارض أرضى والسماء سمائى

كتب هذا ردا على خطاب أرسله اليه العارف الشهير احمد بن علوان اليمنى يقول له فيه (جزت الصفوف الى الحروف والاسماء الى الهجاء حتى انتهيت الى مراتب الابداع) ·

وقوله الارض أرضى الخ . يعنى أرض النفس قد ملكها وسماء الروح قد انقادت له باذن الله تعالى · وهو خلاف ما يتبادر الى الذهن · فهؤلاء منهم

---

(١) هو الامام الكبير اسماعيل بن محمد الحضرمى وهو صاحب مدرسة من مدارس التصوف توفى سنة ٦٧٧ هـ ·

نستقى الادب وبهم نقتدى فى الجهاد فى سبيل الله عز وجل • ولا نسمح لمنافق أفاق قد تلوث بقاذورات النفوس حتى عبد هواه فى طلب الحياة الدنيا كما يفهمها لا نسمح لامثال هؤلاء المدنسين بالانكار على هؤلاء •

٧ ـ (قصد التخريب وهو ما يقع للملامتية وهم قوم طابت نفوسهم مع الله فلم يودوا أن يطلع احد على اعمالهم فاذا رأى أحدهم أن أحدا اعتقد فيه خرب ، اى ارتكب مايذم به ظاهره من فعل وقول كسرقة بعض الاولياء وهو ابراهيم (١) الخواص نفع الله به وناهيك به علما ومعرفة : لما رأى أهل بلده يعتقدونه سرق ثيابا من الحمام لابن الملك وخرج يتبختر بها حتى ادركوه فضرب وأخذت منه وسمى لص الحمام فقال : الان طابت الاقامة فى هذا البلد) • وبديهى أنه لا يقصد السرقة بدليل أنه عرض نفسه على صاحب الثياب حتى يستردها ويبقى له ماأراد • وهذا من قبيل استعمال بعض المحرمات للضرورة كالتداوى بالنجاسة ، أو أكل مالا يحل اذا خشى الانسان الهلاك وذلك بقدر ما ينجيه من الهلاك •

وقد تروى عن أحد الاولياء كرامات وخوارق وتصدر عنه الشطحات ، وقد لا يروى عن أحدهم شىء من هذا القبيل وقد يربط الناس الحالة الاولى بمرتبة الولى فيعتقدون أن علو المرتبة يقترن بالخوارق والشطح ، والواقع انه لا ارتباط أبدا بين ذلك وبين مرتبة الولى • وانما تصدر الكرامات أوالخوارق طبقا لحكم المقامات التى يقطعها • وقد فصل الكلام على هذه المسألة الامام المجدد الشيخ احمد الفاروقى السهرندى (٩٧١ ــ ١٠٣٤ هـ) فقال :

(ماكل من كانت خوارقه أكثر تكون ولايته أتم وأكمل ، بل قد تكون خوارقه أقل وولايته أتم وأكمل • ومدار كثرة الخوارق على شيئين وهما : أن يكون الصعود فى وقت العروج أكثر والهبوط فى وقت النزول أقل • بل الاصل العظيم فى كثرة ظهور الخوارق هو قلة النزول كيفما كان العروج لان صاحب النزول ينزل الى عالم الاسباب فيجد الاشياء مربوطة بها ، ويرى فعل المسبب من ورائها والذى لم ينزل أو نزل ولكنه لم يصل الى الاسباب فنظره مقصور على مسبب الاسباب ، والاسباب قد ارتفعت عن نظره ، والحق سبحانه يعامل كل أحد على حسب ظنه ، فيقضى أمر من يرى الاسباب بها ، ويقضى أمر من لايرى الاسباب

(١) العارف الشهير ابراهيم الخواص توفى سنة ١٨٤ هـ •

بدونها . قال تعالى فى الحديث القدسى : « أنا عند ظن عبدى بى ... » ولطالما كان يخطر ببالى انه ما السبب فى كون الخوارق التى ظهرت على يد الشيخ عبد القادر رضى الله عنه لم تظهر على يد كثير من كمل الاولياء السابقين حتى أطلعنى الله تعالى على سر ذلك ، وهو أنه كان عروجه أعلى من اكثرالاولياء ، وفى جانب النزول كان نزوله الى مقام الروح الذى هو فوق عالم الاسباب ، ومما يناسب هذا المقام ، ما حكى : أن الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه كان واقفا على شاطىء النهر ينتظر السفينة فجاء حبيب العجمى رضى الله عنه فوجده واقفا فقال له : ماذا تنتظر ؟ قال : السفينة . فقال له : وأى حاجة الى السفينة ! أمالك يقين . فقال الحسن : أمالك علم ! ثم مشى حبيب على الماء ، وبقى الحسن حتى ركب فى السفينة . فلما كان الحسن نازلا الى عالم الاسباب عامله بها ، وحبيب لم ينزل فعامله بدونها ، والفضل للحسن فانه صاحب علم جمع بين علم اليقين وعين اليقين وعرف الاشياء كما هى ، وفى نفس الامر جعلت القدرة مستورة خلف الحكمة . وحبيب العجمى صاحب سكر وله يقين بالفاعل الحقيقى من غير أن يرى للاسباب مدخلا . وهذه الرؤية غير مطابقة لما فى الواقع فان توسط الاسباب كائن وحاصل . وأما شأن التكميل والارشاد فهو بعكس طريق ظهور الخوارق فان مقام الارشاد كلما كان نزوله اكثر كان فى الارشاد اكمل لانه لابد من حصول المناسبة بين المرشد والمسترشد وذلك منوط بالنزول . واعلم انه كلما كان الصعود أعلى يكون الهبوط المناسب له أنزل ، وربما تحصل الافادة من المتوسطين فى هذا الطريق اكثر من المنتهين فمدار كثرة الافادة وقلتها على الهبوط والرجوع لا على الانتهاء وعدمه . وههنا دقيقة وهى : كما أنه ليس من شرط الولاية علم الولى بنفس ولايتهكما هو المشهور ، كذلك ليس من شرطها علمه بخوارقه ، فربما ينقل الناس عنه خوارق شتى وهو لا علم له بها . وكان شيخنا (١) قدس سره يقول : والعجب أن الناس يأتون الى من الاكناف والاطراف فبعضهم يقول رأيناك فى مكة وبعضهم يقول رأيناك فى بغداد فيظهرون الصحة والمعرفة والحال انى ما خرجت من بيتى فما هذا الافتراء) أهـ .

---

(١) شيخه رضى الله عنه هو العارف مؤيد الدين محمد الباقى الدهلوى (٩٧٤ — ١٠١٤هـ) توفى بدلهى بالهند .

البَابُ الرّابع



وقف أئمة التصوف من التأليف موقفين متغايرين الا أنهما يلتقيان عند غاية واحدة اذ لا مقصد للقوم سوى الله عز وجل في جميع شئونهم ٠ « فمنهم فريق اتخذ من المساجد والحلقات معاهد لتخريج الرجال العاملين بالكتاب والسنة ومن أئمة هذا الفريق فى القرن الثالث الهجرى :

معروف الكرخى : ٢٠٠ هـ .

والسرى السقطى : ٢٥١ هـ .

وابو يزيد البسطامى : ٢٦١ هـ .

وسهل بن عبد الله التسترى : ٢٨٣ هـ .

والجنيد : ٢٩٧ الملقب بسيد الطائفة .

ومنهم فى القرن السابع الهجرى :

مؤسس الطريقة الشاذلية الامام ابو الحسن الشاذلى : ٦٥٦ هـ .

ومؤسس الطريقة السطوحية القطب السيد أحمد البدوى : ٦٧٥ هـ .

ومؤسس الطريقة البرهامية القطب السيد ابراهيم الدسوقى ومعظم الصوفية من هذا الفريق .

روى عن ابن عطاء الله السكندرى أن أبا الحسن الشاذلى سئل لم لا تضع الكتب فى الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم ؟

فأجاب بقوله : كتبى أصحابى .

أما الفريق الثانى فقد اتخذ من الكتب منابر لبيان الطريق وشرح أصولها ونشر علومها والاشارة الى أذواقها ومعارفها ، فكانت كتبهم خزائن حفظت للعالم أثمن تراث فى بابه كما صانته من كل دخيل وحمته من دعاوى الادعياء ٠

ومن أئمة هذه المدرسة ،

المحاسبى : ٢٤٣ هـ : أبو نصر السراج الملقب بطاووس الفقراء ٣٧٨ هـ والكلاباذى : ٣٨٠ هـ : والسلمى : ٤١٣ هـ : والهجويرى : ٤٦٥ هـ والقشيرى : ٤٦٥ هـ : والغزالى : ٥٠٥ هـ : وابن العربى : ٦٣٨ هـ

والمؤلفون من الصوفية ندرة بالنسبة لرجال التصوف اذ القوم أبعد ما يكون عن المظاهر ولا هم لهم سوى خالقهم فى كل حركة أو سكنة ، ومن ألف منهم لم يخط كلمة بيمينه الا بنية التقرب الى الله عز وجل ولعلها تكون سببا فى الاهتداء الى الحق لمن بحث عنه بصدق واخلاص ·

فالتاليف فى التصوف بالذات ليس بمعيار يصلح لقياس درجات الصوفية ، فقد يكون أحدهم من أصحاب المؤلفات وهو أقل درجة ممن لم يترك أى مؤلف له ولكنه نقش آثاره فى صدور أصحابه ومريديه ·

ولو التفت مريدو القطب الدسوقى الى تسجيل مجالسه العلمية ، وارشاداته واشاراته وتوجيهاته لتركوا لنا ذخيرة علمية حافلة بالمعارف المبتكرة العزيزة المنال فى كل باب تناولته ·

ولكن لم يصلنا من انتاجه سوى أحزابه وأوراده وهذه محفوظة فى صدور مريديه ورجال طريقته قبل أن تحفظها الاوراق ، وفيما عدا ذلك وصلتنا شذرات متفرقة من كتبه أو مختارات من أقواله سجلها العلماء الذين كتبوا عنه ·

أحزابه وأوراده

عرف الامام العارف الصوفى أحمد زروق (١) الحزب بأنه : هو الورد المعمول به تعبدا ، وهو فى الاصطلاح : مجموع أذكار وأدعية وتوجهات وضعت للذكر والتذكير والتعوذ من الشر وطلب الخير وحصول العلم ، مع جمع القلب على الله سبحانه وتعالى بذلك .

والاوراد والاحزاب تتضمن :

الثناء على الله عز وجل وتقديسه وتمجيده وتفريده بالكمالات اللائقة بحضرة الالوهية ، وتتضمن الاستغفار والتوبة والاستعاذة بالله سبحانه وتعالى من كل حجاب يقطع الانسان عن الهدى المحمدى ·

وفيها طلب التوفيق الى كل خير يرضاه الحق تبارك وتعالى فى الدنيا والاخرة ·

---

(١) هو الامام العالم الفقيه المحدث الصوفى : أحمد بن احمد بن محمد بن عيسى البرنسى (٨٤٦ — ٨٩٩ هـ) الشهير بزروق . بضم النون فى البرنسى نسبة الى عرب بالمغرب . وصلنا من مؤلفاته اكثر من خمسين مؤلفا .

والقصد من ذلك كله :دوام الحضور مع الحق سبحانه وعدم الغفلة عنه ٠

وواضعو الاحزاب والاوراد اما أن يكونوا من مؤسسى الطرق الصوفية الرئيسية أو من مؤسسى فروع هذه الطرق ٠

ولكل عارف منهم صيغة خاصة فى الصلاة على امام الهداة صلوات الله وسلامه عليه ، هى مفتاح أنوار روح ذلك العارف ، وسبيل كماله ، وباب فتوحه الموصل الى خزائن العلوم الاصطفائية التى لا يطلع عليها سوى صفوة الله تعالى من خلقه ٠

والاحزاب التى اقرها أساتذة الطرق الصوفية على ثلاث أنواع :

قسم خاص بما ورد فى الحديث الشريف ٠

وقسم سجل فيه العارف ما الهمه الله عز وجل بعبارات واضحة ٠

وقسم سجل فيه العارف ما أفيض عليه من الانوار بعبارات ممتزجة بحروف لا يدرى معانيها الا من كان فى مرتبته ومقامه ، ومثال ذلك الحروف الواردة فى أوراد القطب الجيلانى ، والامام الشاذلى ، والعارف ابن سبعين والقطب الدسوقى ، وكلهم فى طريق العناية يتسابقون .

واوراده وأحزابه رضى الله تعالى عنه مطبوعة ، وقد عنى العارفون بشرحها ، وأشهر الشروح المطبوعة هو « مسرة العينين بشرح حزب أبى العينين » للعارف الصوفى الجليل الشيخ حسن شمه الفوى ، وقد فرغ من تأليفه سنة ١١٦٨ هـ ، وقد اختصره الشيخ عبد الحى بن على الا أن مختصره لم يطبع لشهرة الاصـــل .

ومن شروحه المخطوطة شرح العارف محمد البهى ، وشرح الشيخ محمد بن رضوان الابيارى المسمى « انسان المقلتين بشرح حزب أبى العينين » وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب العامة ترجع الى سنة ١١٨٤ هـ ٠

هذا عدا شروح الاحزاب والاوراد التى تضمنت حزب القطب الدسوقى أو مقتطفات منه ، وهذه أيضا بعضها مطبوع وأغلبها مخطوط ٠

وللعارفين بعض زيادات على الحزب :

قال الشيخ البهى فى شرحه : ؟ **وقد روينا عن بعض أشياخنا المنتسبين الى**

طريقته المقتفين لاثاره والمتزيين بخرقته أن من أحب أن يكون مكتوبا في جريدة أصحابه وأن يعد من أتباعه ويحسب من أحبابه فليذكر بعد هذا الحزب بل بعد كل صلاة ياالله عدد ٦٦ : ثم يذكر يادائم عدد ٦٦ : ثم يقول ، يادائم لك الدوام الازلى والبقاء السرمدى حتى ترث الارض ومن عليها وأنت خير الوارثين ، سبحانك يادائم أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، سبحانك يادائم ارزقنا حلاوة محبتك ، واحشرنا فى زمرة المحبين ، ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم بأى صيغة » .

وكان القطب الدسوقى يأمر أصحابه بقول : « يادائم » فى ذكرهم عقب الصلاة ، فمر بعض المنكرين لذلك على الاستاذ وجماعته وهم يذكرون بعد صلاة الظهر « يادائم » فاستولى على المنكر سلطان الذكر ، حتى سمع كل من فى الوجود يقول يادائم ، فخر مغشيا عليه ورجع عن انكاره ٠

وهذه الحالة التى استولت على المنكر ليست بعجيبة ، فان كل من يستغرق فى ذكر يسمع كل الموجودات تذكر بهذا الذكر ، ولكن العجيب هو سريان الحال من جماعة القطب الدسوقى الى المنكر حتى تاب وعدل عن انكاره ٠

وقد زاد شيخ الاسلام العارف الكبير الامام محمد بن سالم الحفنى تلاوة اسمه عز وجل ياباريء مائة مرة بعد قراءة الحزب ، وقال شارح الحزب « ولعله باذن من صاحبه شيخ الاسلام الذى كانت علومه من فيض الوهاب » ٠ ذلك لان عادة أساتذة الصوفية قد جرت بأنهم لا يزيدون فى حزب أو يعدلون فى أوقات قراءته الا باذن معين هم يعلمون شروطه ٠

وقد ورد عن حجة الاسلام الامام الغزالى أن ذكر اسمه عز وجل « ياباريء » مائة مرة صباحا وكذا مساء ، تنجى من السوء ٠ وهذا من أهم المعانى التى اشتمل عليها حزب القطب الدسوقى ٠

والتربية بأسماء الله الحسنى أصل عام للتربية عند العارفين تسير عليه جميع الطرق الصوفية ، والغرض منه هو سقى المريد بأنوار الاسماء الالهية حتى يبلغ أقصى كمال يطيقه استعداده ، ويتخلق تبعا لذلك بالاخلاق القرآنية التى لم يشم مخلوق رائحة من الكمال ما لم يكن له نصيب منها . ولهم فى ذلك توجيهات مختلفة :

ففى بعض الطرق الشاذلية ينظر العارف الى مريده ثم يأمره بأن يجلس بين

يديه ويذكر أمامه بالاسماء الحسنى اسما اسما فأى اسم حصل منه تأثير فى المريد أمره بذكره ، ففى هذا الاسم دواء لامراض قلبه ، اذ منه تنتشر الانوار التى تبدد ظلمات النفس وترفع الحجب عن عين البصيرة حتى يصبح الانسان عبدا خالصا لله عز وجل لا يبغى سواه فى كل أموره ٠

ومن يقرأ ورده رضى الله تعالى عنه يشعر بأنه صادر عن روح كبيرة قد استنارت بمحبة الله عز وجل ، وفنيت فى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما أن الصفات الغالبة على الولى تظهر من ورده ، فان الورد الدسوقى يدلنا على أنه رضى الله تعالى عنه قد اختص بهمة خارقة ، وعزم لا يلين فى سبيل نصرة الحق ، وجرأة لا هوادة فيها على الظلمة والمجرمين ٠

قال الشيخ الابيارى (١) ان محل تلاوته عقب صلاة الصبح ، وصلاة المغرب ٠

وقال القطب البهى (٢) فى شرحه للحزب : وقد نقل عنه — أى عن صاحب الحزب — أنه قال فى شأنه : ان من قرأه ثلاثا صباحا وكذا مساء أمن من كل ما يخافه وسلم من كل سوء وحفظ من الطاعون ، بل ومن جميع الفتن حتى يأمن من سوء الخاتمة» ٠

وهذا كلام يسمعه المحجوب فيقول كم سمعنا مثل هذا وذاك فلا يحدث شىء مما وعدنا به ، ثم يتطاول على قدر سوء أدبه .

والجواب على ذلك : ان هذه المسالة ليست خاصة بورد معين ، بل ان وضعها هكذا يقصد منه تمييعها ، والهرب من الجواب الحقيقى عنها ، فلو اردنا الجواب الصحيح عنها لوضعنا اعتراض المعترض هكذا : مالنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ وبذا نكون قد انتقلنا الى أصل من الاصول التى تنعقد عليها الامور ٠

والجواب أن للدعاء شروطا منها ما هو خاص بالدعاء ومنها ما هو خاص بالداعى ، فاذا لم تتحقق فأنى يستجاب له ؟

---

(١) انسان المقلتين — مخطوط ظهر الورقة ٢ ٠
(٢) شرح الحزب المنير مخطوط ظهر الورقة ٥

فمن الدعاء ما يمكن أن يكون استهزاء من الداعي : كرجل مطعمه حرام وملبسه ومشربه حرام ، يقول يارب يارب ! وهو يعلم أنه قد اخترق حدود الله عز وجل وانتهك حرماته ولم يراع فى حقوقه الا ولا ذمة ٠

وكرجل ظالم مستهتر بحقوق الناس مضيع لحرماتهم معتد عليهم ، يقول اذا ما فقد الاسباب : أسباب النجاة التى يتقنها بمكره ولؤمه ، يقول : يارب يارب !!

وكمجرم يستبيح أموال الناس ودماءهم فاذا ما ضاقت عليه السبل قال : يارب يارب !

وهناك فريق من الناس يدعى الايمان بالله عز وجل ولا يعمل الا ما وافق هواه « وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ١٠٣ وما تسالهم عليه من أجر ، ان هو الا ذكر للعالمين ١٠٤ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ١٠٥ وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون ١٠٦ » ٠ من سورة يوسف عليه السلام ٠

ومنهم من يتخذ الشريعة والدين مطية للوصول الى الاغراض الشخصية فيرائى الناس ليقبض ثمنا قليلا ، يبيع آخرته وهداه ونوره بأبخس الاثمان !

وكمن يفسر الشريعة تفسيرا يتمشى مع مبادئه الهدامة ، ويرخص له المروق من دين الله تعالى ٠

أو كمن يذكر الله عز وجل ليظهر أمام الناس بالتقوى أو يرتاد المساجد أو يعظ غيره وهو لا يعمل بما يقول مثقال ذرة! فهؤلاء لا دين لهم ولا خلاق ، بل هم أشد خطرا على المؤمنين من أخبث الكافرين ايغالا فى الكفر : هم العدو فاحذروهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ٠

عن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال قاتلت حتى استشهدت قال : كذبت ولكن قاتلت أن يقال جرىء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى يلقى فى النـــار » .

« ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرف نعمه فعرفها · فقال : ما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأ تفيك القرآن · قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء ، فقد قيل · ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار » ·

« ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها · قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا انفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه فالقى فى النار » ·

رواه الامام أحمد ومسلم وأخرج الترمذى نحوه .

وجاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ؟ الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله » رواه الامام البخارى ·

وعن على رضى الله تعالى عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيخرج قوم فى آخر الزمان : أحداث الاسنان ، سفهاء الاحلام ، يقولون من قول خير البرية لا يجاوز ايمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » الحديث رواه الشيخان

ومن حديث آخر عن أبى سعيد الخدرى وأنس رضى الله تعالى عنهما : « قوم يحسنون القيل ويسيئون الفعل ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية لا يرجعون حتى يرتد السهم على فوقه (١) هم شر الخلق والخليقة » الحديث .

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى الا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون به ، ثم انهم تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » · رواه مسلم ·

(١) فوق السهم موضع الوتر منه ومعناه استحالة رجوعهم الى الهدى وطريق الحق

فالمعيار الاعظم الذ ىتوزن به الاعمال وتقوم الافعال هو ابتغاة وجه الله عز وجل فى كل قول أو فعل أو حركة أو سكنة أو نية هذا هو الميزان الوحيد لسلامة الاعمال الانسانية ٠

فلا يغتر الانسان بأفعاله ان كانت فى ظاهرها موافقة للشريعة ولا يطمئن حتى يفتش قلبه ويعلم أنه يصرف جميع أموره لله عز وجل لا يبغى سواه فى الدنيا وفى الاخرة ، والا فلا عمل له ، والا فهومن الاخسرين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ٠

فمهما قرأت عن مزايا ورد من الاوراد فلا يخرج الامر عن هذا الاصل من أصول الدين ، فلا تلم صاحب الورد اذا لم تحصل لك أنوار ذكر الله عز وجل ، ولم نفسك لانقطاعها عن الله عز وجل وانشغالها عنه بأتفه الامور ، ثم تدعى بعد ذلك أنك من أحباب أهل الله أو من خاصة المؤمنين أو على أهون الاحوال أنك من المؤمنين بكلامه عز وجل وأفعالك أبعد ما تكو نعن الشريعة كما بينها امام الهداة صلى الله عليه وسلم ٠

واعلم انه قد ورد فى الحديث ٠ كم من قارىء للقرآن والقرآن يلعنه ٠ ذلك لانه يقرأه ولا يحفل بالعمل به ، يستهزئون بأمر الله عز وجل ، الله يستهزىء بهم ويذرهم فى طغيانهم يعمهون ٠ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ٠

كلمة عن الحروف الواردة فى أحزابه رضى الله تعالى عنه !

قال الامام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد فى شرحه لحزب البر الكبير للامام الشاذلى (١) ان علوم الحروف والاسماء « من علوم الكشف فلا فائدة فى التصرف فيها ، والكلام عليها ببضاعة العقل ، بل لا يعرفه من جهله ، ولا يجهله من عرفه ، وكل على حسب ما فتح له ، ولذلك يتفاوت فيها أهلها ويقع الاختلاف بينهم فيما يشيرون اليه فيها « تسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الاكل » ٠

وقال بعضهم : « وكما يستدل بالاسم على الذات كذلك يستدل بكل حرف من

---

(١) شرح حزب البر الكبير ط ــ ١٣٣٣ هـ ص ١٠/١١ ٠

حروف الاسم على حقيقة من حقائق الذات ووصف من أوصافها الذاتى والفعلى ، ولا يقتصر فى دلالة الحروف على صفة واحدة من الصفات ، بل كل صفة مفتتحة بذلك الحرف دل عليها ذلك الحرف » .

والواقع أنه لا توجد علاقة حتمية بين معنىحرفمن الحروف وافتتاح صفة من الصفات أو اسم من الاسماء بذلك الحرف ·

والاولى أن يقال ان الحروف لها معان سارية فى جميع اللغات ولذا كانت الحروف أصلا لجميع اللغات ·

وقد تكلم على معانى الحروف كثير من أئمة العارفين مثل الشيخ الاكبر الامام محيى الدين بن العربى وعبد الحق بن سبعين المرسى وغيرهما ، وللاول كتاب فى أوراد الحروف تضمن كل ورد معنى حرف مفرد من الحروف الهجائية ·

وقال الحكيم الترمذى (١) فى نوادر الاصول : ان فواتح السور فيها اشارة الى ما تضمنته السورة من المعانى ولا يعلم ذلك الا حكماء الله فى أرضه ، وهم نجباء الحكماء ، وهم قوم وصلت قلوبهم الى الفردانية وتناولوا هذا العلم من مشكاتها ، وهو علم حرفالمعجموبهذهالحروف يعبرعنالعلوم كلها ، وبالحروف ظهرت أسماؤه حتى عبروا عنها بالالسنة .

وقال الورتجيبى فى تفسيره ان رموز الحروف المقطعة لا يعرفها الا الربانيون ، وقد نقل الجلال الكركى فى لسان التعريف أن القطب الدسوقى قال : « اننى أشرح فى نقطة الباء سبعة أحمال بعير فتتقطع قلوب العارفين وتهتز وتميل عند معرفة نقطة الباء » ·

وشرح الجلال الكركى (٢) معنى هذا : بأنه يشير بالنقطة الى الجوهر الفرد الذى يثبته المتكلمون ومذهبهم جوهرية النقطة لا عرضيتها : اذ أن جميع الكائنات مركب من جواهر فردة ، وهذا يستدعى الكلام على تفصيل الموجودات من حيث أجناس جواهرها وأنواع تلك الاجناس وأصنافها من حيث أعراضها ·

---

(١) هو محمد بن على بن الحسن بن بشر الملقب بالحكيم الترمذى الصوفى الشهير استشهد سنة ٢٩٥ هـ وفى اللسان للحافظ انه عاش الى حدود سنة ٣٢٠ هـ : وكتابه هو نوادر الاصول فى احاديث الرسول وهى (٢٩١) أصلا فى ثلاثة أسفار .

(٢) لسان التعريف ــ مخطوط ــ من ظهر ق ٤٠ : وجه ق ٤١ .

والكلام على ذلك يستتبع الكلام على أحكام ذلك من القول بحدوثها بالدلائل العقلية والسمعية ٠

والجواب عما نفى به الفلاسفة اثبات الجوهر الفرد وعما أثبتوا به الهيولى والصورة ، وبيان ما يترتب على اثبات الفرد المشار اليه بالنقطة من الثمرات : اذ من ثمراته النجاة من كثير من ظلمات الفلاسفة ، مثل اثبات الهيولى والصورة المؤدى اثباتها الى قدم العالم ، وقدمه يؤدى الى تكذيب ما جاءت به الشرائع من زوال لهذه الدنيا ، وتبديل الارض غير الارض والسموات ، ونفى القيامة فيبطل ما جاء فى الوعد والوعيد ، ويلزم من ذلك تكذيب الرسل وانكار الشرائع وهو أقبح الكفر ٠

ومن ثمرات ثبوت النقطة ابطال القول بامتناع الخرق والالتئام فى الافلاك ، وشرح هذه الامور بتفاصيلها ودلائلها واثبات تلك الدلائل وسائر ما يترتب على اثبات النقطة غير ما أشرنا اليه يستدعى تدوينه من الكتب ما يوازى سبعة أحمال بعير ، كما أفاده أستاذنا اذ النقطة عليها مدار الكون بأسره ٠

وهذه التصريحات لم ينفرد بها القطب الدسوقى بل صرح بها كثير من العارفين ٠

وفى شرح الحروف التى وردت فى الحزب الصغير ذكر الحافظ أحمد بن المبارك السجلماسى (١) هذه القصة ، قال :

قدم علينا بعض أصحابنا من أخيار أهل تلمسان ، فأخبرنى أنه سمع بعض من حج بيت الله الحرام يقول انه زار قبر سيدى ابراهيم الدسوقى نفعنا الله به ، فوقف عليه الشيخ سيدى ابراهيم الدسوقى نفعنا الله به وعلمه دعاء وهو هذا : « بسم الاله الخالق الاكبر وهو حرز مانع مما أخاف منه وأحذر — لاقدرة لمخلوق مع قدرة الخالق ، يلجمه بلجام قـــدرته ، أحمى حميثا أطمى طميثا وكان الله قويا عزيزا ، حم عسق حمايتنا كهيعص كفايتنا ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم »(٢) ٠

---

(١) الابريز — ط القاهرة — ١٣١٧ — هـ — ص ١١٨/١١٩ ٠
(٢) هذا هو الحزب الصغير له رضى الله تعالى عنه لقنه لصاحب القصة بنفسه ٠

فقال له سيدى ابراهيم ادع بهذا الدعاء ولا تخف من شيء فقال لى صاحبنا التلمساني وهو الحاج الابر التاجر الاطهر سيدى عبد الرحمن بن ابراهيم من أولاد ابراهيم القاطنين بتلمسان (١) : ان أخى الحاج محمد بن ابراهيم لما لم يعرف معنى هاتين الكلمتين وهما أحمى حميثا واطمى طميثا ، أمتنع من هذا الدعاء وقال : لا ادرى ما معناهما ولعل أن يكون فيهما ما اكره ، فسألنى عن معنى الكلمتين . فسألت(٢) شيخنا(٣) رضى الله عنه عن معناهما ، فقال رضى الله عنه بديهة لا يتكلم أحد اليوم على وجه الارض بهاتين الكلمتين ؛ فمن اين لك بهما ؟! .

فحكيت له الحكاية ، فقال رضى الله عنه : « نعم سيدى ابراهيم الدسوقى من أكابر الصالحين ومن أهل الفتح الكبير وهو وأمثاله الذين يتكلمون بهاتين الكلمتين » . ثم قال رضى الله تعالى عنه : هما كلمتان بلغة السريانية (٤) : أما أحمى فمعناه يامالك الاسرار يامالك الانوار يامالك الليل والنهار يامالك الحساب المدرار ، يامالك الشموس والاقمار ، يامالك العطاء والنفع ، يامالك العطاء والمنع ، يامالك الخفض والرفع ، يامالك كل حى ، يامالك كل شيء ، وفى هذا الاسم سر عجيب لا يطيق القلم ولا العبارة تبليغه أبدا .

واما قوله أطمى فهو بمنزلة من يصفه تعالى بالعظمة والكبرياء والقهر والغلبة والعز والانفراد فى ذلك كله وكأنه يقول : يا عالم كل شيء ، ياقادرا على كل

---

(١) بلدة شهيرة فى الجزائر وتقع ما بين جبال تلمسان جنوبا وجبال تاسالا شمالا وغرب سهول بلعباس الغنية ، وشرق الحدود المغربية الجزائرية .

(٢) السائل هو المؤلف الحافظ أحمد بن المبارك السلجماسى البكرى الصديقى (١٠٩٠ — ١١٥٥ هـ) .

(٣) شيخه هو الغوث الشهير السيد عبد العزيز بن مسعود الدباغ الحسنى من أشهر شيوخ التصوف (١٠٩٥ — ١١٣١ هـ) توفى شابا ولكنه أتى بالعجب بالعجاب .

(٤) السريانية هنا لا يقصد منها اللغة السريانية البائدة ولكن الصوفية يعنون بها لغة الارواح وبها يتخاطب اهل الفتح الكبير والمعانى فى هذه اللغة تؤديها الحروف الهجائية لا العبارات ، فكل حرف هجائى له معناه واذا ضم الى حرف آخر كانا كعبارة مفيدة — ويرتقى المتكلم بها الى معانى الحروف الهجائية وأسرارها — ولغة الحروف هى أصل جميع اللغات .

شيء يا مكون كل شيء ويا مدبر كل شيء ويا قاهر كل شيء ويا من لا يتطرق اليه عجز ولا يتوهم في تصرفه نقص ٠

وطميثا اشارة الى الاشياء التى يتصرف فيها ، والى الممكنات التى يفعل فيها ما يشاء ويحكم ما يريد سبحانه لا اله الا هو ، وفي هذا الاسم سر عجيب لا يطيق القلم تبليغه أبدا والله أعلم ٠

ويستفاد أيضا من القصة جواز تلاوة الاوراد المشتملة على الحروف المقطعة ، وقد قرر الامام الزرقانى أنه لا خلاف فى ذلك مادامت متواترة عن أستاذ أجمع الائمة على معرفته وعدالته ، ولا يعترض عليه معترض بجهل معناها اذ الجهل ليس بحجة فى القدح ولو كان حجة لالغينا كل علم لا يصل اليه الجاهل ٠

وآخر حزبه الكبير أسماء الدائرة الشاذلية وهى :

طهور ، بدعق ، محببه ، صوره ، محببه ، سقفاطيس ، سقاطيم ، أحون ، قاف ، أدم ، حم ، هاء ، امين ٠

وقد ضبطها العارف الشهير السيد محمد القاوقجى أبو المحاسن صاحب الطريقة القاوقجية (١) ، كما فسرها ، ونذكر باختصار :

طهور : على وزن صبور ، ومعناه الكامل فى ذاته المنور لصفاته ٠

بدعق : على وزن منظر ، ومعناه الذى كل شيء به ٠

محببه : وفى رواية أن الهاء الاخيرة ساكنة غير منونة ومعناه مبين الحكم وصاحب المن ٠

صوره : وفى رواية سوره ، أى الذى لهيبته خضع كل جبار ٠

سقفاطيس : قال لم أر من تكلم على معناه ، وهو اسم للفتح على القلب من الغيب ٠

---

(١) هو العارف الشهير محمد بن خليل بن ابراهيم القاوقجى الطرابلسى الشامى الشريف الحسنى ترك حوالى مائتى مصنف توفى بمكة المكرمة سنة ١٣٠٥ هـ — والاقتباس من كتابه تحفة الملوك فى السير والسلوك ط المطبعة القاوقجية سنة ١٣٤٩ هـ — ص ٢٦ : ٢٨ ٠

سقاطيم : وفى رواية بدلا من القاف فاء اسم من الاسماء الموصلة الى رتب الكمال ٠

أحون ، قاف ، أدم ، حم ، هاء ، امين ٠

وهذه الاسماء ان صح أنها لم تضف الى حزبه بعد وفاته فهى تقطع أنه رضى الله تعالى عنه قد تلقن الطريق الشاذلى لانها خاصة بهذا الطريق وفى دار الكتب مخطوط يشتمل على حزب القطب الدسوقى ولا يعلم جامعه عنوانه « ورد القطب الحقيقى سيدى ابراهيم الدسوقى الذى تلقاه عن خاله القطب الجامع سيدى الشيخ أبى الحسن الشاذلى » ولا يقصد هنا خاله فى النسب ولكن خاله فى الطريق ٠

ضبط الحروف والكلمات الواردة فى الحزب الكبير :

ضبط الشيخ حسن شمه الحروف الواردة فى الحزب هكذا :

(كـد كـد ـ كردد . كردد ـ ده . ده) (بهـا . بهيـا . بهيا ـ بهيات ـ لقفنجل) .

ونقل الشيخ الابيارى (١) عن السمرقندى فى كنز المطالب قاعدة لضبط الحروف المركبة الواردة فى أوراد العارفين فقال : « ان كان الاسم ثنائيا فافتح أوله واكسر ثانيه مع التنوين ٠ وان كان ثلاثيا فان كان بعد أوله حرف من حروف العلة « أ ـ و ـ ى » فأوله مفتوح وثانيه ساكن وآخره مكسور منون » الخ ٠ ونرى أن المسألة توقيفية لا تدخل تحت قاعدة معينة ٠

---

(١) انسان المقلتين ظهر الورقة ٢ .

مؤلفـاته

للقطب الدسوقى مؤلفات فى الفقه والتصوف ، ونعتقد أنها من نوع الاملاءات التى كانت تتم فى مجـالس العلم ، وهى ما نسميـه محاضرات ، لان أسلوبها أسلوب الاملاءات لا أسلوب **التأليف** .

ومن كتبه :

١ ــ كتب فى الفقه ٠

٢ ــ الحقـائق ٠

٣ ــ الرسـالة ٠

٤ ــ الجوهرة ٠

وقد أشار اليها جميعا فى « لسان التعريف » ونذكر هنا النصوص التى اشتملت على ذكر هذه الكتب لاهمية نسبتها الى القطب الدسوقى :

قال الجلال الكركى :

« وقد بدأ لاستاذنا كرامات (١) وبراهين خارقات ، وصـنف فى التصوف والفقه ، واستدل بأمور قطعية وأبدى أحوال المتقدمين والمتأخرين ووصف أماكن بعيدة جدا حتى كأنه شاهدها عن يقين » ٠

فهذه الاشارة تضمنت أن له كتبا فى الفقه والتصوف ٠

وقال فى موضع آخر :

« وكما قال أستاذنا الدسوقى(٢) قدس الله روحه فى كتابه الجليل الفائق الموسوم بالحقائق المشتمل على تصوف ورقائق ومواعظ وكرامات وحقائق » ٠

---

(١) و (٢) لسان التعريف ــ مخطوط ــ : ظهـر الورقة ٣٨ وجه الورقة ١٢ على التـوالى ٠

وقد أشـــار اليه العلامة البقاعى فى طبقاته (١) اذ قال : « ومن كلامه رضى الله عنه فى كتابه المسمى برهان الحقائق » ، وذلك عند ترجمتــه للقطب الدسوقى ٠

وأشـــار الكركى فى لسان التعريف فى عدة مواضـــع الى كتاب الرسالة فقال :

« نهى الشيخ فى رســـالته عن أمور منها : القول بالمشاهدات قال : فان كل هذه نفوس وشهوات » (٢) ٠

وقال فى موضع آخر : « كما أشار اليه أستاذنا فى رسالته (٣) حيث قال :

الطرق شتى وطريق الحق مفردة والسالكون طريق الحق أفراد

ومن مؤلفاته كتاب الجوهرة وهـــو غير كتاب الحقائق ، بدليـــل أن الجلال الكركى قد أحال عليهما معا فى قوله : « ولاستاذنا فى الشرب وغيره بحقائقه وجوهرته اشارات رائعة » ٠

وكتاب الجوهرة مشهور ، وقد أشار اليـــه كل من أفرد القطب الدسوقى بالترجمة ووصفه بأنه كتاب ضخم ٠

وقد فاتت هذه المؤلفات على دائرة المعارف الاسلامية (٤) التى لم تشر الا الى :

أ ــ مؤلف فى فقه السادة الشافعية ٠

ب ــ مخطوط مودع بمكتبة ليـــدن مشتمل على مواعظ وحـــكم ، ولعله كتاب الجوهرة المطبوع ٠

جـ ــ قصيدة مخطوطة بالمتحف البريطانى تحت رقم ٧٩٦ ٠

والقصيدة هى تائيته المطولة ٠

ولم يزد بروكلمان (٥) فيما عده من مؤلفاته على هذا ٠

---

(١) طبقات الابرار له ــ مخطوط ــ ظهر ق ١١٦ ٠

(٢) و (٣) لسان التعريف وجه ق ٣٩/ ووجه ق ٤١ على التوالى ٠

المعلمة الاسلامية ــ الدرجمة العربية مادة (ابراهم الدسوقى) ٠

(٤) و (٥) لسان التعريف ــ مخطوط ــ فى المواضع الاتية على التوالى : ظهر ق ٣٨/ وجه ق ١٢/ وجه ق ٣٩/ وجه ق ٤١ ٠

Brockelmann : Geschichte der Aräbischem Litteratur.

حقيقة كتاب الجوهرة المخطوط والمطبوع

هناك كتاب بعنوان « الجوهرة » ينسب الى القطب الدسوقى وقد تتبعنا نسخه الخطية والمطبوعة فوجدنا أن النسخ المطبوعة تعتمد على النسخ الخطية وتختلف اختلافا بسيطا تبعا لاختلاف الاصل المخطوط ، والنسخ الموجودة هى :

١ ـ نسخة خطية بدار الكتب العامة بالقاهرة ضمن مجموعة فى مجلد وترتيبها هو الثالث من بين مخطوطات المجموعة ، وذلك من الورقة ١٠٠ الى الورقة ١٧٦ ، ويرجع تاريخ نسخها الى سنة ١٢٩٠ هـ ، وتسمى أيضا كتاب فتوح الغيب ٠

٢ ـ نسخة خطية بالمكتبة الازهرية ترجع الى سنة ١١٠٩ هـ

٣ ـ نسخة مطبوعة متداولة فى المكتبات ٠

٤ ـ نسخة مطبوعة طبع حجر فى ١٩٩ صفحة وعنوانها « كتاب منير من كلام القطب الكبير من أعطى العلم الشرعى والحقيقى ، سيدى ابراهيم الدسوقى » وهو أقدم طبعة لكتاب الجوهرة المخطوط ٠

وبالبحث فى جميع النسخ مخطوطة ومطبوعة اتضح لنا :

أ ـ أنه لا تصح نسبة جميع مافيه الى القطب الدسوقى لاشتماله على كثير من العبارات التى تنحط بكثير عن رتبة القطب الدسوقى العرفانية والعلمية والادبية بحيث لا يخفى وضعها على من درس أسلوب القطب الدسوقى ، ويجوز أن الذى نسخ الكتاب قد اقتبس عبارات من كتاب الجوهرة وخلطها بكلام عالم صوفى عاش فى القرن العاشر هو ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الدسوقى ٨٣٣ ـ ٩١٩ هـ ٠ ويؤيد ذلك أن النسخ الخطية لكتاب الجوهرة الموجود بين أيدينا يرجع تاريخها الى ما بعد القرن العاشر ٠

ب ـ فى المصادر التاريخية التى وصلتنا أن كتاب الجوهرة كتاب ضخم ولا يعقل أن يقال على مخطوط عدد أوراقه ٧٦ ورقه أنه ضخم ، وخصوصا اذا كان الذى وصفه بالضخامة مؤلف من كبار المؤلفين المشهورين مثل الامام الشعرانى أو الامام المناوى ٠

لذا قررنا أن نعرض فى البـــاب التالى مختارات من أقواله رضى الله تعالى عنه انتخبناها من المصـــادر المخطوطة والمطبوعة المـــوثوق بها : فمن المصادر المخطوطة :

لسان التعريف للجلال الكركى ، والطبقات الوسطى « لواقح الانـــوار القدسية » للامام الشـــعرانى المتوفى سنة ٩٧٢ هـــ ، وفضلنا النقل منها على الطبقات الكبرى لتحصل الفائدة بالجمع بينهما ، لان الحصول على الطبقات الكبرى ميسور لانها مطبوعة ، والكواكب الدرية للمناوى وطبقات الابرار للبقاعى ، وقد أشار هؤلاء الى أنهم أطلعوا على النسخة الاصلية من كتاب الجوهرة أو غيره من مؤلفات القطب الدسوقى ٠

ومن المصادر المطبوعة : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـــ ، الجزء الخامس ط القاهرة سنة ١٣٥١ هـــ ، ومسرة العينين بشرح حزب أبى العينين للشيخ حسن شمه الفوى المتوفى سنة ١١٧٧ هـــ ٠

وتعليقات مثل حاشية الامام الصاوى المتوفى ســنة ١٢٤٢ هـــ على الخريدة للامام الدردير ، وشرحه للصلوات الدرديرية وغيرها ٠

وقد وزعنا المختارات على موضوعاتها بحيث تعطى صورة واضـــحة جلية للمنهج الصوفى للطريقة البرهامية التى تعتبر من أشهر المدارس الصوفية فى القرن السابع للهجرة ، وقد اعترف باهميتها حتى الكتاب الاجانب(١) الذين أرخوا للمدارس الصوفية فقرروا أنها من أعظم المدارس الصوفية فى العالم الاسلامى ٠

---

(١) Le Chatelier; Les Confreries Musulmanes du Hedjas paris 1887. P. 190.



الباب الخامس

مختارات من أقواله تبين منهجه الصوفى



حقيقـــــة التصـــوف

عالج بعض الباحثين موضوعات التصوف كما يعالجوا الفلسفات العقلية والنظرية التى تبحث فى طبيعة الوجود بقصد الوصول الى نظرية عامة خالية من التناقض عن حقيقة الكون او اى جزء من اجزائه ، وقد اداهم ذلك الى التكلف فى رد الافكار الصوفية ومناهج التصوف الى الفسلفات اليونانية او الهندية أو الفارسية .. الخ . ثم تكلفوا بصورة أشد حينما حاولوا بيان كيفية وصول هذه الفلسفات الى ائمة الصوفية .

وفات هؤلاء ان التصوف علم عربى صميم شأنه شأن الفقه الاسلامى ، فهو قائم على الكتاب والسنة ، بل ان الصوفية انفسهم يطردون من بينهم كل من يخلط الفلسفة بالتصوف لانها لا تمت اليه بأية صلة ·

« فالتصوف فى صميمه تجربة روحية وانه شيء مختلف تمام الاختلاف عن العلم وعن الفلسفة ، فاذا كان للصوفى فلسفة فهى تأييد لمشـاهداته الصوفية » (١) ·

فالفلسفة والتصوف طريقان لمعرفة الوجود المطلق او الوجود الحق يختلفان اختلافا تاما فى المنهج .

فالفلسفة انطلقت لتدرك اللامتناهى بأدوات لا تعرف الا المقيد المتناهى ، وطبقت مقولات هذا العالم على عالم لا يخضع لهذه المقولات ·

« ان الفلسفة ان علمتك شيئا فقد علمتك نهاية الشوط الذى تستطيع ان تجرى فيه فى ميدان العقل ، ولكنها لا تخبرك بشيء عن الميادين الاخرى التى فى استطاعتك ان تجرى فيها » (٢) ·

اما التصوف فقد انطلق لمشاهدة اسرار الوجود واكتناه الحق بالحق عن طريق التجربة الروحية التىتستضيء بانوار شموس الوحى القرآنى، فنجح فيما لم يستطع غيره أن يتقدم فيه ، وذاق ما لم يذقه سواه ، ووصل الى ميادين

---

(١) و (٢) د: أبو العلا عفيفى : التصوف والثورة الروحية فى الاسلام ص ١٥ ، ١٧ على التـــــوالى ·

لا يمكن ان يرتادها الا حفظة الوحى العاملين به المتمسكين بآثار امام الهداة صلوات الله وسلامه عليه ٠

واراد البعض ان يصل الى مفهوم التصوف عن طريق تتبع تعاريفه وظن انه ادرك بغيته، وفات هؤلاء أن التعاريف التى وضعها ائمة الصوفية لايقصد منها حد التصوف ، ولكنهم قصدوا منها تصوير جانب من جوانبه ، هو الجانب الغالب على من وضع التعريف فى هذه اللحظة والمناسب للسائل ، ولذا اختلفت اجاباتهم بحسب الحال وبحسب المقام وبحسب السائل ، والذى يلاحظ هذا المعنى يتحاشى الوقوع فى خطأ اختيار تعريف دون سواه ، وينظر الى جميع التعارف الصادرة بشأن التصوف عن أئمته ، نظرة تكشف عن جوانب من التصوف يكمل بعضها بعضا ، وقد يكون بعضها مجهولا لدى الباحث .

ونسرد هنا بعض التعاريف التى وردت عن كبار ائمة التصوف لا لتحديد معناه : فمعناه معروف مفهوم لايخفىعلى اى مبتدىء فىالعلوم، ولكنلنعلم ان الطريقة البرهامية ان هى الا امتداد لهذه التعاريف :

• معروف بن فيروز الكرخى ت ٢٠٠ هـ :

التصوف الاخذ بالحقائق واليأس مما فى ايدى الخلائق ٠

• محمد بن على القصاب ، وهو من اساتذة الامام الجنيد :

سئل عن التصوف ما هو ؟ فقال : اخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم على قوم كرام ٠

• عمرو بن عثمان المكى ت٢٩١هـ :

التصوف هوانيكون العبد فى كلوقت مشغولا بماهو اولىبه فىالوقت

• ابو الحسين بن محمد النورى ت ٢٩٥ هـ :

١ ـ التصوف ترك كل حظ للنفس .

٢ ـ ليس التصوف رسما ولا علما ولكنه خلق ، لانه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علما لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ٠

• **ابو القاسم الجنيد** : ٢٩٧ هـ :

١ ـ التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الاخلاق الطبيعية ،

واخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ما هو اولى على الابدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله على الحقيقة ، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشريعة .

وقد نسب الامام الشعرانى هذا التعريف للامام محمد بن خفيف الضبى المتوفى سنة ٣٧١ هـ ، ولعل الاخير اقتبسه من الامام الجنيد لانه اسبق منه .

٢ ـ هو الكون مع الله بلا علاقة .

٣ ـ هو ان يميتك الحق عنك ويحييك به .

٤ ـ هو ذكر مع اجتماع ووجود مع استماع وعمل مع اتباع . وهذا التعريف نسب الى ابى بكر بن هوار البطائحى ، والواقع انه اختاره من كلام الجنيد .

٥ ـ التصوف هو حفظ الاوقات .

قال صاحب التعرف فى شرح معناه : « هو الا يطالع العبد غير حده ، ولا يوافق غير ربه ، ولا يقارن غير وقته » (١) .

• على بن عبد الرحيم القناد :

هو نشر مقام واتصال بدوام (٢) .

وقد اسند الكلاباذى هذا التعريف الى النورى فقال : هو « نشر مقام واتصال بقوام » والاول اصح .

• سمنون بن حمزة الخواص ت حوالى ٢٩٧ هـ :

الا تملك شيئا ولا يملكك شىء .

• رويم بن احمد ت ٣٠٣ هـ :

هو استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده .

---

(١) الكلاباذى : التعرف ص ٩١ .
(٢) السراج : اللمع ص ٤٥ .

وشابهه فى هذا ابن عطاءت ٣٦٩ هـ ، فقال حين سئل عن معناه :

« التصوف هو الاسترسال مع الحق » ٠

• احمد بن محمد الجريرى ت ٣١١ هـ :

هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج عن كل خلق دنى ٠

• ابو على الروذبادى ت ٣٢٢ هـ :

التصوف الاناخة على باب الحق وان طردوه ٠

يعنى العكوف الدائم على باب الحق ٠

• دلف بن جحدر الشبلى ت ٣٣٤ هـ :

١ ـ التصوف ضبط حواسك ومراعاة انفاسك ٠

٢ ـ هو الجلوس مع الله بلا هم ٠

فلا يشغله شيء عن مولاه ٠

• الامام الغزالى ت ٥٠٥ هـ ،

هو تجريد القلب لله واحتقار ما سواه ، وحاصله يرجع الى عمل القلب والجوارح ٠

• بقاء بن بطوق ٦ هـ :

الفقر (يعنى التصوف) تجرد القلب عن العلائق واستقلاله بالله سبحانه وتعالى وحده ٠

• ابو سعيد على القيلوى ت ٥٥٧ هـ :

التصوف التبرى مما دون الحق كما قال ابراهيم عليه الصلاة والسلام « فانهم عدو لى الا رب العالمين » ٠

• ابو مدين شعيب التلمسانى ت ٥٩٤ هـ :

حقيقة الفقر الا تشاهد سواه ٠

• الشيخ الاكبر الامام محيى الدين بن العربى ت ٦٣٨ هـ :

التصوف خلق : فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف ٠ والخلق المراد هو الخلق القرآنى ٠

• امام الشاذلية ابو الحسن الشاذلى ت ٦٥٦ هـ :

التصوف تدريب النفس على العبودية وردها الى احكام الربوبية ٠

• السيد الشريف :

التصوف هو الوقوف مع الاداب الشرعية ظاهرا فيسرى حكمها من الظاهر في الباطن ، وباطنـــا فيسرى حكمها من الباطن فى الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال ٠

• الامام المنجورى :

قال فى شرحه لمنظومة ابن زكوان عند قول الناظم :

علم به تصفية البواطن من كدرات النفس فى المواطن

التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدورات النفس اى عيوبها وصفاتها المذمومة : كالغل والحقد والحسد والغش وطلب العلا ـ يعنى بقصد الاستعلاء على الناس ـ وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والانفة والطمع والبخل وتعظيم الاغنياء والاستهانة بالفقراء ، لان علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته ، فبعلم التصوف يتوصل الى قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بذلك الى تخلية القلب عن غير الله وتحليته بذكره سبحانه وتعالى ٠

• الشـــيخ قاســـم الخانى :

هو الوقوف مع الاداب الشرعية ظاهرا وباطنا ٠

• الامام العربى الدرقاوى ت ١٢٣٩ هـــ :

التصوف فيما نرى والله اعلم : حفظ شرائع الدين وسلب الارادة لله رب العالمين ، وحسن الخلق مع المسلمين ٠

• السيد محمد عيد الشافعى (١) :

التصوف هو الخلق والاخذ بالعزيمة فى دين الله تعالى مع الاقبال عليه بكنه الهمة ، وتجريد القصد الا منه ، وله ، بحيث لا يريد العبد من مولاه غير مولاه ٠

---

(١) العارف المعاصر صاحب المؤلفات ومؤسس الطريقة الخلوتية المحمدية : والاقتباس من كتابه : مكانة التصوف والصوفية فى الاسلام ص ١٢٣ ٠

وقد فصل ابراهيم بن المولد مائة تعريف فى بيان معنى التصوف وابن المولد من اقران ابن الجلاء وابراهيم بن داود القصار الرقى ·

· قال الامام احمد زروق :

قد حد التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ الالفين وترجع كلها لصدق التوجه الى الله تعالى ، وانما هى وجوه فيه والله تعالى اعلم « وجملة الاقوال واقعة على تفاضل واعتبار كل واحد على حسب ما قاله علما وعملا وحالا وذوقا وغير ذلك » ·

ولو اردنا حدا جامعا للتصوف لاخترنا هذا :

« هو العمل بالشريعة المحمدية والتأدب بآدابها على يد مرب اكتملت فيه شروط التربية التى نص عليها العارفون بالله عز وجل » ·

وكل تعريف مندرج تحت هذا ·

فالتصوف ليس بزى ولا بمظهر ، وانما هو تحقق بآداب الشريعة فى جميع شئون الحياة ، ولكن الجهلة ربطوا بين الزى وبين التصوف وبين حركات الجسم وبين الاوراد ، وبين الاوراد وبين حقيقة الشريعة والعمل بها · فالتبس عليهم الامر واختلط ، خصوصا وانهم فى مستوى الذى لا يمكنه ان يفرق بين اتباع الشيطان وبين اولياء الرحمن ، بل قد يفضل سوادهم الاول على الثانى : لان الاول يعنى بالمظاهر التى يكتسب بها القلوب ، ولان الثانى لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولان الاول رسم خطة خبيثة لاستغلال الناس باسم التقوى ومظاهرها ، ولان الثانى يأمرهم بما لا تهواه انفسهم ، والنفس اذا انحرفت ثقل عليها الحق واتباعه ، وطاب لها الشيطان واتباعه ·

والعاقل لا يزن الناس بملابس ولا بمظاهر ، فكم من منافق بز الصالحين فى مظهره ! وكم من منافق عليم اللسان ! وكم من مدع للاصلاح وهو يتلمس كل الحيل ليضل الناس عن سبيل الله تعالى ·

وقد حارب القطب الدسوقى هذا الخلط وذاك اللبس ، واعلن الفرق الشاسع بين التظاهر بالتصوف وبين التصوف ، بين الادعاء وبين الحقيقة ، بين الغش وبين الصدق فيقول :

« ليس التصوف لبس الصوف ، انما الصوف من بعض شعار التصوف ، فان دقيق التصوف ، ورقيق صفاته ، ورونق بهجة ترقيهلا تحصل الا بالتدريج ، فاذا وصل الصوفى الى حقيقة التصوف المعنوى ، لا يرضى بلبس ما خشن لانه وصل الى مقامات اللطافة وخرج عن مقامات الرعونة وعاد ظاهره الحسى فى باطنه الالهى ، واجتمع بعد فرقة ، وقذف فيه جذوة نار الاحتراق ، فعاد الماء يحرقه ، والثلج والبرد يقوى ضرامة » .

فالمظاهر لا علاقة لها بالتصوف « لا تنكروا على المشايخ لبس الصوف الرقيق فانهم وصلوا الى مقام اللطافة وخرجوا عن الكثافة حتى ان بعضهم لشدة لطافته لا يقدر على لبس قميص رقيق ·· بخلاف المريد فى بدايته : يلبس الخشن لتتأدب نفسه وتخضع لربها ، فكلما رق الحجاب ثقلت الثياب » ·

فالصوفى اذا لبس الرقيق او لبس الخشن انما هو فى جميع شئونه لا يقبل الا ما يعينه على سلوك الصراط المستقيم وعدم الانحراف عنه ، فالملبس قد يعاقب عليه المرء : اذا قصد منه مباهاة الناس والتعالى عليهم ، واظهارهم بمظهر الفقير الحقير بالنسبة اليه ، فهو لا يشكر الله تعالى على نعمته بل يفتتن ويفتن غيره ، وينقطع عن الله تعالى ويقطع غيره ، فهو فاتن مفتون ، ضال مضل وامثال هؤلاء :

مكسبهم حرام ، ومطعمهم حرام ، ومشربهم حرام ، ولولا الحرام ما قست قلوبهم وغلظت اكبادهم وتبلدت مشاعرهم حتى فقدوا الاحساس بما يصل على ايديهم الى غيرهم من شر واذى ، ولو وجهت اليهم ما وجهت من مواعظ لما وجدت الى قلوبهم سبيلا ، نفوسهم لا تتقن غير سبيل الغى والضلالة لملاءمتها لطباعهم المحتجبة عن انوار الحق الباهرة .

تميم بطرق اللؤم اهدى من القطا

وان هى سلكت سبل المكارم ضلت

والتصوف كله يدور على الاخلاص لله عز وجل فى جميع الاعمال طبقا لما جاءت به الشريعة المكرمة ·

يقول القطب الدسوقى من نصائحه وتوجيهاته لمريديه : ؟ يا ولدى البس

قميص الفقر النظيف الظريف : فما الامر بلبس الثياب ولا بسكنى القباب ولا بلبس الصوف : انما الفقر أن تخلص عملك بقلبك » .

ولما ان لفظ الفقر يرد كثيرا فى استعمالاته ، يحسن ان نبين معنى هذا الاصطلاح كيلا يلتبس الامر فيفهم منه معنى غير المعنى المقصود .

بين الامام الغزالى فى الاحياء معنى الفقر : فذكر انه عبارة عن عدم ما هو محتاج اليه ، فكل موجود سوى الله تعالى من هذه الحيثية فقير اليه عز وجل ، لانه محتاج اليه سبحانه فىدوام وجوده ، والغنى المطلق من كان وجوده غير مستفاد له من غيره ولا يتصور أن يكون مثل هذا الوجود الا واحدا ، فليس فى الوجود الا غنى واحد مطلق وكل من عداه فانهم محتاجون اليــه ليمد وجودهم بالدوام ، والى هذا الحصر الاشارة بقوله تعالى : « **والله الغنى وانتم الفقراء** » (١) « **يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد** » (٢) .

هذا هو معنى الفقر مطلقا .

وفى اصطلاح القوم يراد به ما يراد بالتصوف .

قال احمد بن يحيى بن الجلاء (٣) :

« الفقر الا يكون لك فاذا كان لك لا يكون لك على معنى قوله تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (٤) .

ومعناه : اذا لم يكن لنفسه فهو لله ، واذا كان لنفسه فليس لله .

وقال الامام أبو اسماعيل الهروى الحنبلى (٥) عنــد كلامه على منزلة الفقر (٦) :

« الفقر اسم للبراءة من الملكة وهو على ثلاث درجات : الدرجة الاولى : فقر

---

(١) من الآية ٣٨ سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
(٢) من الآية ١٥ سورة فاطر .
(٣) من أساتذة الصوفية فى القرن الثالث الهجرى ومن حكمه (من علت همته على الاكوان وصل الى مكونها . ومن وقف نفسه على شىء سوى الحق تعالى فاته الحق لانه أعز من أن يرضى معه شريكا) .
(٤) من الآية ــ ٩ سورة الحشر . والنص المنسوب الى ابن الجلاء مقتبس من كتاب التعرف ص ٩٥ .
(٥) هو الامام عبد الله بن محمد بن على الهروى الحنبلى ت ٤٨١ هـ .
(٦) فى كتابه : منازل السائرين .

الزهاد ، وهو قبض اليد عن الدنيا ضبطا أو طلبا ، واسكات اللسان عنها مدحا أو ذما ، والسلامة منها طلبا أو تركا ٠

وهذا هو الفقر الذى تكلموا فى شرفه ٠

« الدرجة الثانيــة : الرجــوع الى السبق بمطالعـــة الفضل ، وهو يورث الخلاص من رؤية الاعمال ، ويقطع شهود الاحوال ، ويمحص من ادناس مطالعة المقامات ٠

« الدرجة الثالثة : الاضطرار والوقوع فى يد التقطع الوجدانى أو الاحتباس فى بيداء قيد التجريد ، وهذا فقر الصوفية » .

قال ابن القيم (١) فى شرحه لهذه العبارة :

« عدل الشيخ عن لفظ « عدم الملكة » الى قوله « البراءة من الملكة » لان عدم الملكة ثابت فى نفس الامر لكل أحد سوى الله تعالى ، فالله سبحانه هو المالك حقيقة ، فعدم الملكة امر ثابت لكل ما سواه لذاته ، والكلام فى الفقر الذى يمدح به صاحبههو فقرالاختيار وهوأخص من مطلق الفقر، وهو براءة العبد من دعوى الملك بحيث لا ينازع مالكه الحق »(٢) .

والواقع أن تعبير عدم الملكة لا يثبت الفقر بمعنى عدم منازعة الحق ، اذ قد يكون الانسان معدما ولكنه متشبث بالاشياء أكثر من تشبث الغنى بها ، و « البراءة من الملكة » أعم وأصح لانه تعبير يشمل الغنى والفقير ، فالغنى اذا ما تبرأ عن ملكية الاشياء دون الحق عز وجل ، فهو فقير الى الله تعالى باطنا ، وهو فىتصرفه فى الاشياء انما يتصرف طبقا لما أمره الحق عز وجلبه ونهاه عنه ٠

أما الفقر الثابت لانعدام الملكة فقد يتحول الى بطر واستعلاء وجبروت اذا ما وجد صاحبه ما يعينه على تحقيق أهوائه ٠

لما كانت النفس اصالة ملكا لله عز وجل ، فمن لم يخرج عنها ويسلمها

---

(١) الامام شمس الدين محمد بن أبى بكر الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١ — ٧٥١ هـ) .
(٢) مدارج السالكين لابن القيم وهو شرحه لكتاب منازل السائرين — راجع جـ : ٢ — ص ٤٣٨ وما بعدها — ط القاهرة ١٩٥٦ .

لمالكها الحق سبحانه لم يثبت له فى الفقر قدم ، فلذلك كان أول قدم فى الفقر هو الخروج عن النفس وتسليمها لمالكها ومولاها ، فلا تخرجوا عن طلب مرضاتهفى شيء ولا تطلب سخطه فى شيء ٠

فمراد القوم بالفقر : هو تحقيق العبودية والافتقار الى الله تعالى فى كل حالة ، ودوام (١) الاضطرار اليه وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية ٠

ولذا أجاب رويم حينما سئل عن الفقر فقال ، هو ارسال النفس فى أحكام الله .

قال العارف بقاء بن بطوق ٦ هـ :

« الفقر تجرد القلب عن العلائق واستقلاله بالله سبحانه وتعالى وحده ٠ والتخلى عن الاملاك أحد أوصاف الفقر ، لانها شواغل وقواطع لكل عبد سكن بقلبه اليها ، وعلامة صحة التجرد عن الاملاك الا يتغير عليه الحال بوجود الاسباب وعدمها لا فى القوة ولا فى الضعف ولا فى السكون ولا فى الانزعاج ، ولا تؤثر فيه المهالك . فاذا كان كذلك فهو فقير ، لا يأسره رقالاسباب ، ولا يهزه وجودها ، ولا يستفزه عدمها : فان ملك فكان لم يملك ، وان لم يملك فكأن قد ملك ، فلا يرى لنفسهفى الدنيا والاخرة مقاما ولا قدرا ، وكما لايرى ذلك لا يطلبه ، وكما لا يطلب لا يتمنى ، فهو مشتغل به واقف بلا طمع » ٠

واختار امام فتح الله البنانى أقوالا فى تعريف الفقر عند القوم منها .

« الفقر فى اصطلاح الصوفية رضى الله تعالى عنهم ، هو التجرد بالقلب عن الميل الى الدنيا ، وان لابسها ظاهرا وهو من أكبر أسباب الوصول الى الحق تعالى لبعد صاحبه عن الشواغل والقواطع ٠ ويقال هو التجرد عن النظر الى الاعمال والاحوال والمقامات والخروج عن ذكرها وفكرها اشتغالا بالله سبحانه لكمال الافتقار اليه ودوام الاقبال عليه » (٢) .

فلفظ الفقير مرادف للصوفى .

---

(١) ومن تحقق بهذا الاضطرار كان مجاب الدعوة .
« أمن يجيب المضطر اذا دعاه » .
(٢) الامام فتح الله البنانى : عقد الدر واللآل ـ ص ٥ ط ـ ١٣٢٠ هـ .

قال أبو نصر السراج : « وأهل الشام يسمون الصوفية فقراء » (١) .

وقال الكلاباذى : « ومن تخليهم — أى الصوفية — عن الاملاك سموا فقراء » (٢) .

والاتم أن يقول من تبريهم لان هذا لا يمنع أن يكون للصوفى ملكية لكن قلبه غير متعلق بها أما لفظ التخلى فيوهم أن التجرد عن الملكية شرط عندهم .

وأجوبتهم عن معنى الفقير الصادق تدل على أنه مرادف للصوفى وهاك بعضها ،

● ذو النون المصرى ت ٢٤٥ هـ :

هو الذى لا يسكن الى شىء واليه يسكن كل شىء .

● أبو حفص النيسابورى ت ٢٧٠ هـ :

الذى يكون مع كل وقت بحكمه ، فاذا ورد عليه وارد يخرجه عن حكم وقته يستوحش منه .

● أبو الحسين النورى ت ٢٩٥ هـ ،

هو الذى لا يتهم الله تعالى فى الاسباب ويسكن اليه فى كل حال .

● سمنون الخواص ت ٣٠٠ هـ :

هو الذى يأنس بالمفقود كما يأنس الجاهل بالموجود ، ويستوحش بالموجود كما يستوحش الجاهل بالمفقود .

● الحلاج ت ٣٠٩ هـ :

هو الذى لا يختار بصحبة الرضا ما يرد عليه من الاسباب .

● يوسف بن الحسين الرازى ت ٣٣٤ هـ :

هو من آثر وقته ، فان كان فيه تطلع الى وقت ثان لم يستحق اسم الفقر .

قال أبو سعيد القيلوى ت ٥٥٧ هـ :

ومن شرط الفقير الا يملك شيئا ولا يملكه شىء وأن يصفو قلبه من كل دنس ويسلم صدره لكل أحد وتسمح نفسه بالبذل والايثار .

---

(١) اللمع ص ٤٦ .
(٢) التعرف ص — ٢٢ .

ويعنى بقوله : لا يملك شيئا ، عدم التمسك بشىء تمســكا يخرجه عن آداب الفقراء ٠

ويقول معاصره بقاء بن ق :

ولا يكون العبد صادقا فى فقره حتى يخرج عن فقره بانتفاء شهود الفقر ٠

ويقول الامام أبو مدين شعيب التلمسانى ت ٥٩٤ هـ :

من كان الاخذ أحب اليه من الاعطاء فمايشم للفقر رائحة، ويقول كل فقير لايعرف زيادته ونقصـــــه فى كل نفس فليس بفقير ، ويقول : نســـيان الحق طرفه عين خيانة .

قال أبو حفص النيسابورى :

أحسن ما يتوسل به العبد الى الله دوام الافتقار اليه فى جميع الاحوال وملازمة السنة فى جميع الافعال ، وطلب القوت من وجه الحلال ٠

وقال سراج الحرم : محمد بن على الكتانى ت ٣٢٢ هـ :
اذا صح الافتقار الى الله صح الغنى بالله ٠

فالفقر بهذا المعنى هو عين الغنى بالله عـز وجل ، قال ابن القيم : « وهذا الفقر لا تنافيه الاملاك والكثرة والسعة اذ مداره على شهود الانسان افتقاره الذاتى لله عز وجل » واستشهد بهذا البيت لابن تيمية :

والفقر لى وصف ذات لازم أبدا كما الغنى أبدا وصف له ذاتى

ومن هنا لاتصح المفاضلة بين فقير صابر وغنى شاكر، اذ التفاضل محله الايمان والتقوى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ٠

قال أبو عبد الله المغربى ت ٢٧٩ هـ :

الفقير الصادق هو الذى يملك كل شىء ولا يملكه شىء ، فمهما ملك من الاحوال والمقامات والاعراض لا يسكن اليها ولا يتعلق بها، أما الذى تملكه الاشياء فيصبح عبدا لها فليس بفقير ولو كان معدما ٠

فالحرية من العبودية للاشياء شرط فى صحة الفقر ، ولو تحقق الناس بهذا المقام لما سفكت الدماء ودمرت البلاد وقطعت الارحام وعامل الناس بعضهم

بعضا معاملة الوحوش الضارية فى سبيل اكتناز قدر أكبر من الذهب والفضة ، ولحل محل ذلك : الحب والوئام والتعاون الصادق بين الشعوب ٠

ولما أن التصوف لا تقطع منازله الا بالقلوب فقد كثر فيه الدخلاء والادعياء واختلط الحابل بالنابل ، واستغله الادنياء كعادتهم لكسب الدنيا ٠

وقد ظهرت هذه الحالة مع تدهور الاخلاق والابتعاد التدريجى عن تعاليم الشريعة ، ولذا نجد أن القطب الدسوقى يحذر الناس من أمثال هؤلاء ويدق ناقوس الخطر فى القرن السابع الهجرى ويحذر مريديه من الاقتداء بهم ، فيقول ،

« ليس كل من تزيا بزى القوم يكون منهم فى الباطن فاياكم أن تقنعوا بالظواهر دون البواطن ، فان القوم انما ترقوا بالاعمال الجوانية وما رأينا أحدا لبس له جبة وأرخى له عذبة وجلس على سجادة فبلغ بذلك مبلغ الرجال ! بل يقف عن السير أو يرجع من حيث جاء ؟ (١) ٠

والاعمال الجوانية هى أعمال الباطن أو بعبارة أوضح الاعمال الصادرة عن القوة النفسية التى لا يدركها الحس ، فالطبع يغلب التطبع ، وكل مدع مآله الانكشاف عند الامتحان ، والاستاذية ليست بشهادة ولا باجازة ، ولكن الاستاذية فى الطريق عمل واخلاص لله سبحانه وتعالى ، فالاسلام عند الصوفية عمل دائم متجه فى كل لحظة نحو الكمال المطلق ، والمؤمن الحق يسير بقوة الايمان بالله تعالى ، ويستضىء بهدى الحبيب الاعظم صلوات الله وسلامه عليه ويستمد علومه من الفيض المتدفق من كلام الله عز وجل ، وهو حرب لا هوادة فيها على النقص المطلق المتمثل فى الاحتجاب بالاكوان عن المكون ٠

أما هؤلاء الذين يحولون الاسلام الى مفاهيم نظرية يأخذون منها ما وافق هواهم ، وهؤلاء الذين يدعون الاسلام ولا يعملون بحرف منه ، هؤلاء هم أشد على الاسلام من كل عدو ، لانهم ينتمون الى هذا الدين العظيم وكل أفعالهم تناقض تعاليمه ، يدعون أنهم يتمسكون بالشريعة ، ويبارزون الله تعالى عند كل

---

(١) الطبقات الوسطى ١١٠/ب ٠

أمر أو نهى : « **قالت الاعراب آمنا : قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا اسلمنا: ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ، وأن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم ــ ١٤ ــ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ــ ١٥ ــ قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الارض ، والله بكل شىء عليم ــ ١٦ ــ يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين ــ ١٧ ــ** » سورة الحجرات ٠

فكم من مدع للاسلام لو بحثنا فيه عن شعبة من شعب الايمان لما وجدنا فيه شعبة منها : والايمان بضع وسبعون شعبة، وكم من مدع للاسلام وهو يسىء الى الاسلام اساءة يترفع عنها أعداء الاسلام ٠

فالشريعة هداية كلها ، نور كلها ، رحمة كلها ، والعيب فيمن يدعى الاسلام والاسلام منه براء ٠

ويدعو القطب الدسوقى الى اقامة شعائر الاسلام والتحقق بآدابه فيقول ، ؟ اذا حقق الرجل اسلامه وأتقن ايمانه فقد فاز باليقين لان المقر بالشهادتين بلا اتيان فروض الدين فهو مسكين ٠ فاذا أتى بالاسلام والشريعة المطهرة بالايمان وأداء الفرائض المفروضات من الصلاة والصوم والزكاة والحج والحلال وضبط الدين فى الاعمال والافعال والاقوال ، كان هو المسلم المؤمن ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** » . فان الله تعالى قد حرم الهمز واللمز والغمز ، والتنابز والغيبة والنميمة والكفر والفسوق والعصيان » (١) ٠

ويقول فى حقيقة الصلاة : ليس كل من ركع وسجد فقد صلى ، والمصلى هو الذى يأتى الصلاة على « هيئتها وفروضها وتسبيحها وركوعها وسجودها وتشهدها وتكبيرها وتحليلها وتحريمها ووقارها وآدابها وخشوعها وخضوعها وحضورها ، فان من حافظ على ذلك وجمع وصلى حتى يعلم صلاته كيف تقع ، وتعقل ذلك ووعى وطهر الاعضاء جميعها من الحرام وغيره لا سيما القلب والامعاء ، ومن نكاح الحرام ، ولبس الحرام ، وأكل الحرام وشرب

---

(١) و (٢) من الجوهرة ص ٧٦/٧٧ و ٧٨ على التوالى ٠

الحرام ونظر الحرام وسماع الحرام والجلوس الحرام وشرب الحرام والسعى الحرام والكلام الحرام ومن كل ما حرمه الشرع ثم صلى وأعطى فى صلاته كل عضو حقه وتلذذ بخدمة الله تعالى ، يحصل له من ذلك زيادة عظيمة وبركة جزيلة جسيمة ٠

فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **ان أحدكم ليصلى الصلاة وانها لا تزن عند الله جناح بعوضة : وان أحدكم ليصلى الصلاة وانها تكتب له كجبل أحد** » ٠

ويؤكد فى وصاياه التمسك بالشريعة، ويأمر بأقامة موازينها عندكل أمر، فما وافقها فهو خير وما خالفها فهو شر ٠

حتى العلوم : فكل علم يقرب الى الله تعالى فهو خير ، وكل علم يحجب عن الله تعالى فهو شر « فالعلم المشروع هو كل خير مودوع تكون منه نتائج الحقائق ودقائق الرقائق وتنوير المسالك والطرائق » (١) ٠

فالشريعة أصل كل علم يقرب العالمين الى الله عز وجل ، وكل حقيقة خالدة دائمة انما يرجع أصلها الى الشريعة « فاسلك المناهج السديدة والشريعة القويمة السديدة البهية الساطعة اللامعة التى من عمل بها كان عمله مضمونا ، فان من سلكها واتبع أمرها نجا ، فان الله أمركم أن تطيعوا ولا تعصوا ، وأن تستقيموا ولا تلهوا ، قال الله تعالى « **وماآتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب** » (٢) ٠

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **يقول الله تعالى ، لا يتقرب المتقربون الى بأحب من اداء الفرائض : ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ، اذا دعانى أجبته واذا سألنى أعطيته ، وفي خبر آخر فبى يسمع وبى ينطق** » (٣) ٠

(١) من الجوهرة — ص : ٧٧ ٠

(٢) من الآية — ٧ — سورة الحشر ٠

(٣) للحديث القدسى عدة طرق نذكر منها ما خرجه البخارى باسناده (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تبارك وتعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الى عبدى بشىء احب الى مما افترضت عليه ٠ وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ٠ فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وان سألنى لاعطينه ولئن استعاذنى لاعيذنه) الحديث ورواه الامام احمد والحكيم الترمذى ابو يعلى والطبرانى وأبو نعيم وابن عساكر بألفاظ أخر ٠

الشريعـــة والحقيقـــة

وظن الهواة من الباحثين والمستشرقين أن الصوفية يفرقون بين الشريعة والحقيقة ، وايدوا ظنهم بما وصلهم من التعاريف التى وردت بشأن معنى التصوف، وقال قولتهم كل من أراد ان يلج التصوف من الباب الخلفى، وكل متسلل الى صفوف الصوفية ليستر ما شاء أن يروجه من زور وهذيان وبهتان وتضليل بدعوى أن هنالك علماء للحقيقة وعلماء للشريعة ، وهم يريدون أن يتوصلوا من هذه البداية الى اباحة ما شاءوا من آفكار وآراء سواء وافقت الشريعة أم خالفتها والمهم أنها تتفق وتنطبق على أغراضهم وأهوائهم ٠

والواقع أن جميع أئمة الصوفية وكل من عرف التصوف الحق ، يؤكدون أن مبنى الطريق كله ومداه على العمل بالشريعة ، وها هى بعض أقوالهم :

● **أبو سليمان الداراني ت ٢١٥ هـ :**

ربما تقع فى قلبى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها الا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة ٠

● **أبو الحسين أحمد بن أبى الحوارى ت ٢٣٠هـ ،**

من عمل عملا بلا اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فباطل عمله ٠

● **ذو النون المصرى ت ٢٤٥ هـ :**

من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم فى اخلاقه وأفعاله واوامره وسنته ٠

● **أبو يزيد البسطامى ت ٢٦١ هـ :**

لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغترو ا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الامر والنهى وحفظ الحدود وآداب الشريعة ٠

● **سهل بن عبد الله التسترى ت ٢٨٣ هـ :**

أصولنا سبعة اشياء التمسك بكتاب الله والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل الحلال وكف الاذى واجتناب المعاصى والتوبة وأداء الحقوق ، قلت : ومرجعها جميعا الاعتصام بالكتاب والسنة ٠

● **أبو حمزة محمد بن ابراهيم البغدادى ت ٢٨٩ هـ :**

وكان الامام أحمد بن حنبل اذا جرى فى مجلسه من كلام القوم يقول له ما تقول فى هذا ياصوفى ؟

من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق الى الله تعالى الا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحواله وأقوله وأفعاله ٠

● **أبو الحسين النورى ت ٢٩٥ هـ ،**

من رأيته يدعى مع الله حالة تخرج عند حد العلم الشرعى فلاتقربن منه ٠

● **أبو القاسم الجنيد ت ٢٩٧ هـ :**

الطرق كلها مسدودة على الخلق الا على من اقتفى اثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

● **أبو عثمان النيسابورى ت ٢٩٨ هـ :**

من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكم ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة قال الله تعالى : « وان تطيعوه تهتدوا » ٠

● **أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الادمى ت حوالى هـ :**

لا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب فى أوامره وأفعاله واخلاقه ٠

● **أحمد الرفاعى ت ٥٧٨ هـ :**

لو بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقص الاعناق لقصصناها ٠

فالشريعة عند الصوفية أساس كل عمل ظاهر أو باطن ٠

والاعمال الظاهرةكأعمال الجوارح الظاهرة وهىالعبادات والاحكام مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك : فهذه العبادات ٠

« وأما الاحكام : فالحدود والطلاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها فهذا كله على الجوارح الظاهرة التى هى الاعضاء ٠

« وأما الاعمال الباطنة فكأعمال القلوب ، وهى المقامات والاحوال مثل التصديق والايمـان واليقين والصـدق والاخلاص والمعـرفة والتوكل والمحبة والرضا والذكر والشكر والانابة والخشية والتقوى والمراقبة والتفكر والاعتبار والخـوف والرجاء والصـبر والقنـاعة والتسليم والتفويض والقرب والشوق والوجد والوجل والحزن والنـدم والحياء والخجل والتعظيم والاجـلال والهيبة .

ولكل عمل من هذه الاعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه ، وبيان وفهم ، وحقيقة ووجد ، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهـر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم علمه من علمه وجهله من جهله .

« فاذا قلنا علم الباطن : أردنا بذلك علم أعمال البـاطن التى هى الجارحة الباطنة ، وهى القلب ، كما أنا اذا قلنا علم الظاهر أشرنا الى علم الاعمال الظـاهرة التى هى على الجوارح الظـاهرة وهى الاعضاء » (١) .

والتبس الامر على البعض فظن أن علم الباطن : هو التصـوف ! والواقع أن الشريعة هى أساس لكل حقيقـة وفى ذلك يقـول القطب الدسوقى :

« الشريعة جامعة لكل علم خفى مما ذكره أرباب اللسان وتداوله ذوو العرفان من اختلاف الابواب والمقامات والمعانى والاشارات وهذان القولان يغنيان عن كثرة ما ذكـروه من معارفهم لان جميـع العـلوم فى مضمونهما مطوية » (٢) ، أى مندرجة .

ويقول : « فكل ما نتج من الحقائق يكون من أصول الشريعة لانه من تمسك بالشريعة حتى عمد للحقيقة فيكون آخذا من الكتاب والسنة ما تقوم به حقيقته » (٣) .

« والشريعة هى الحقيقة ، فعالم بالله وعالم بأمر الله .. وعلماء مع الله وهم أهل المعرفة والخوف والرجاء والسهر والبكاء ، لان من عقل عـلم ، ومن

---

(١) اللمع ص ٤٣/٤٤ .

(٢) ، (٣) — الجوهرة : ص ٨٢/٨٣ — ٨١ — ٨٩ على التوالى .

علم حلم ، ومن حلم حكم ، ومن حكم أبصر ، ومن أبصر بنور قلبه غلبت حكمته على جهله فرقى الى العالم العلوى » .

فالطريق الى الله تعالى تحكمه الشريعة فى الظاهر والباطن ، يقول العارف السيد على الهيتى (٤٤٤ ـ ٥٦٤ هـ) : الشريعة ما ورد به التكليف والحقيقة ما حصل به التعريف ، فالشريعة مؤيدة بالحقيقة ، والحقيقة مقيدة بالشريعة . وكل شريعة بلا حقيقة فهى عاطلة . وكل حقيقة لا شريعة لها فهى باطلة (١) .

يقول القطب الدسوقى :

« الشريعة أصل والحقيقة فرع ، فالشريعة ما ظهر من الشرع ، **والحقيقة ما** خفى منها ، وجميع المقامات مندرجة فيهما ، ولكل منهما **أهل والكامل من** جمع بينهما » (٢) .

اى جمع بين طهارة الظاهر وصفاء الباطن فيكون عمله مطابقا لسريرته .

ويقول :

« الطريقة كلها ترجع الى كلمتين تعرف ربك وتعبده » « فمن فعل ذلك فقد أدرك الشريعة والحقيقة وليس فى هذا تعطيل للعلماء ، بل العلم ابن للعمل ، وانما قلنا ذلك من اجل قول الله تعالى « **فاقرءوا ما تيسر منه !** » (٣) .

« ولكل فرقة منهاج ، والا فقد يجمع الله العلم والعمل فى رجل واحد يفيد الناس كل الفوائد ، فالشريعة هى الشجرة والحقيقة هى الثمرة » (٤) .

وكان يقول لمن يطلب منه سلوك الطريق :

يافلان « اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ، وعلى ان تتبع جميع الاوامر المشروعة والاخبار

---

(١) راجع جامع الاصول للشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخانوى ط ـ ١٣٢٨ هـ ـ صفحات ٧١ : ٧٣ و ٣١٦ فقد فصل موضوع الشريعة والحقيقة .
(٢) الطبقات الوسطى ـ مخطوط ـ ١٠٣/ب .
(٣) من الآية ٢٠ من سورة الزمل .
(٤) الكواكب الدرية ـ مخطوط ـ ٢٢٩/ب .

المرضية ، والاحتفال بطاعة الله عز وجل ، قولا وفعلا واعتقادا ، والا تنظر ياولدى الى زخارف الدنيا ، ومطاياها وقماشها ورياشها وحظوظها واتبع نبيك فى أخلاقه ، فان لم تستطع فاتبع خلق شيخك ، فان نزلت عن ذلك هلكت » .

واعلم ياولدى أن طريقنا هذه طريقة تحقيق وتصديق وجهد وعمل وتنزه وغض بصر وطهارة يد وفرج ولسان ، فمن خالف شيئا من أفعالها رفضته الطريق طوعا أو كرها » (١) .

فالتصوف الخالص روحه اقامة الشريعة فى كل شأن من شئون الحياة فى الظاهر والباطن .

فالعمل بالشريعة هو أصل سعادة الانسان ومن ادعى حب الله عز وجل وحاد عن طريق الشريعة فقد ضل وغوى وتاه فى مجاهل الهوى ، وكان اماما لمن تبعه فى جهنم . ولا يمكن لفيلسوف أومفكر ان يدعى انه قداحاطبأسباب سعادة البشر ووسائلها وطرقها حتى يجعل ذلك ذريعة لان يطلب منهمأو يرغبهم على اتباعه كى يسعدوا . بل أن النظريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية قد أثبتت أن قيام الاستبداد المطلق ومذاهب تأليه الفرد وعبادته انما تنشأ عن التمسك بنظرية او مذهب وضعيين ، ولاعتقاد أن السعادة كل السعادة مرتبطة بالتقيد بتعاليم تلك النظرية أو هذا المذهب ، ولا تلبث هذه العقيدة أن تنقلب الى دين حل محل الشريعة وتولد عن هذه الزحزحة الباطلة عمليات الاضطهاد والعدوان فى سبيل قسرة لابد منها لاجبار الناس على ترك عقائدهم واعتناق العقيدة الجديدة بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة ويدخل البشر فى دور من أدوارهم الحالكة القاتمة المبنية على سفك الدماء واباحة الحرمات واهدار الواجبات والتدمير والتخريب ، ولا ينتهى الامر الا بانتصار العقيدة المفروضة الجديدة واستبعاد الناس لاربابها أو محوها وازالتها من الوجود .

وفات هؤلاء جميعا أن الذى يقرر السعادة النهائية للبشر فى دنياهم واخراهم هو خالقهم ، اذ من ذا الذى تصدى لاسعاد البشر وهو عاجز عن

---

(١) الطبقات الوسطى — مخطوط — ١٠٨/ب .

الاحاطة بأسرار الوجود والحياة وحقائق الموجودات وأسرارها وبداياتها ونهاياتها ومصيرها العاجل والآجل ؟ ان الذى يدعى الاحاطة بذلك انما يدعى مراتب الالوهية ومن ادعاها من دون الله عز وجل فقد هوى فى مهاوى الذلة والشقاء !

أما هؤلاء الذين يخططون السعادة البشرية الدائمة على الاوراق ويبنون مذاهبهم حسبما تمليه عليهم نفوسهم المعوجة وعقولهم القاصرة، انما مثلهم كمثل من يرسم آماله على صفحات الماء ، أو يشيد القصور الوهمية فى الهواء ليوزعها على البشر ثم يجبرهم على قبولها بالقوة ، ويجردهم مما عندهم ليكون هذا القبول صحيحا !

ان اقدام أى فرد على دعوى اسعاد البشر بعندياته لهى دعوى ان دلت فانما تدل على اغراق فى الجهالة التى ليس وراءها مرمى لجاهل بحقائق الوجود وأسراره وكمالات الله عز وجل وحكمته ويكفيه جهلا انه يحاول أن يعدل فى حكمة الله تعالى وشرائعه فيأتى بشريعة من عنده تبطل شريعة الله تعالى

ان الذى اثبته العلم والعمل أن البشر لا يمكنهم أن يسعدوا الا عن طريق واحد : هو الاهتداء بهدى امام المهتدين وسيد العلماء صلوات الله وسلامه عليه فهو الذى أنزل عليه النور الالهى ـ القرآن العظيم هدى ورحمة للعالمين : منه تتفجر ينابيع العلوم والحقائق التى يسعد بها البشر فى الدارين فمن لم يهده القر آن العظيم فلا اهتدى ، وكل من دعا الى السعادة والنجاة وهو لا يدرى قواعد الشريعة ويجهل أحوال من أرسله الله تعالى رحمة شاملة للعالمين فمثل هذا انما يدعو الى الشقاء وليس من الشريعة فى شىء والمؤمنـــون منه براء .

فطريقته رضى الله تعالى عنه مدارها العمل بالكتاب والسنة ومجاهدة النفس وتطويعها حتى يكون هواها تابعا لهديه صلى الله عليه وسلم .

قال الامام محمد بن على (١) السنوسى الخطابى الحسنى الادريسى : (وأما طريق السادة البرهانية فهو المنسوب الى الشيخ برهان الدين ابراهيم بن أبى

---

(١) الصوفى الشهير مؤسس الطريقة السنوسية (١٢٠٢ ــ ١٢٧٦ هـ) : السلسبيل المعين فى الطرائق الاربعين ــ مخطوط ــ وجه ق ٣٥ .

المجد القرشى الدسوقى رضى الله تعالى عنه : رهو مبنى على الذكر الجهرى ، ولزوم الجد فى الطاعات وارتكاب خطر أهوال المجاهدات وذبح النفس بسكين المخالفات وحبسها فى سجن الرياضة حتى يفتح الله عليها بالسراح فى رياض المعرفة ، ومن شأن أهل هذه الطريقة السنية الاستهتار بذكر (دايم) بياء النداء سيما فى ختم مجالس التلاوة ، والذكر الجهرى بالجلالة مع الهوية ، ومن شأنهم لبس الزى وهو الاخضر) ٠

« مرتبة كمال كل انسان موقوفة على مدى فهمه لكتاب الله عز وجل »

كتاب الله عز وجل : القرآن العظيمهو النور الالهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد : أحاط بأسرار الموجودات ، وحقائق الكائنات ، هو الصراط المستقيم لكل طالب للحق عز وجل ، والنور المبين لكل قلب متفتح لحب الله عز وجل ، هو حبل الله المتين وعروته الوثقى التى لا انفصام لها من تعلق به نجا فى جميع شئونه وأحواله وأقواله وافعاله من مزالق العمى وظلمات الضلال ورعونة النفس وكيدها ، واغراء شياطين الجن والانس ، وزخرف الباطل وتمويه المبطلين والدجالين ٠

ولكن أين للقلوب المغلقة أن تتفتح لباهر أنواره ! ومتى قلبت الشمس دنيا الاعمى نورا وضياء وهل يستجيب لك الموتى لو دعوتهم للحياة ! وفى عظمة أسرار القرآن يقول القطب الدسوقى :

(لو انفتحت أقفال القلوب لاطلعتم على ما فى القرآن من العجائب والعلوم ولاغناكم عن النظر فيما سواه ، فان فيه كل ما سطر فى كتب العلماء « **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** ») ٠

نفس طاهرة وروح عالية ، وهمة قاطعة ، لم تحجبها زخارف الحياة ولا بهارجها ولم تنحبس وراء قواقع الوهم فتحول بينها وبين الوجود الحق ٠ نفس ذاقت حلاوة كتابالله فأخبرتنا بماذاقته ، رجل لم يعرف سوى خالقه فاستغنى بالقرآن عن كتبالبشر ثمأهاب بالناس ان يفعلوا مثله ليتمكنوا من السعادة العظمى اذا ما استرشدوا فى الحياة واهتدوا بنور خالقهم ٠ وكلام الله عز وجل تعجز عن حصر معانيه العبارات ولا تتسع لبيانه طروس (**ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ٠ ان الله عزيز حكيم** ٠ « ٢٧ » سورة لقمان ٠

وان (جميع المعبرين والمفسرين والمتكلمين فى القرآن العظيم لم يصلوا الى معشار عشر معرفة كنه ادراك معنى حرف واحد من حروفه ، ولا يصل الرجل مقام الكمال حتى يصير قادرا على تخريج جميع أحكام الشريعة المطهرة من أى حرف شاء من حروف الهجاء) (١) ٠

---

(١) الطبقات الوسطى وجه ق ١٠٤ ٠

ومن فهمه الله تعالى فى كتابه أعطاه تأويل كل حـــرف منه وما هو وما معناه ؟ وما سبب كل حرف ؟ وما صفة كل حرف ؟ وعلم المكتوب من الحروف فى العلو والسفل ، والعرش والكرسى والسماء والماء والفلك والهواء والارض والثرى) ٠

فالكمال البشرى موقوف على مقدار فهم العبد فى كتاب الله عز وجل ٠ والا فكيف يطلب الكمال جاهل بمعانى الكمالات ؟ أوكيف يصل الى الكمال من سار فى درب النقص وأخذ بأسبابه ؟ والقطب الدسوقى فى بيانه لعلامات من وصل الى مرتبة الفهم فى كتاب الله عز وجل ، انما هو يتحدث عن مرتبته ومرتبة كبار العارفين أمثاله ٠ والا فأين الثرى من الثريا : وأين مكانة المحجوب عن آيات الله عز وجل من المشاهد لها ! وأين المنقطع عن الله سبحانه وتعالى من المتصل بحبل الله المتين ! (**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**) وما حجب الانسان عن فهم معانى آى الذكر الحكيم سوى نفسه التى تلذذت بالاعراض عن الله تعالى وأصبح همها معلق بحظوظها أشد من تعلقها بالله تعالى ، فحال ذلك بين الانسان وبين استخراج كنوز القرآن العظيم ٠ والا فكيف يشهد نور كلام الله تعالى من كان أعمى القلب مطموس البصيرة ؟ وكيف تشرق شموس التجليات على أنفس تتلذذ بالدنايا ؟ أنفس مشغولة بكل خسيس ، ولا تتباهى الا بكل ما يحجب عن الحق عز وجل ؟ وفى ذلك يقول

(أتروم أن تتذوق أسرار معانى كلام الله عز وجل وأنت تبارزه بالمعاصى ! أم تروم أن تتذوق أسرار معانى كلام الله عز وجل وأنت فى الشهوات غارق ! أم تروم ذلك وقد تذكرت كل شىء سواه فلا تتلذذ الا بما يحجبك عنه ! حاشا لله فان كلام الله أعز وأجل من أن يدركه المنصرفون عنه) ٠

ثم يوضح السبيل الى فهم معانى كلام الله عز وجل فيقول :

(ان أردت ياولدى أن تفهم أسرار القرآن العظيم فاقتل نفس دعواك ، واذبح شبح قولك ، واطرح نفسيتك تحت قدم أقدامك ، وعفر خديك على الثرى واشهد أن نفسك قبضة من تراب ٠ واعترف بكثرة ذنوبك ، وخف أن ترد عليك عبادتك وقل : ياترى مثلى يقبل منه عمل ! فاذا كنت على هذا الوصف ، فيرجى لك أن تشم رائحة من معانى كلام ربك ٠ والا فباب الفهم عنك مغلق ٠ وعزة ربى ان

كل حرف من القرآن العظيم يعجز عن تفسيره الثقلان ، ولو اجتمع الخلق كلهم على أن يعلموا معنى الباء بعقولهم لعجزوا ، وما لاحد من ذات نفسه شيء قل ولا جل . وان لم يكن الله تعالى يعلم العبد والا فهو عائم فى البحر ، مزكوم محجوب لاتسم ولا لم ولا علم ولا حس ، ومن لم يذق مقام القوم ويرى ويشاهد ، لم يحسن أن يصف بحرا لا قرار له ، أو يترجم عن ساحل لا آخر له ، أو يعوم فى مقر التخوم أو يصل الى النون ، أو يدرك معانى السر المصون ، وأما اذا أعطى عبده علم ذلك فلا مانع) (١) .

والباء المشار اليها هى الباء فى (**بسم الله**) والنون فى قوله تعالى (ن **والقلم وما يسطرون (١) ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢) وان لك لاجرا غير ممنون (٣)وانك لعلى خلق عظيم** (٤) . والنون فى (كن **فيكون**) .

« لا ينتفع بحمل القرآن العظيم الا من عمل به » :

ويبين لنا رضىالله عنه الاداب التى يجب أن يتحلى بها حامل القرآن العظيم ليكون أهلا للانتفاع بأسرار آى الذكر الحكيم ، أما اذا حمل القرآن الكريم ولم يوقره ويراع آدابه فهو محجوب مطرود ، يتلو القرآن ولا يتجاوز حنجرته .

ومن هذه الاداب :

أولا : الابتعاد عن الحرام : يجب « ١ » على حامل القرآن الا يملا جوفه حراماولا يلبس حراما، فان فعلذلك لعنه القرآن من جوفه وقال : لعنة الله على من لم يجل كلام الله تعالى) .

ثانيا : الطهارة الظاهرة والباطنة : (يجب على تالى القرآن أن يطهر فمه للتلاوة : من اللفظ والنطق الفاحش ، ولا يأكل الا حلالا صرفا بقدر الحاجة من غير سرف ، فان أكل حراما أساء الادب ، ويعطر ثيابه وبدنه ومكانه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يتطيب لذلك حتى كان اذا لمس شيئا يمكث يفوح الطيب منه زمانا وكان وميض المسك يلمع من مفرقه صلى الله عليه وسلم) .

وما جاء التهاون بكتاب الله عز وجل الا من النفاق أو الجهل والانصراف

---

(١) الطبقات الوسطى وجه ق ١١١/أ والكبرى ج ١ ص ١٥٥/١٥٦ .
(٢) الكواكب الدرية — ظهر ق ٢٣٠ .

عنه، أما من علم انه قد جلس على بساط المشاهدة ليناجى ربه بكلامه العزيز فانه يبذل كل مافى وسعه للتخلى عن كل مذموم والتحلى بكل محمود ٠

ثالثا : العمل بمقتضى كل آية يتلوها ، وفى ذلك يقول :

(يا حامل القرآن لا تفرح بحمله حتى تنظر هل عملت به أم لا ؟ فان الله عز وجل يقول « **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا** » ولا تخرج عن كونك حمارا الا اذا عملت بجميع ما فيه، ولم يكن منه حرف واحد يشهد عليك) ٠

(ولا ينبغى لحامل القرآن العظيم ان يدنس فمه بأكل حرام ولا بكلام حرام فى عرض مؤمن ولا مؤمنة ٠ قال تعالى « **ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والاخرة** » الاية : ومثال من ينطق بالقرآن الكريم مع تدنس فمه بغيبة أو نميمة أوبهتان : مثال من وضع المصحف فى قاذورة وقد قال العلماء بكفره)

(علوم العارفين لا تدخل تحت حصر)

لان العارف تتدفق علومه من بحار معانى كلمات كتاب الله عز وجل فكيف يمكن حصرها ؟ فمن ادعى المعرفة واحتاج الى غير كتاب الله تعالى فى شأن من شئونه فهو كاذب فى دعواه ٠

ولا يزال العارف بالله تعالى يترقى فى معارج العلم القرآنى ويسقى بأنور التجلى الفرقانى حتى (اذا كمل العارف فى مقام العرفان أورثه الله علما بلا واسطة وأخذ العلوم المكنونة فى الواح المعانى ففهم رموزها وعرف كنوزها وفك طلسماتها وعلم اسمها ورسمها ، وأطلعه الله تعالى على العلوم المودعة فى النقط، ولولا خوف الانكار لنطقوا بما يبهر العقول ، وكذلك لهم من اشارات العبارات عبارات معجبة وألسن مختلفة ، وكذلك لهم فى معانى الحروف والقطع والوصل والهمز والشكل والنصب والرفع ما لا يحصر ولا يطلع عليه الا هم ٠ وكذلك لهم الاطلاع على ماهو مكتوب على أوراق الشجر والماء والهواء وما فى البر والبحر وما هو مكتوب على صفحة قبة السماء ، ومافى حياة الانس والجن مما يقع لهم فى الدنيا والاخرة ، وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب بلا كتابة من جميع ما هو فوق الفوق وما تحت التحت ، ولا عجب من

حكيم يتلقى علما من حكيم عليم ، فان مواهب السر اللدنى قد ظهر بعضها ، فى قصة موسى والخضر عليهما السلام) (١) ٠

و (قد يقذف الله فى قلب وليه ما لا يطلع عليه أحد من العلماء) و (من دخل حضرة الله نظر الدنيا والاخرة) و (واذا تجلى عروس الكلام فى رتبة الالهام طلعت شموس المعارف وتجلى البدر المنير فى الليل البهيم ، فهم سكارى الظواهر صحاة البواطن والضمائر) ٠

ويقرر القطب الدسوقى ان العارف مجتهد لا يسبقه فى العلم أصحاب المحابر والدفاتر اذ أن (**فيض الربوبية اذا فاض أغنى عن الاجتهاد ، وقد يعطى الولى** القاصر مالم يعط لاصحاب المحابر) (فان صاحب الجهد قاصر مالم يقرأ فى لوح المعانى سر عطاء القادر) ٠

(وليس مطلوب القوم الا مجالسة الحق فى كل أمر سلكوه ، فاذا حضروا عنده عرفوا بتعريفه كل شىء بلا تعب)

يشير رضى الله تعالى عنه الى ماورد فى السنة المطهرة من مجالسة الذاكرين للحق تعالى ومعيته تعالى لهم فقد جاء فى الحديث القدسى : (**أنا جليس من ذكرنى**) (٢) ٠

وفى الحديث القدسى يقول الله تبارك وتعالى (**أنا عند ظنى عبدى بى وأنا معه اذا ذكرنى : فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ٠ وان ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملأ خير منهم وأن تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وأن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ، وان أتانى يمشى اتيته هرولة** (٣) ٠

(أنا مع عبدى أن هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه) (٤) ٠

فالذاكر الصادق لله عز وجل جليس الرحمن وهذا هو السر فى تحلق

---

(١) الطبقات الوسطى وجه ق (١٠٥) ٠ والكواكب الدرية وجه وظهر ق ٢٢٩ ٠

(٢) رواه الامام البيهقى فى الشعب عن أبى بن كعب قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام يارب أقريب أنت فأناجيك أو بعيد فأناديك ؟ فقيل له (يا موسى أنا جليس من ذكرنى) وروى البيهقى أن محمد بن النضر سئل أما تستوحش ؟ من طول الجلوس فى البيت ٠ فقال مالى استوحش وهو يقول (أنا جليس من ذكرنى) واخرجه أبو الشيخ عن محمد بن النضر الحارثى عن أبى الاحوص ٠ ورواه الديلمى بلا اسناد عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها مرفوعا ٠

(٣) رواه البخارى ومسلم وغيرهما ٠

(٤) رواه ابن ماجه وابن حيان فى صحيحه ٠

الصوفية لذكره عز وجل . ويكفى الذاكرين ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه قال **مر النبى صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن رواحةوهو يذكر أصحابه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنكم الملا الذين امرنى الله أن أصبر نفسى معكم ثم تلا هذه الاية (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** (اما انه ماجلس عدتكم الا جلس معهم عدتهم من الملائكة ، ان سبحوا الله سبحوه وان حمدوا الله حمدوه وان كبروا الله كبروه ثم يصعدون الى الرب جل ثناؤه وهو أعلم بهم فيقولون : ياربنا عبادك سبحوك فسبحنا وكبروك فكبرنا وحمدوك فحمدنا ، فيقول ربنا : ياملائكتى اشهدكم انى قد غفرت لهم . فيقولون فيهم فلان الخطاء ! فيقول هم القوم لا يشقى بهم جليسهم) (١) .

ويكفيهم شرفا ما جاء فى الحديث القدسى :

(من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب: وماتقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضت عليه ، ومايزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه : فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . وان سألنى لاعطينه ، ولئن استعاذنى لاعيذنه ((٢) .

ومن كانت هذه منزلته لم يدانيه غيره فى المعرفة بالله عز وجل وآداب الحضرة الالهية ولا فى سماحة الخلق ولا فى خدمة الخلق وهذه منتهى نهايات العلوم وهى علوم السعاده الابدية دنيا وأخرى لايصل اليها الاكل تقى **(اتقوا الله ويعلمكم الله)** .

ولذا كان كلام العارف دائما أصيلا مبتكرا لانه ينطق عن أحواله ومشاهداته وهذه لاتتكرر فى شخصين أبدا فما (ثم عارف ينطق عن غيره ،وانما يضيف الكلام للغير تسترا « على نفسه من عوارض الشهرة او تنفيسا لما يحدث فى نفسه من الم الكتمان » « ٣ » .

---

(١) رواه الطبرانى فى الصغير .

(٢) رواه البخارى فى الرقاق واللفظ له وروى نحوه الامام أحمد والحكيم الترمذى وأبو يعلى والطبرانى وأبو نعيم وابن عساكر عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها . والطبرانى فى الكبير عن ابى امامة وابن السنى عن السيدة ميمونة رضى الله تعالى عنها والقشيرى فى الرسالة عن أنس رضى الله تعالى عنه .

(٣) الكواكب الدرية وجه ق ٣٢٩ والعبارة التى بين علامتى التنصيص من الطبقات الوسطى وجه ق ١٠٤ .

ولهذا أيضا تعددت الطرق الى الله عز وجل، ولم تنحصر في عدد معين ومبناها جميعا الكتاب والسنة ، وهذا التعدد جاء من أن كل انسان يصل الى الله عز وجل من الوجه الملائم لاستعداده الفطرى وهنا يختلف من فرد الى آخر . فالنفس البشرية لاتتكرر صورتها بل انها فى حدذاتهاتتقلب وتتغيرفى لحظات طبقا للاحوال التى تمر عليها. وفى ذلك يقول «ياأولادى :**الفقراء لهم** طرائق عدد أنفاس الخلائق فكل منهم تكلم على قدر درجته(١) » وكما أشار اليه فى رسالته حيث قال :

الطرق شتى وطرق الحق مفـــردة	والسالكون طـــريق الحـــق أفراد
لا يعرفون ولا يســـالك مســـالكهم	الا رجـــال لهم بالليـــل أوراد
النـــاس فى غفلة عمـــا يراد بهم	كأنهم فى ســـبيل الحـــق رقاد (٢)

وقد جمعت الشريعة ، كل طريق موصل الى الله عز وجل فالطرق مغلقة دون طريقها وهى الميزان الذى يزن به كل سالك أفعاله وأقواله التى تربطه بخالقه عز وجل وبالموجودات وهذا الشمول فى الشريعة من الاعجاز الذى تعجز الاقلام عن بلوغ تفصيله .

---

(١) و (٢) : لسان التعريف مخطوط ظهر ق ٢٨ ووجه ق ٤١ على التوالى .

« الفهم فى طريق الله عز وجل يتوقف على الاستعداد »

الجاهل عدو ما يجهل طالما كانت نفسه مغلقة لا استعداد لها لتلقى أية حقيقة خارج الدائرة التى تعيش فيها واعتادت عليها ، كذلك المحجوب الذى فقـــد الاستعداد لمعرفة الله عز وجل وانغمس فى حمأة الدنيا لا يعرف سواها : يبارز العارف ويتصدى له بالعداوة والبغضاء أو الانكار اذا ماصادفه فى حياته العامة .

ولذا ينصح القطب الدسوقى مريديه الا يعرضوا أنفسهم للابتلاء بأمثال هؤلاء خشية الفتنة وتضيع الوقت فيما لاجدوى فيه ، والصوفىرأس ماله وقته ، الا اذا كان العارف له قدرة على منازلة هؤلاء وكبتهم فانه يتصدى لهم مادامت فى ذلك مصلحة دينية كالكف عن الايذاء أو التوبة والرجوع الى الصراط المستقيم . ويطلب منهم مراعاة سعة القوابل ونوع الاستعدادات ليسلموا من النفوس المعوجة التى لا تعيش الا فى جو الحقد والكراهية والاحتجاب عن خالقهايقول :

(يأولادنا (١) لا تودعوا كلامنا الا عند من كان منا وأحب أن يسلك طريقنا ، ولا تذكروه الا لمحب محق يدخل تحت حكمنا وينقاد لنا وقد قالوا : ذكر الكلام لغير أهله عورة) ثم يقول (كم من علم يسمعه من لايفهمه فيتلفه ! ولذلك أخذت العهود على العلماء ألا يودعوا العلم الا عند من له عقل عاقل وفهم ثاقب) .

ولقلة الاستعداد وضيق القابلية للعارف أن يكتم علومه ليسلم من أذى المنكرين واساءتهم ولذا يقول بصدد علوم تأويل القرآن العظيم (أسلم التفسير ما كان مرويا عن السلف الصالح ، وأنكره عند الناس ما فتح الله به على قلب العبد فى كل عصر ، ولولا محرك يحرك قلوبنا لما نطقت الا بما ورد عن السلف ، فاذا حرك قلوبنا وارد استفتحنا باب ربنا واستأذناه وسألناه الفهم فى كلامه فنتكلم فى ذلك الوقت بقدر مايفتح الله على قلوبنا . فسلموا لنا تسلموا فانا فخارة فارغة والعلم علم الله لا علمنا) .

---

(١) الطبقات الوسطى ـ مخطوط ـ ظهر ق ١٠٨ .

وهذه صفة من أهم صفات العارف : وهى أنه لا يرى له على الناس فضلا مهما أوتى من العلم بل الفضل لله عز وجل أولا وآخرا وهذا هو العلم الحقيقى الذى لا يطلب للشهرة ولا للمهارة ولا للحظوظ النفسية ولا للهلاك والتدمير ولكنه لهداية الانسان الى خالقه عز وجل ٠

ولكم قاسى رضى الله تعالى عنه من اشاراته وعباراته فى المعرفة حتى وشى به الى السلطان وأمر بقتله ولكن الله عز وجل أيده بنصره وكبت أعداءه وخصومه فلم يستطيعوا أن يصلوا اليه بسوء وانتهى الامر بأن السلطان الملك الاشرف خليل كان يتبرك به وينفذ له جميع أموره وكلها تتعلق برفع الظلم عن المظلومين ٠

من نظم سيدى إبراهيم الدسوقى
رضى الله عنه

تجلى لى المحبوب فى كل وجهة ... فشاهدته فى كل معنى وصورة

وخاطبنى منى بكشف سرائرى ... فقال أتدرى من أنا قلت منيتى

فأنت منائى بل أنا أنت دائما ... إذا كنت أنت اليوم عين حقيقتى

فقال كذاك الأمر لكنه إذا ... تعينت الأشياء كنت كنسختى

فأوصلت ذاتى باتحادى بذاته ... بغير حلول بل بتحقيق نسبتى

فصرت فناء فى بقاءٍ مؤبد ... لذاتٍ بديمومة سرمدية

وغيبنى عنى فأصبحت سائلا ... لذاتى عن ذاتى لشغلى بغيبتى

وأنظر فى مرآة ذاتى مشاهدا ... لذاتى بذاتى وهى غاية بغيتى

فأغدوا وأمرى بين أمرين واقف ... علومى تمحونى ووهمى مثبتى

خبأت له فى جنة القلب منزلا ... ترفع عن دعد وهند وعلوة

أنا ذلك القطب المبارك أمره ... فإن مدار الكل من حول ذروتى

أنا شمس إشراق العقول ولم أفل ... ولا غبت إلا عن قلوب عمية

يرونى فى المرآة وهى صدية ... وليس يرونى بالمرآة الصقيلة

وبى قامت الأنباء فى كل ٠مة ... بمختلف الآراء والكل أمتى

ولا جامع إلا ولى فيه منبر ... وفى حضرة المختار فزت ببغيتى

« طلب معرفة الله عز وجل واجب
لتصحيح الأعمال وشرط فى صحة العمل »

طلب معرفة الله عز وجل فرض عين على كل مكلف قبل الاشتغال بشىء ، واقلها ما يترتب عليه تصحيح الاعمال وتخليصها من الاشراك بالله عز وجل — وعلى هذا تصبح تربية النفس بهذا القدر فرض عين : وهذا القدر هو مايكفى لتخليصها من المهلكات والحجب التى تحول بينها وبين الايمان بالله عز وجل ايمانا سليما . سئل رويم رضى الله تعالى عنه عن أول فرض افترضه الله على خلقه ؟ فقال : المعرفة لقوله عز وجل (وما خلقت الجن والانس الاليعبدون قال بن عباس رضى الله تعالى عنهما : الا ليعرفون وقال الجنيد رضى الله تعالى عنه : أول ما يحتاج اليه من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه ، والمحدث كيف كان احداثه فيعرف صفة الخالق من المخلوق وصفة القديم من المحدث ويذل لدعوته ويعترف بوجوب طاعته فان من لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه .

ولا ينال صفاء العبادات الا بكمال التوحيد وصفاء المعرفة . وهذا يتوقف على الايمان فمن لا ايمان له لا معرفة له .

وسلامة النفس من المهلكات تتوقف على سلامة المعرفة ولما كان التصوف يبحث فى تربية النفس وتهذيبها وصقلها لتصبح قابلة لمعرفته تعالى قال العلماء بأنه فرض عين .

قال ابن زكوان فى علم التصوف :

وذاك واجب على المكلف تحصيله يكون بالمعرف

قال الامام المنجورى فى شرحه : يعنى أن علم التصوف فرض عين على كل مكلف وذلك ان الانسان لا ينفك من دواعى الشر والرياء والحسد فيجب ان يتعلم ماينخلص به من ذلك : قال الامام ابوحامد الغزالى رضى الله تعالى عنه وكيف لايجب عليه وقد قال صلى الله عليه وسلم « **ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه** » . ولا ينفك بشر عنها وعن بقية ما سنذكره

من مقدمات احوال القلب كالكبر والعجب واخواتهما وتتبع هذه الهلكات وازالتها فرض عين ولا يمكن الا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها فان من لا يعرف الشر يقع فيه والعلاج ممكن وهو مقابلة الشيء بضده ، فكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب ، فأكثرها ذكرناه فى ربع المهلكات «(١)» من فروض الاعيان ، وقد تركه الناس كافة اشتغالا بما لا يعنى

والمراد بالمعرف هو الشيخ المربى الذى يعرف عيوب النفوس وخبايا حظوظها .

ومعرفته عز وجل لاتصح الا بالاقتداء بسيد الوجهاء وأمام العارفين بالله صلوات الله وسلامه عليه فالشهادة لا تصح الا بالايمان به صلى الله عليه وسلم وحب الله تعالى لا يصح الا بحبه صلى الله عليه وسلم ، وطاعة الله عز وجل لا تصح الا بطاعته صلى الله عليه وسلم (**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**) ٦٥ ـ من سورة النساء ٠

ومن فرق بين معرفة الله تعالى وبين شعب الايمان فقد ضل ضلالا بعيدا ٠ وشعب الايمان(٢) معظمها أخلاقى : فمبنى الدين الاخلاق (**انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق** فمن فصل الدين عن الاخلاق فقد جرد الدين من اصوله وأحكامه ـ أم يريد الانسان أن يتبع هواه وما تسوله له نفسه ثم يدعى الايمان بالله تعالى والحبيب الاعظم يقول (**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**) ٠

ونص الحديث الشريف على أن من تحققت فيه هذه الشروط فهو منافق : (**آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان**) كما نص على أن يسير الرياء شرك ، بل ان النفاق كله يدور على مسائل خلقية ، محورها الشك وعدم الايمان بالله تعالى ٠

وتأمل فى قوله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) يشير الى كتابه : احياء علوم الدين ٠
(٢) أفردها الامام البيهقى بتأليف ضخم بنفس العنوان ـ وهو مخطوط بدار الكتب العامة فى ستة مجلدات ويا ليته يطبع ٠

(لا أمانة لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له) (١) •

(من غشنا فليس منا) « ٢ » من حمل علينا السلاح فليس منا .

لايؤمن احدكم حتى يأمن جاره بوائقه .

(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه) •

(من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) (٣) فما كل من ادعى الايمان بمؤمن : ومايؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون ١٠٦ سورة يوسف عليه السلام •

ولصفاء نفوس العارفين كانت أعمالهم لا توزن بميزان فقيمة العمل تابعة لمقدار المعرفة وما (ثم عمل أزكى ولا أطهر ولا أنور ولا أكثر فائدة من عمل اهل الله عز وجل فان الذرة منه ترجح على الجبال من عمل غيرهم لخلوها من العلل فان عمل القوم بقلوبهم وأبدانهم وعمل غيرهم بأبدانهم دون قلوبهم ولذلك يطرقهم الاعجاب والكبر بالطاعات) (٤) •

يشير رضى الله تعالى عنه الى أن الكبر يحبط العمل وقد جاء فى الحديث القدسى يقول الله تبارك وتعالى **(الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما القيته فى النار)** « ٥ »

فلا تكاد تصح عبادة ولا تسلم طاعة مادامت فى النفس بقية من بقايا حظوظها من عجب أو بطر أو أنانية أو حب للشهرة أو السلطة أو الرياء أو النفاق أو الخداع أو الغش أو الكذب والميل للظلم والفسق والفجور وغير ذلك من العلل النفسية التى تفسد الاعمال كائنة ما كانت • بل ان المقبل على ربه (نومه أفضل من عبادة غيره لانه فى نومه فى حضرة ربه وربماكان العابد فى عبادته مع نفسه) وفى هذا المعنى يقول القطب السيد على وفا « ٧٥٩ —

---

(١) رواه أبو يعلى والبيهقى عن أنس رفعه والطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهم بلفظ آخـــــر •

(٢) رواه مســــلم •

(٣) رواه البيهقى عن انس رفعه بلفظ (من أصبح لا يهتم للمسلمين فليس منهم ومن أصبح وهمه غير الله فليس من الله) وهو عند الطبرانى وأبى نعيم •

(٤) الطبقات الوسطى ظهر ق ١٠٩ •

(٥) رواه مسلم ورواه الحاكم بلفظ (الكبرياء ردائى فمن نازعنى ردائى قصمته) وقـــال صحيح على شرط مسلم •

٨٠٧ هـ » العادة مافيه حظ للنفوس والعبادة ماكان محضا للملك القدوس فرب قيام وصيام عادة ، ورب طعام ومنام عبادة ، **كونوا أرباب العبادات ولا** تكونوا عبيد العادات فمن ملكته عاداته فسدت عليه عباداته »

انما الاعمال بالنيات هذا نيته لله وذلك نيته لحظ نفسه وشتان مابينهما فالمرجع الاول والاخير فى تقييم الاعمال هو الحديث الشريف (**انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او أمرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه**) وهذا الحديث من الاعجاز العلمى الذى ليس وراءه مرمى فى وزن الاعمال وتقييمها ومعرفة زيفها من صحيحها وسليمها من سقيمها، وهو الميزان الذى يقيمه كل انسان ليزن به أفعاله وهو أدرى بنوايا نفسه ، فان رأى اعوجاجا بادر بتقويمه واصلاحه قبل أن يستفحل الداء فيهلك ٠

وروى الامام البخارى فى باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا : ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (**من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله**) وهذا الحديث من الاعجاز العلمى المحمدى فى تقرير أسباب الحرب وتوطيد دعائم السلام فى العالم فكل ما كان لغير الله عز وجل فهو باطل ٠

وكلمة الله عز وجل هى كلامه العظيم والبيان المحمدى لكتاب الله عز وجل ، فلا يمكن لاحد أن يدعى أنه يقاتل فى سبيل الله تعالى وهو خارج عن دين الله ٠

(ان الدين عند الله الاسلام) ٠

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون) ـ ٨٣ ٠

(ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الاخرة من الخاسرين ٨٥ ـ سورة آل عمران ٠

وعندما تتحول مفاهيم الاسلام الى مفاهيم سلبية تسمح للجبناء بالفرار

المسئوليات ، والمنافقين بالتلاعب بالشعارات المقدسة ، وللجبابرة بتبرير ا
طغيان وللافراد بتحقيق المطامع الشخصية : فان هؤلاء الادعياء يكونون أش
خطرا على الدين من كل عدو مدمر ، ويكفى أنهم يكونون محور هذه القض
الفاسدة التى صاغها كل افاك أثيم : ان أتباع هذا الدين منحطون فدينهم اذ
باطل ! ومن هذه المصادر ينفذون الى اباحة الفوضى العقائدية . ولا ذن
للاسلام ان اعتنقه منافق لا يحفل بتعاليمه أو ظالم لا يراعى حرمته ولو سلم
لهم بهذه المغالطة اللا منطقية اذن لبطلت كل حقيقة : ولاصبح الذهب خز
بمجرد حفظه فى علبة من الخزف ، ولتحولت اللالىء الى زجاج لوضعها ف
حوافظ زجاجية .

ان الحائل الذى يحول بين البشر وبين الشقاء الدائم هو التحقق بشع
الايمان التى اقتضتها الاسماء الحسنى ، واذا زال هذا الحائل انقسم الأفر
وانقسمت المجتمعات الى نوعين اثنين ، نوع قابل للاستعباد والذل والهوا
والدونية والسلبية ولجميع أسباب الانحطاط الخلقى ، يقابله نوع يضم الطغ
والمستبدين والقابلين لجميع صفات الاستبداد والاستغلال والعدوان ، وحينئذ
مفر للبشرية من مواجهة الجحيم نفسه : جحيم الشرك والطغيان والفس
والفجور والوحشية والاباحية تقابلها صفات الذلة والحقارة والعبودية وانعد
المروءة ومن سعير هذا الجحيم تنطلق الكلاب الادمية المسعورة تنهش وتفترس
وتتلذذ برؤية المشوهين والمعذبين كما تتلذذ النفوس الكريمة برؤية السعداء .

« اختلاف أحوال العارفين من تنوع مقاماتهم »

وفى ذلك يقول :

(الرجال منهم رجل ونصف رجل وربع رجل ورجل كامل وبالغ ومدرك وواصل (والناس خاص وخاص الخاص ومبتدىء ومنته ومتشبه ومتحقق ويرحم الله تعالى البعض بالبعض ، والقوى لا يقدر أن يمشى معه الضعيف) و (من الاولياء من لايدرى الخطاب ولا الجواب فهو كالحجارة مودعة فيها أسرار ناطقة بلسان حال ، صامتة عن الكلام ، مودعة من غوامض الاسرار ، والعطاء مفرق ،فمنهم عارف ، ومنهم محب ، ومشغوف وذاكر ومذكر ومعتبر ، ومنهم ناطق وصامت ومستغرق وصاح وصائم ومفطر وهائم وقائم دائم ونائم واصل ، وواصل ساهر ، وواقف ذاهل ، وداهش واهن ، وباك باسم : ومقبوض وضاحك ، وخائف ومختلط ومختبط ومولة ومتوله ، وصائح ونائح ، ومجموع بجمعية وجمعة ان خرج عن اياهما انتفع به ، ومنهم من مزق الثياب حين حقق وأناب ، وغلب عليه الحال ، ويرحم الله البعض بالبعض (١) .

وممن صرح بالتقسيم من حيث مراتب الرجولية :الشيخ العارف المحدث عبد الله الدهلوى (٢) حيث يقول : الرجال على أربعة أنواع : النوع الاول ليسو برجال وهم طالبوا الدنيا ، والثانى رجال وهم طلاب الاخرة ،والثالث شبان الرجال وهم طالبوا الاخرة والمولى ، والرابع افراد هم طالبوا المولى . وهناك خاصة الخاصة وفيهم يقول ،

(خواص الخواص جعلوا زواياهم قلوبهم ولبسهم تقواهم وخوفهم من ربهم ومولاهم ، قد رفضوا الكرامات ولم يرضوا بها وخرجوا عنها لعلمهم انها من ثمرة أعمالهم ، فلم يطيروا فى الهواء ولم يمشوا على ماء ، ولم تسخر لهم الهوام ، ولم تبصبص لهم الاسود ، ولم يضربوا أرجلهم بالارض فيتفجر الماء ، ولامسوا أجذم ولا أبرص فبرىء ولا غير ذلك ، فخرجوا من الدنيا وأجورهم موفورة كاملة رضى الله عنهم أجمعين) .

---

(١) الطبقات الوسطى والكواكب ـــ وكتاب الجوهرة المطبوع ص ١٠٦ مع اختلاف فى بعض الالفاظ أو تقديم وتأخير .

(٢) هو امام الهند فى عصره وعالمنا عبد الله بن عبد اللطيف شاه ربى جيلا من العلماء والعارفين عاش (١١٥٨ ـــ ١٢٤٠ هـ).

هذا ان كان يطلب أما من غير طلب فقد يجرى الله عز وجل على يد العارف ما شاء ٠

وكان يقول (انما قالوا حسنات الابرار سيئات المقربين لان المقرب يراعى الخطرات واللحظات ويعد ذلك من الهفوات ، ويفتش على هواجس النفوس ، ويراقب خروج أنفاسه ، ويخاف من حسناته كما يخاف المذنب من سيئاته ، والابرار لا يقدرون على هذا الحال ، وايضا فالمقرب لا يقول عندشرابه أواه ولاما أحلاه ولا يصفق بكف ولا يصرخ ولا يشق ولا يضرب برأسه الحجر ، ولا يهيم ولايمشى : ومن فعل ذلك فعله لقلة ثبوته على الواردات ، مع انهم سلموا لـه حاله لغلبته عليه ، وجعلوا حسناته سيئات مع أن المقربين ليس لهم سيئات ، انما هى محاسبات عاليات نفيسات) ٠

قال الجلال الكركى (١) :

وقال استاذنا خاص الخاص أهل الخصوصية جعلوا زواياهم قلوبهم ولبسهم تقواهم وخوفهم ممن خلقهم وصورهم وبراهم قال وهم كما قيل :

من السعادة الا تبعد الدار ... وهل يبل غليل الشوق تذكار ؟
ليت المنازل بالجرعاء دانية ... منا وذاك الذى نهوى بها جار
ونسمة القرب ان مرت بهم سحرا ... تمايلوا وبدت للسكر آثار
هم صاحبوا ليلهم كيما يعلمهم ... قطع الطريق كأن الليل عيار
سقاهم الوجد كاسات الهوى فغدوا ... منه سكارى كأن الوجد خمار
مقلدين سيوفا من عزائمهم ... مدرعين دروعا وهى أسرار
قاموا قعدت بلحظى نمت فانتبهوا ... يا ليتهم أيقظونى عندما ساروا
تشتاقهم كل أرض ينزلون بها ... كأنهم فى بقاع الارض امطار

قال : وخواص الخواص : رفضوا الكرامات ولم يعبأوا بها ولم يرضوها ، بل طلبوا من الله حسن النظر الى وجهه الكريم لان ذلك أعلى مقام عند القوم كما قال الله تعالى **(وجوه يومئذ ناضرة ــ ٢٢ ــ الى ربها ناظرة ــ ٢٣)** « من سورة القيامة » .

---

(١) لسان التعريف ــ مخطوط ــ ق ٥٨ ٠

(أهل المحبة الالهية):

الحياة الدنيا بغير الحب الالهى جحيم لا يطاق ، وعذاب مستمر لانه عذاب يتولد منه عذاب وهكذا ٠

والانسان ولد وحب الله عز وجل يجرى فى عروقه ، فكيف اذن ينساه ! كيف يعرض عن خالقه ! كيف يهرب من خالقه ، والوجود كله ملكه ٠

نعم يخيل للانسان أنه قرب من الله عز وجل ولم يهرب منه الا اليه ٠ فالمحجوب يهرب من المكون الى الاكوان يهرب من الخالق الى مخلوقاته ، وينزل بحب الخالق الى حب مخلوقاته وهو حب مزيف لانه سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء فاذا جاءه وجد الله عنده ٠

المحجوب يهبط بالمحبة الالهية الفطرية عنده الى عشق المخلوقات فلا يشبع ولا يرتوى ويموت ظمآنا لانه ضل سواء السبيل ٠ حب المحجوب اذن يكون مصدر شقائه ومنبع بلائه ، فهو يصرف حياته كلها فى عشق النفس أو مظاهرها أو عشق المخلوقات التى يرتبط بها ، ثم لا يجد الى السعادة سبيلا ولا يعرف لها طعما ، وهذا العشق هو الذى يولد الرذيلة : الكراهية والبغضاء الحقد والحسد ، الغل والانتقام ، الفجور والجريمة ، سفك الدماء وانتهاك الحرمات ، والعدوان ، والطغيان وتأليه الانسان أو الجماد ٠ انه انسان مسعور افتقد خالقه فعبد مخلوقاته ٠ انه انسان جهل خالقه فهام فى متاهات المخلوقات يخبط فى ظلمات بعضها فوق بعض ويدعى العلم بعد ذلك . نعم انه العلم بالظلام ٠ وهذا هو عين الجهل المركب ٠

يظن سعادته فى الجاه فيجرى وراءه فاذا ما كسبه لم يذق طعم السعادة التى ينشدها . ويظن السعادة فى المجد فيلهث وراءه حتى اذا ما ناله لم يحصد سوى الشقاء والهم ٠

ويقضى حياته وهو يلهث وراء غايات تنتهى به الى أوهام ، ويتصارع مع أخيه الانسان صراعا لا هوادة فيه ، هو صراع أشد ضراوة من اشتباك الذئاب مع الذئاب ، أو الكلاب مع الكلاب أو الخنازير مع الخنازير ، وشيئا فشيئا وفى حمأة هذه الحجب والاوهام يفقد الانسان فطرته ويكتسب ما هو أقسى وأشرس من طباع الحيوان ٠

عندما احتضر الشاعر المؤلف الروائى الشهير الالمانى جويتيه قال لمن حضره : قضيت حياتى أرى النور من بعيد وكلما اقتربت منه ابتعد منى وها أنا احتضر ولم أصل اليه ٠

يعنى نور الحقيقة

لقد انحرفنا عن الحب الحقيقى : الحب الالهى وانحرافنا دفعنا الى طلب الحب فى كل شيء وكلما وصلنا الى الشيء الذى ظننا أننا سنجد الحب عنده لم نجده ، وكلما اشتد بنا الطلب كلما اشتد بعدنا عن الحقيقة ، واشتدت مع البعد الالام يصحبها شعور خفى مستمر بالحرمان : هو الحرمان من النور الالهى ٠

ان الحب الالهى لا يكون حقيقيا الا اذا عرفنا الله عز وجل ٠

ولا نعرفه عز وجل الا اذا آمنا بامام العارفين وسيد الوجهاء والرحمة المهداة للعالمين صلوات الله وسلامه عليه ٠

فاذا ما عرفنا الله عز وجل بتعريفه صلوات الله وسلامه عليه لنا : واتبعناه صلوات الله وسلامه عليه فى اقواله وافعاله واحواله ٠ كان حبنا له تعالى صادقا ٠

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم ـ ٣١ ـ قل اطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين ــ ٣٢) سورة آل عمران .

فالعارف لا يشغله شيء عن حب الله تعالى فهو فى استقرار نفسى دائم وفى اشباع نفسى دائم وفى اتزان نفسى دائم : وهذه هى الصحة النفسية الاساسية : نتيجتها : حسن الخلق ، نتيجتها مكارم الاخلاق ومعاليها والبعد عن الدنايا ، هذا هو الانسان الحق : هو خير كله ومصدر سعادة لمن حوله ٠

وأكبر علامة لحب الله عز وجل : أن يكون كل حب فى الوجود مصدره حب الله تعالى ، وألا يتخذ أعداء الله تعالى أحبابا له ، من دون المؤمنين ٠

قال الله تعالى (**لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير ــ ٢٨**) سورة آل عمران .

ويقول الله تبارك وتعالى (ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الاذلين ــ ٢٠ ــ كتب الله لاغلبن أناورسلى : ان اللهقوى عزيز ــ ٢١ ، لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون ــ ٢٢ (من سورة المجادلة) .

ويرشدنا الحبيب الاعظم صلى الله عليه وسلم الى اقصر الطرق وأقربها الى الله عز وجل ويدلنا على طريق السعادة الذى لا شقاء فيه فيقول :

١ ــ ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبهالاالله تعالىوأن يكرهأنيعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار (رواه البخارى ومسلم ٠

٢ ــ (ان من الايمان أن يحب الرجل رجلا لا يحبه الالله من غيرمالاعطاه فذلك الايمان) رواه الشيخان ٠ وفى حديث آخر (من سره أن يجد حلاوة الايمان فليحب المرء لا يحبه الا لله) رواه الحاكم ٠

٣ ــ لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين) رواه البخارى ٠

٤ ــ) والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنوا حتى تحـــابوا .

الا ادلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم »رواه مسلم ٠
وافشاء السلام عام لا كما يظن البعض انه المصافحة باليد أو بالايماء

ان افشاء السلام يشملكلعمل صالح يؤدىالى أقرار السلام بينالناس ورفع الخصومة بينهم واقرار الحب فى الله بينهم هو السبيل الوحيد لوجود السلام الحقيقى ٠

٥ ــ (افضل الاعمال الحب فىالله والبغض فى الله) رواه الامام احمد وابوداود والطبرانى٠وفى حديث آخر(ان أوثق عرى الايمانأن تحبفىالله وتبغض فى الله) رواه الامام أحمد والبيهقى ٠

فمن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده وهذان الامران متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الاخر ٠

٦ ـ (من أحب لله وأبغض وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان (رواه أبو داود ٠

٧ ـ وروى البيهقى فى شعب الايمان عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى ذر : (يا أبا ذر أى عرى الايمان أوثق ؟ قال : الله ورسوله أعلم ٠ قال : الموالاة فى الله والحب فى الله) ٠

وفراغ القلب من حب الله عز وجل : هو سر كل شقاء فى الوجود وسبب كل تعاسة فى الحياة ، هو العذاب المقيم للبشر ٠

اذ هو المصدر الاساسى لكل سلوك معوج وخلق دنىء ودافع منحط ٠

ان علماء النفس والاخلاق والاجتماع قد فسروا السلوك بنظريات نهائية متعددة مثل نظريات : الغرائز والانا والجنس والنظريات الاجتماعية والنظريات المادية وكل نظرية داخلها مذاهب ٠

ويقابل هذا الحشد من النظريات حقيقة واحدة ولا نقول نظرية لاننا لا نجرى وراء النظريات ٠

حقيقة واحدة تفسر كل دوافع السلوك، هى الحب الالهى الكامل. وهو لا يتحقق الا بالايمان بالرحمة الشاملة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ٠

فعلى قدر الحب الالهى السليم فى القلب يكون السلوك انسانيا ، وعلى قدر فراغ القلب من هذا الحب المقدس يكون السلوك منحرفا ٠

واذا فرغ القلب من الحب الالهى :

لجأ الى دافع من الدوافع التى ذكرها العلماء فى تفسير السلوك ،فهذه النظريات اذن ليست على عمومها ولكنها فى الواقع تفسيرات للسلوك تصلح لتفسير سلوك شخص معين ولا تصلح لتفسير سلوك شخص مغاير ٠ هى

تفسيرات تختلف باختلاف الاشخاص : فهى اذن ليست بنظريات عامة ولكنها طرق لتفسير سلوك منحرف فعلا ٠

أما السلوك الكامل فلا تنطبق عليه أىنظرية باعتراف جميع العلماء عدا الماديين منهم ٠

والسلوك الكامل هو الصادر عن قلب ملىء بحب الله عز وجل ٠ والحب الالهى الكامل :

لا ينبثق الا من الايمان بالحبيب الاعظم صلوات الله وسلامه عليه ٠

فسر السعادة فى الوجود ،

وسر النعيم فى الحياة :

وسر الطمأنينة والاستقرار والسلام :

هو الايمان به صلى الله تعالى عليه وسلم واتباعه والاهتداء بهديه والعمل بسنته ٠

ومن الايمان به صلوات الله وسلامه عليه :

تنبثق كل أسباب سعادة الانسان ٠

ومن اتباعه صلوات الله وسلامه عليه : تنبثق كل دوافع السلوك المستنير ٠

ومن العمل بسنته صلى الله عليه وسلم : ينبثق كل عمل صالح فى الحياة ٠

وفقدان الايمان به صلى الله عليه وسلم ،

يترتب عليه وقوع الانسان فى فراغ لا نهائى :

يتجه الى ملئه بما تمليه عليه العادات أو التقاليد أو البيئة أو الحب الانانى او المجتمع أو الاغراض المادية لا المادة كما يقولون ٠

ففراغ القلب من الحب الالهى المحمدى يترتب عليه كل قسوة كما يدفع الى كل ضلال بقدر هذا الفراغ ٠

هذا هو الحب الذى يعنيه العارفون ٠

وينسب الى القطب الدسوقى أبيات وقصائد فى الحب فى كتاب الجوهرة نذكر منها :

فمعناه فى قلبى وذكراه فى فمى ومثواه عندى فى أجل مكان
دعونى فلى مولى اذا ما دعوته أجاب وان أبطأت عنه دعانى
ولى منه وصل كلما رمت وصله فنحن على التحقيق مجتمعان

ومما ينسب اليه قوله :

يا حليف الغرام رفقا فهذا وجه مولاى للقلوب تجلى
فتمنى ان شئت ما شئت منا وتهنى بوصلنا وتملى
انما الحسن والجمال مصون لجليل على الوجود تجلى
فدع الحب وارفع الحجب وانظر حسن من قد علا وعز وجلا

ومنه :

احبابنا ان زرتم أو صددتم وحقكم لن احل عقد ولاكم
فما استحسنت عينى مما رأيته سواكم ولا سرت لغير رضاكم
اتيه على الاكوان عجبا بحبكم واغدوا وقلبى آمن من جفاكم
دعانى اليكم جودكم فأجبته وعادتكم أن تجبروا من أتاكم
فان تحرمونى نظرة من جمالكم فلا تحرمونى شمة من شذاكم
وانى لآتى أرضكم لا لحاجة لعلى أراكم أو أرى من يراكم

ومنه :

يا سكارى الشوق عنا لابراح ما على من هام فى الحب جناح
ان تكن فى حبنا ذا همة ابذل الروح فما الحب مزاح
يا سارى حبنا طيبوا فقد سمح الساقى ونادى لابراح
وجلا خمرته فى كأسها فاكتسى الليل ضوء الصباح
يا قتيل الحب هذا نوره قد تجلى وشذا المحبوب لاح

ومنه :

لله قوم أخلصوا فى حبه فأحبهم واختارهم خداما
قوم اذا جن الظلام عليهم قاموا هنالك سجدا وقياما
خمص البطون عن الحرام تعففا لا يعرفون سوى الحلال طعاما

وكان يقول : الحب بحر عميق. ولاوصل احد الى عشر معشاره، ولاالى بعض بعضه لان المحبة لا تتناهى · ما كل من دخل الحمى سمع النداء من أهله اهلا بهذا الزائر :

تريدون ادراك المعالى رخيصة ولابد دون الشهد من ابر النحل

وكان كثيرا ما يتمثل بهذه الابيات

ولقد جعلتك فى الفؤاد مؤانسى وابحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للحبيب مجالس وحبيب قلبى فى الفؤاد جليسى

واخترنا من طبقات البقاعى هذه الابيات منسوبة اليه رضى الله تعالى عنه :

اكتم هوانا ان أردت رضانا واحذر تبح بسرنا لسوانا
واجعل وقوفك ما حييت ببابنا فلعلك تحظى بنا وترانا
نحن الكرام ومن أتانا قاصدا نال السعادة عندما يلقانا
فانهض بعزم لا تكون مقصرا وانظر ترى العشاق حول حمانا
مستبشرين بكل ما قد املوا فرحين اذ شهدوا الجمال عيانا
هاموا بسكرتهم جهارا عندما رفع الحجاب وشاهدوا معنانا
فهم الكرام ولا كرام سواهم والقلب معلق بهم ولهانا (١)

ويقول :

ارفع امرنا نرفع لأجلك جنبا فانا منحنا الرضا لمن أحبنا
ولا تعترضنا فى الامور فكل من اردناه اجتبيناه حتى احبنا
اما تستحى منا فيكفيك ما جرى اما تخشى من جفانا يا محبنا (٢)
فلو ذقت من طعم المحبة حبة عذرت الذى امس قتيلا يحبنا

هذا هو الحب الكامل الذى لا يحيد عنه الانسان لو ذاقه ، يقول العارف أبى الحسن الجوسقى :

روحى اليك بكلها قد اجمعت لو أن فيك هلاكها ، ما أقلعت
تبكى اليك بكلها فى كلها حتى يقال من البكاء تقطعت

يقول العارف أبو المواهب التونسى : علامة الوجد يا قوم وجدانه فى اليقظة والنوم :

جمالك فى مخيلتى وطرفى مقيم ليس يخفى بعد كشف
ان استيقظت كان بك ابتدائى وان اغفيت كان عليك وقفى

(١) و (٢) طبقات الابرار للبقاعى ق : ١١٩ ·

ولفحات المحبة الالهية لعزتها تحرق كل حجاب وصلت اليه فلا يطيق المحب أى ميل يشغله عن مولاه :

ولى اللـــــه ليس لـــــه أنيس ســـوى الرحمن فهـــو له جليس
يذكـــره فيـــذكره غيبـــكى وحيـــد الدهـــر جوهـــره نفيس

فى درجات الشرب :

عندما يتحدث العارف عن مقامات المحبة لابد من أن يبين درجات الشرب ، اذ أن شرب المعانى القدسية يكون على قدر ما أوتى العارف من محبة ٠

يقول الجلال لكركى : (٢) .

(ولأستاذنا فى الشرب وغيره بحقائقه وجوهرته اشارات رائعة لهاوقع فى القلوب : منها :

(واذا شرب كأس المدام وصف الاقدام فى الليل والظلام بين يدى الملك العلام ذى الجلال والاكرام ، دخل فى حلل الوقار ، بالذكر والتذكار ، وكشف له عن المغيبات وهو فى الدار ، ولاحت عليه لوائح الولاية ، وخلعت عليه خلع العناية ، وقلد بسيف الكفاية ، ورزق من سيده ومولاه الهداية ، ثم ينتقل من هذا المقام الى عالم الذكر الجلى الى عالم الذكر الخفى الى السكون الوفى : سكون القلب تحت القدرة فلا يسمع عند ذلك للقلب الا همسا ، لا حركة ولا حسا) ٠

وصفاء المعاملات يؤدى الى ذوق المعانى وهو أول درجات شهود الحق بالحق من البوارق المتوالية مما يسمونه التجلى البرقى ، فاذا زاد وبلغ أوسط مقام الشهود سمى شربا فاذا بلغ النهاية سمى ريا وذلك بحسب صفاء السر عن ملاحظة غيره ٠

يقول الجلال الكركى : (فالمراد بالشرب فى كلامهم « النور الساطع عن جماله ، والمراد بالكأس اللطف الموصل ذلك الى أفواه القلوب ، وبالساقى : المتولى للمخصوصين والصالحين من عباده وهو من قبل الله تعالى العالم بمصالح أحبابه ٠ فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظى بشىء نفسا أو

---

(١) لسان التعريف ــ مخطوط ــ ق ٢٤ ٠

نفسين (١) ثم أرخى عليه الحجاب فهو الذائق المشتاق ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقا ، ومن توالى عليه الامر ودام عليه الشرب حتى امتلات عروقه ومفاصله من الانوار ، فذاك هو الرى • وربما غاب عن المحسوس والمعقول فلا يدرى مايقال ولا مايقال فذاك هو السكر، وقد تدور عليهم الكاسات وتختلف لديهم الحالات ويردون الى الذكر والطاعات ولا يحجبون عن الصفات مع تزاحم المقدورات فذاك وقت صحوهم واتساع نظرهم ومزيد علمهم » (٢) •

والقوم تختلف مراتبهم فى الشرب : فيسقى كل بالتدريب بعد التدريب والتهذيب على قدره، فمنهم من يسقى بغير واسطة والحق يتولى ذلك منه لهم. ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء ، وأكابر المؤمنين ، فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئا ، فما ظنك بعد بالذوق ، وبعد بالشرب ، وبعد بالرى • وبعد بالسكر بالمشروب • ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى كما السكر أيضا كذلك • والكأس معرفة الحق يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض لمن شاء من عباده المخصوصين من خلقه ، فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة ، وتارة يشهدها معنوية ، وتارة يشهدها علمية : فالصورة حظ الابدان والانفس ، والمعنوية حظ القلوب والعقول ، والعلمية حظ الارواح والاسرار • فيا له من شراب ما أعذبه : فطوبى لمن شرب منه وداوم ولم يقطع عنه ••

وقد يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة وقد يسقون من كؤوس كثيرة وقد يسقى الواحد بكأس وكؤوس ، وقد يختلف الامر حسب تعدد الكؤوس ، وقد يختلف الشرب من كأس واحدة ، وان شرب منه الجم الغفير من الاحبة) •

ويقول الامام القشيرى : (٣)

(ومن جملة ما يجرى فى كلامهم الذوق والشرب ويعبرون بذلك عما يجدونه

---

(١) أى لمحة أو لمحتين أو لحظة أو لحظتين .

(٢) ما بين علامتى التنصيص اقتباس من كلام الامام الشاذلى ، ولم يشر المؤلف الى ذلك .

(٣) الامام عبد الكريم بن هوازن القشيرى (٣٧٦ — ٤٦٥ هـ) الرسالة القشيرية ص ٣٩ — ط القاهرة ١٩٥٧ .

من ثمرات التجلى ونتائج الكشوفات وبوادر الواردات : وأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الرى ، فصفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعانى ، ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب ، ودوام مواصلاتهم يقتضى لهم الرى : فصاحب الذوق متساكر ، وصاحب الشرب سكران ، وصاحب الرى صاح ، ومن قوى حبه تسرمد شربه ، فاذا دامت تلك الصفة لم يورث الشرب سكرا ، فكان صاحيا بالحق ، فانيا عن كل حظ ، لم يتأثر بما يرد عليه ، ولا يتغير عما هو به ، ومن صفا سره لم يتكدر عليه الشرب ، ومن صار الشرب له غذاء لم يصبر عنه ولم يبق دونه ، وانشدوا :

عجبت لمن يقول ذكرت ربى   فهل أنسى فأذكر ما نسيت

شربت الحب كأسا بعد كأس   فما نفد الشراب وما رويت

ويقال كتب يحيى بن معاذ (١) الى أبى يزيد البسطامى (ههنا من شرب كأسا من المحبة لم يظمأ بعده) فكتب اليه أبو يزيد (عجبت من ضعف حالك ههنا من يحتسى بحار الكون وهو فاغر فاه يطلب المزيد) •

وينسب الى القطب الدسوقى أبيات وقصائد فى الشرب معظمها فى كتاب الجوهرة ، ونذكر منها هذه المختارات :

يا ساقى القوم من شذاه   الكل لما سقيت تاهوا

طابوا وبالسكر فيك غابوا   وصرحوا بالهوى وفاهوا

يا عاذلى خلنى وكأسى   فلست تدرى الشرب ما هو

واستمع الى نغمات المثانى   تقول يا هو لبيك يا هو

ما قلت للقلب أين حبى   الا وقال الضمير ها هو

ما شرب الكأس واجتلاه   الا محب قد اصطفاه

ومما ينسب اليه :

سقانى الحب كاسات الوصال (٢)   فقلت لخمرتى نحوى تعالى

---

(١) العالم الواعظ الصوفى يحيى بن معاذ بن جعفر الرازى المتوفى بنيسابور سنة ٢٥٨ هـ : وكان يقول (طلب العاقل للدنيا أحسن من ترك الجاهل لها) (اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس : العلماء الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين) أى الذين يتعبدون قبل أن يتعلموا فروض الدين — راجع طبقات الصوفية للامام أبى عبد الرحمن السلمى ص ٩٨ — ١٠٤ ط ليدن ١٩٦٠ •

(٢) هذه الابيات تنسب أيضا الى القطب الجيلانى ضمن قصيدته الخمرية التى تبدأ بنفس المطلع ، راجع الفيوضات الربانية : ص : ٤٦ •

سعت ومشت نحوى فى كؤوس — مهمت بسكرتى بين الموالى
أنا الباز الشهير لكل شيخ — فمن ذا فى الرجال عطى مثالى
مريدى لا تخف واعلم بأنى — قريب السر من مولى الموالى

ومن ذلك قوله :

قم فذق من كأس عشقى — خمرة بل أى خمرة
هى للقلب شفاء — هى للسر مسرة
هى للعين اذا ما — جليت فى الكأس قرة
هى للأرواح راح — هى للاشباح حضرة
هى للمشتاق نور — هى للعشاق جمرة

المجذوبون :

وفيهم يقول (لا تكليف على من غاب (١) بقلبه فى حضرة ربه ما دام فيها فاذا رد له عقله صار مكلفا) وهذا (٢) حال المبتدئين وأما الاقوياء فالتكليف لهم دائم لقوتهم ، فلا يفوتهم فرض ولا سنة بخلاف المبتدئين يجب عليهم قضاء ما فاتهم مدة غيبتهم ، ولذلك لما قيل للجنيد (٣) : ان الشبلى (٤) يغيب عن حسه فقال : هل يرد له عقله أوقات الصلاة ؟ قالوا : نعم ٠٠ فقال الجنيد : الحمد لله الذى لم يجر على لسانه ذنب) ٠

والجذب الذى يقصده الصوفية هو دوام اقبال الباطن اقبالا كليا على الله تعالى حتى يغيب القلب فى حضرة الرب تبارك وتعالى ٠ وهو قسمان : جذب سبقه أو تلاه أو اقترن به سلوك ، وجذب مجرد بدون سلوك ٠

يقول الضياء الكمشخانوى (واعلم ان الشريعة المحمدية لمن تأمل جميع

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد جـ ٥ ص ٣٥٠ ٠
(٢) الطبقات الوسط ظهر ق ١٠٣ ٠
(٣) امام الصوفية فى عصره الجنيد بن محمد القواريرى ، البغدادى توفى ببغداد سنة ٢٩٧ هـ ٠ واليه تنتهى معظم أسانيد الصوفية ٠
(٤) هو أبو بكر بن جحدر الشبلى كان من الولاة ثم ترك المناصب وسلك التصوف وصحب الجنيد وطبقته ولد سنة ٢٤٧ وتوفى سنة ٣٣٤ هـ ٠ ولما حضرته الوفاة : قال لمن حضره (على درهم واحد مظلمة ظلمته أيام ولايتى ! وقد تصدقت عن صاحبه بألوف وما على قلبى أعظم منه) — فتأمل أدب هؤلاء الذين عرفوا الاسلام وعملوا به — كيف يرى حقا واحدا من حقوق الناس أثقل على نفسه من الجبال ٠ وتحضره الوفاة فيرتعد من ملاقاة الله عز وجل حين يتذكر هذا الحق ! هذا هو التصوف ٠

الاحكام المشروعة فيها وعمل بها على الوجه المشروع دون البدعة ، داعية الى تحصيل الجذب الالهى) ·

ويقول الامام أحمد الدردير رضى الله تعالى عنه فى منظومته للاسماء الحسنى :

ومن علينا يا ودود بجذبة بها نلحق الاقوام من سار قبلنا

وهناك مجذوبون انفردوا بالجذب وحده من غير سلوك ، وهؤلاء لا يصح الاقتداء بهم فى أفعالهم ، بل يسلم لهم حالهم ولا يعترض عليهم ·

وينسب إلى القطب الدسوقى أبيات وقصائد فى كتاب الطبقات الكبرى للشعرانى .

سقانى محبوبى بكأس المحبة فتهت عن العشاق سكراً بخلوتى
ولاح لنا نور الجلالة لو أضاء لصم الجبال الراسيات لدكت
وكنت أنا الساقى لمن كان حاضراً أطوف عليهم كرة بعد كرة
ونادمنى سراً بسر وحكمة وأن رسول الله شيخى وقدوتى
وعاهدنى عهداً حفظت لعهده وعشت وثيقا صادقا بمحبتى
وحَكَّمَنِى فى سائر الأرضِ كلها وفى الجن والأشباح والمرديه
وفى أرض صين والصين والشرق كلها لأقصى بلاد الله صحت ولايتى
أنا الحرف لا أقرأ لكل مناظر وكل الورى منى أمر ربى رعيتى
وكم عالم قد جاءنا وهو منكر فصار بفضل الله من أهل خرقتى
وما قلت هذا القول فخرا وإنما أتى الاذن كى لا يجهلون طريقتى

التحقق بآداب الشريعة
هو أساس الصحة النفسية الكاملة

لا يوجد تعريف موحد للصحة النفسية يصلح للتقييم ، والتعاريف التى وصل اليها العلماء انما هى تعاريف تمتاز بأنها :

نسبية وهذه النسبية قد اكتسبتها من ارتباطها بثقافة واضع التعريف ومذهبه النفسى بل وعقيدته ، وعيب التعاريف النسبية أنها تصلح للصواب وللخطأ على وجه سواء ، فهى تدور فى فراغ ينتهى الى لاشىء ٠

ومن عيوب هذه التعاريف أنها غير محدودة لانها مصاغة فى قوالب صالحة لكل احتمال فى المجال النفسى ٠

ومن هذه التعاريف ،

انها ــ أى الصحة النفسية ــ (التوافق أو التكامل بين الوظائف النفسية المختلفة مع القدرة على مواجهة الازمات النفسية العادية التى تطرأ عادة على الانسان ، ومع الاحساس الايجابى بالسعادة والكفاية) (١) ٠

فما هو نوع هذا التكامل بين الوظائف ؟ وما هى هذه الوظائف ؟ أم هى مجرد كلمة تقال لسبك صياغة التعريف دون أن توصل الى نتيجة ٠

وهل فى الامكان وضع حد فاصل بين الازمات العادية وفوق العادية ؟ حتى يمكننا أن نحكم على الشخص الذى يواجه الاولى بانه سوى والذى لا يواجهها بأنه غير سوى أو مريض ٠ ولا يصح علميا وضع مثل هذا الحد مهما كانت درجة مرونته ، فما يصح أن يكون سببا فى أزمة نفسية عادية عند أحد الافراد فى مجتمع معين قد لا يسبب أية أزمة عند شخص آخر فى مجتمع آخر ٠

والتعريف يحيلنا على الاحساس بالسعادة والكفاية : فأية سعادة ؟ وأية كفاية فقد يسعد شخص بما يشقى به آخر وقد يكتفى شخص بما لا يكتفى به الاخر ٠ بل قد تكون الكفاية نفسها من الادلة المرضية التى تشير الى الانحراف النفسى ٠ كالشخص الذى يشعر بالكفاية كلما سلب الاخرين حقوقهم ٠ أو

(١) د٠ عبد العزيز القوصى : أسس الصحة النفسية ص ٦ ٠

بالسعادة الغامرة كلما فرض الذلة والعبودية على الغير ، ارضاء لغريزة السيطرة المتأججة فى نفسه • وقد يتوافر الاحساس الايجابى بالسعادة والكفاية عند مجرم ولا يتوافر عند بطل من الابطال .

فالتعريف أحالنا على سعادة أو كفاية ان صلحا أساسا للصحة النفسية لفرد ما ، صلحا أساسا لتعاسة وشقاء فرد آخر •

والادق من هذا أن يقال أن للصحة النفسية مفاهيم ومعان كثيرة لا يمكن الفراغ منها لكثرتها وهى تتعدد بتعدد واضعيها • ومنها ما هو سلبى ومنها ما هو ايجابى ، وهاك احدى تعاريف المفهوم الاخير :

المفهوم الايجابى (يأخذ طريقا ايجابيا واسعا شاملا غير محدود : انه يرتبط بقدرة الفرد على التوافق مع نفسه ومع المجتمع الذى يعيش فيه ، وهذا يؤدى به الى التمتع بحياة خالية من الاضطرابات ، مليئة بالتحمس وهو يرضى الفرد عن نفسه ، فلا يبدو منه ما يدل على عدم التوافق الاجتماعى كما لا يسلك سلوكا اجتماعيا شاذا ، بل يسلك سلوكا معقولا يدل على اتزانه الانفعالى والعاطفى والعقلى فى ظل مختلف المجالات وتحت تأثير جميع الظروف) (١) •

(ان هذا الشخص وأمثاله أسوياء لا محالة لانهم يتمتعون بقدر كاف من الصحة النفسية حيث يمكنهم أن يعيشوا فى وفاق وسلام مع أنفسهم من جهة ومع غيرهم فى محيط الاسرة أو العمل أو المجتمع الخارجى من جهة أخرى) (٢) •

وحتى هذا المفهوم الايجابى لم يحز القبول لدى علماء النفس ، لانه غير محدود • وقد توجه اليه نفس الاعتراضات السابقة ويزاد عليها : أنه لا يصح الربط بين خلو الحياة من الاضطرابات وبين الحماس ، ولا يصح أيضا أن يحكم على الشخص بانه سوى لمجرد انه يرضى عن نفسه .

فالبخيل راض عن نفسه والمجرم راض عن نفسه أحيانا ! ولا يصح أن يؤخذ عدم التوافق الاجتماعى دليلا على انحراف الصحة النفسية فقد يكون المجتمع منحرفا فى نقطة معينة فيصبح كل من يحاول اصلاح هذا العيب مريضا • ثم

---

(١) و (٢) د• مصطفى فهمى : الصحة النفسية فى الاسرة والمدرسة والمجتمع ص ٨ .

ان المجالات المشار اليها وكذلك الظر وفكلها نسبية لا يصح القياس عليها لانها تختلف بحسب الثقافات والشعوب ٠

بل يمكن دون تردد اعتبار جميع المصلحين الاجتماعيين او الاقتصاديين أو السياسيين أو العسكريين أو العلماء أو الفلاسفة يمكن اعتبارهم ـ بناء على تعاريف الصحة النفسية ـ مرضى ومنحرفين ، لانهم عاشوا فى حرب لا هوادة فيها مع المجتمعات التى انتموا اليها ! وهذا الرأى لا يوافق عليه أحد بدليل أن الامر ينتهى باعتراف الشعوب بفضل هؤلاء وتخليد ذكراهم ولو بعد مئات السنين ٠

ويذهب آخرون الى أن (الحياة الكاملة هى الحياة المنوعة والشخص السعيد هو الذى يقدر على اكتساب مرونة التغيير وسرعة التكيف) ٠

وينادى هؤلاء « بوجوب الخضوع للقواعد الثابتة التى تتضمن الحياة الانسانية كما هوالشان فى النبات » (١) أى أن الطمأنينة والراحة النفسية يمكن التماسها فى مجال الحياة الطبيعية ٠

ومدارس الطبيعيين لم تفعل شيئا لتفسير المشكل ولا لحله : كل ما هنالك أنها استبدلت تعبير الصحة النفسية بالحياة الطبيعية مع بقاء جميع الاعتراضات الموجهة كما هى بدون حل :

ما هى الحياة الطبيعية أولا بالنسبة للانسان ؟

وهل فى الامكان أن نخلق حياة طبيعية حتى نطالب الناس بأن يكونوا طبيعيين ؟

ان الراحة النفسية تختلف اشد الاختلاف من فرد الى آخر وهى ترتبط ارتباطا أساسيا بالعقيدة والمبادىء ، فهذا راحته النفسية فى الكفاح والجهاد ونصرة الحق ، وهذا راحته النفسية فى التطفل على الغير والتضليل والغش والتزوير ونشر الباطل ٠

لايمكن ان يبت احد بحكم نهائى فى الصحة النفسية الا اذا وضح مركز الانسان فى الوجود وبين الاسباب الحقيقية لسعادة الانسان ويترتب على

---

(١) د٠ أبو مدين الشافعى : الاطمئنان النفسى ـ ص ١٥٩ ٠

ذلك تفصيل القيم التى يراعيها كل فرد فى حياته النفسـية وحيـاته .. الاجتماعية .

ان الانسان اما أن يستمد وجوده من خالقه سبحانه وتعالى : وحينئذ يلتزم بالاداب والتكاليف التى جاءت بها الشرائع ·

وأما أن ينقطع عن الله تعالى ويركن الى المخلوقات ويحيط نفسه بوجود من عندياته يختلف نوعه بحسب الظروف والثقافات والعادات والتقاليد الخ · وكلما كان انقطاع الفرد عن الله عز وجل أشد كلما كان تعلقه بالاكوان أقوى ، فاذا ما كمل انقطاعه عن الله عز وجل كمل وجوده المزيف الذى حل محل ايمانه بالله تعالى · وأصبحت حياته عبارة عن سلسلة من الجرى المتصل المسعور وراء الابقاء والمحافظة على هذا الوجود الذى يربطه على الدوام بوجود وهمى فى الداخل وارتباط نسبى مع الموجودات فى الخارج · وبهذا الارتباط يحافظ الفرد على نفسه من الدخول فى دائرة العدم ·

ولذا نجد أن أمثال هؤلاء كلما فرغوا من شاغل هاجمهم القلق الوجودى ودفع بهم فى محاولات وجودية جديدة تنتشلهم من وهدة الفراغ — العدم — الذى يطاردهم · وهكذا لا يستقر بأحدهم قرار حتى تنتهى حياته ·

وقد حاولت الفلسفات الوجودية الالحادية فى القرنين ١٩ و٢٠ أن تحل هذا المشكل فأضافت محاولات جديدة للهروب من الايمان بالله تعالى ·

وهيهات أن يهرب المخلوق من خالقه ، والله من ورائهم محيط ، فلا ملجأ منه الا اليه ، ففروا الى الله ولا تفروا منه ، لانكم فى ورطة لا حل لها سوى الايمان الصحيح بالله عز وجل الا وهو الايمان المحمدى ، فلا حياة صحيحة بدونه لانه يتدفق من الوحى القرآنى اللانهائى ·

فالوجود ليس من صنع الانسان لانه لم يخلقه : ان الوجود الحق كله من الله عز وجل ·

فلا يحدد سعادة الانسان سوى كتاب الهى محيط بأسرار الوجود ومصير الموجودات وحقائق الكون كله ·

ولو كان الانسان خالقا لوجوده الذاتى كما زعم الملاحدة اذن لامكنه أن يخلق وجدا مثل وجوده : وهذا خلق الله فأرونى ماذا خلقتم من دونة ؟ !

لا نقول للملحد اذا كنت أنت قد أوجدت نفسك : فاخلق شبيها لك أو مثالا لك ٠ بل نقول له ، لماذا تحيا حياة كلها ضلال مبين وصراع مع النفس ؟ لماذا تعانى من البؤس والشقاء ؟ ولماذا تجرى وراء السعادة وانت تستطيع أن تخلقها ؟ وعلى ذكر السعادة : هل فى استطاعة مخلوق أن يسعد آخر ؟ فاذا كان الانسان يجرى وراء السعادة وهو لا يدرى أين هى ولا كيف يمنحها فعلام يتجبر ويدعى أنه يخلق نفسه !

ولو كان فى استطاعة الانسان أن يوجد نفسه لكان فى أمكانه أن يستبدل وجودا بوجود كلما بدا له ذلك ، ولما كان فى حاجة الى فلسفات اثر فلسفات يحاول بها أن يهتدى الى الحقيقة فيضيف فلسفة جديدة لا تحل من المشكل شيئا لانها لا تمس الحقيقة من بعيد أو قريب ٠

ان المخلوقات كلها لاتستطيع ان تخلق ذرة من عدم :

« **يايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ــ ٧٣ ٠ ما قدروا الله حق قدره : ان الله لقوى عزيز ــ ٧٤** » من سورة الحج ٠

هل هناك ابسط من بذرة الثمرة التى تلقيها بعد أن تأكل الثمرة ولا تلقى لها بالا ! لو اجتمع علماء الارض ومثلهم معهم لما استطاعوا أن يصنعوا بذرة مثلها نزرعها فتنبت شجرة مثمرة نأكل منها ثمرا جنيا ٠

« **أفرأيتم ما تحرثون ٦٣ ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ٦٤ ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ٦٥ انا لمغرمون ٦٦ بل نحن محرومون ٦٧ أفرأيتم الماء الذى تشربون ٦٨ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ٦٩ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ٧٠ أفرأيتم النار التى تورون ٧١ أأنتمأنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ٧٢** » سورة الواقعة ٠

حقا لقد ضل الانسان ضلالا بعيدا حينما اراد ان يؤسس قواعد وجوده على أساس انكار وجود الخالق أو على أساس ان الانسان خالق لوجوده النفسى ، وضل ضلالا بعيدا حينما نسى ايمانه بالله تعالى ونسى النور الذى أنزل لهداية العالمين ، وأخذ يلهث ليبحث عن الحقيقة وسط ضلالاته وأوهامه التى يعيشها ٠

ولم يجن من وراء ذلك سوى الاغراق فى الظلمات والامعان فى الفجور بدعوى العلم والبحث عن الحق بعيدا عن الحق ! وأى حقيقة وراء ترك الحق سوى الدمار والخراب الشامل للبشر والمسخ النفسى للانسانية !

ان وجود الانسان اذا ما انفصل عن وجود خالقه : دخل فى وجود من عندياته له نظرياته وآراؤه ومعتقداته التى تناسبه ٠

فالمحجوب المنقطع عن الله تعالى لا يمكنه أن يغفل عن ذكر الاكوان طرفة عين ولو مزقته اربا ، ويؤسس قيمه ومعاييره ونظرته للوجود على هذا الاساس مهما كان باطلا ٠

وبالعكس من المحجوب : نجد أن المؤمن الحق لا يطيق أن يغفل عن الله تعالى طرفة عين ، وان غفل شعر بالضيق والقلق يمزقه ولا يفرج عنه الا اذا عاد الى الحضور مع مولاه وتاب من غفلته ورجع عنها : قوام وجوده الروح القرآنى لايطيق الانحراف عنه ولو مزق اربا اربا ٠ وقد يسمع المحجوب عمن هذه حالته فيستبعد حصول ذلك لانسان ، والمسألة ليست بالعجيبة ولابالفريدة فى بابها ، وكما يعجب المحجوب من حال العارف ، يعجب العارف من حال المحجوب ويرثى له ويبذل جهده لينقذه من البلاء المحيط به ٠

فالوجود الحق والكمال الانسانى أساسه العلمى والعملى اتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم والتأديب بآداب دين واحد هو الاسلام واذ ختمت الرسالات بالرسالة المحمدية الخالدة فقد انسد باب الكمال ولم يبق سوى باب واحد فقط لايوجد سواه : هوباباتباع هدية صلوات الله وسلامه عليه فمن اهتدى به صلى الله عليه وسلم فقد سعد السعادة الكاملة .

فمن أحب الله تعالى وجب عليه أن يتبع الحبيب الاعظم صلى الله عليه وسلم ومن أطاع الله وجبت عليه طاعة امام الهداة صلوات الله وسلامه عليه ٠

ولا يؤمن المؤمن حتى يكون صلوات الله وسلامه عليه أحب اليه من نفسه وولده وماله والناس اجمعين فلا ينحرف عن الصراط المحمدى مهما لاقى من شدة أو مقاومة . واذا ما تمكن حبه صلوات الله وسلامه عليه من القلب دام حضوره مع الله سبحانه وتعالى وأصبحت الافعال كلها خالصة لله عز وجل ووصل الانسان الى السعادة الكاملة حينئذ .

فأساس كل بلاء هو الانقطاع عن الله تعالى ، والانسان اذا ما انقطع عن خالقه انغمس فى وجود من عندياته : وجود يتمثل فى أية شهوة نفسية كالجرى وراء الشهرة أو البحث عن المجد أو المال أو الجنس أو السلطة أو الرياسة أو أية شهوة حسية أو معنوية ويتحول الى شيطان فيما تخصص له وفيه ، ولا يزال يوغل فى الظلمات حتى يذوب وجوده فيها فلا يدرك نفسه بعقله ولا بحسه ، فهو كرجل منوم يسير تبعا لما تمليه عليه علاقاته بالاكوان ، التى احتجب وجوده الحق خلفها ، فيقضى العمر فى طلبه وما هو ببالغه ·

ولا نجاة له الا اذا حقق وجوده وخلصه من شوائب الحجب ورجع الى خالقه عز وجل ، فيهرب من وجوده الوهمى الذى صنعه ليضل فى متاهاته ويرجع الى مولاه عز وجل فلا يغفل عنه فى جميع لحظات وجوده ·

وقع لبعض العارفين أن ملكامن الملوك قال لهتمن على ؟ فقال له العارف الى تقول هذا ! ولى عبدان قد ملكتهما وملكاك وقهرتهما وقهراك !

فقال الملك وما هما ؟ **فأجاب** : هما الشهوة والحرص. فأنتعبد عبدى فكيف أتمنى عليك !!

والىهذا المعنى اشارالعارف الكبيرالسيد مصطفى بنكمال الدين البكرى فى ميميته :

عبيد ولكن الملوك عبيدهم   وعبدهم أضحى له الكون خادما

نستطيع من هذا البيان أن ندرك معنى الصحة النفسية عند العارفين بالله تعالى ·

فالعارفون يقيسون الصحة النفسية بمقدار مبادرة النفس الى اتباعه صلوات الله وسلامه عليه فى جميع شئون الحياة ، ولا يتحقق الاخلاص لله عز وجل الا بهذا الشرط ·

ومن انحرف عن النهج المحمدى كان من الحتم المقضى أن يغرق فى لجج الشواغل والدواعى التى تدعوه الى الاعراض عن الحق سبحانه ، ومثل هذالا نصيب له فى أى مقام من مقامات أهل السعادة الدائمة الخالدة · فمن ينابيع الشريعة المحمدية تتفجر السعادة الكاملة التى لا يشوبها ، ولا يعتريها نقص :

فهى التى تشرح الصدر للايمان ، وتملا القلب باليقين ، وتكشف عن البصيرة الغشاوة التى تحول بينها وبين المشاهدة ، وتزيل عن السمع هذا الوقر الذى يصمه عن سماع كلام الله سبحانه ، وتفتح للنفس ابواب العروج فى مقامات أهل الايمان ، وتقلب المؤمنين فى أحوال المحبة والشوق والانس بالله والخشية والحياء منه تعالى ، وتخلع عليهم حلل شعب الايمان التى تقتضيها الاسماء الحسنى والصفات القدسية فيتحقق اقبالهم الكلى على خالقهم ولا يطيق أحدهم صحبة شىء يحجبوجوده عن موجده، فهو يترقى فى معارج الكمال الى مالا نهاية ٠

التربية الصوفية مؤسسة على أرقى ما وصل اليه الانسان فى علوم النفس والتربية والأخلاق

عرف بعض التربويين العملية التربوية بأنها (ذلك التأثير المقصود الذى يأتى عن طريق تسليط مؤثرات وقوى ثقافية مقصودة على التعاليم والقيم والاتجاهات التى يكتسبها الافراد خلال عملية التطبيع الثقافى ، وان هذا التأثير يعدل فى الشخصية فى اتجاه معين وهو اتجاه القدرة المتزايدة على السلوك الاجتماعى المستنير ((١) ٠

ويختلف تعريف التربية باختلاف وجهة نظر الباحث : (فطالب علم البيولوجيا قد يعرفها بأنها عملية تكيف الفرد وملاءمته للبيئة ، وطالب علم النفس قد يرى انها وطرق التعلم صنوان ٠٠ على أن طالب علم الاجتماع التربوى قد يرى أن كل هذه الوظائف تدخل فى صميم عملية التربية ومن ثم فهو يعطينا تعريفا شاملا لها : فهى عنده عملية التفاعل والتكيف الموجه توجيها شعوريا والتى يحدث عن طريقها تغيرات فى سلوك الفرد ، وبالتالى تغيرات فى سلوك الجماعة التى ينتمى اليها هذا الفرد ، كما أنها عملية اكتساب المهارات المختلفة التى تساعد الفرد على تعديل الخبرات الانسانية وتعديل بيئته بما يتفق واشباع حاجاته المتغيرة فى بيئته المتغيرة) (٢) ٠

وبناء على ذلك لا يمكن تحديد أى عملية تربوية بعيدا عن الوسط الثقافى والطبيعة الانسانية ومعايير السلوك ٠ كما أنه يتوقف على نجاح العملية التربوية صلاحية القيادات المنبثقة عنها ٠

فالتربية ترتبط ارتباطا كليا بالقيم والعلاقات الانسانية وتكوين العواطف والخلق ٠ ولا شك أن هذا كله يتوقف على معرفة الخير والشر والفضيلة والرذيلة والحق والباطل : والا لما صحت قيمة ، ولما اعتدل خلق ولما صحت علاقة بين اثنين ٠

---

(١) د٠ صادق سمعان : الفلسفة والتربية ص ١٤٥ ٠ ط ١٩٦٢ ٠

(٢) د٠ محمد الهادى عفيفى : التربية والمجتمع ضمن كتاب مفاهيم حديدة فى التربية ص ٣٨ ٠

ولما أن تقرير الخير النهائى والشر النهائى ليس فى مقدور البشر اذ من يقرر ذلك يجب أن يكون محيطا بأسرار الوجود وحقائقه ، ولما أن كل تقرير بشرى فى هذا الموضوع انما هو تقرير نسبى يصلح للصواب وللخطأ على حد سواء ويتغير بتغير الثقافة والبيئة والفرد والمجتمع ، ويختلف باختلاف الزمان والمكان ·

فان القيم لا تكون ثابتة ولا صحيحة الا اذا كا نت صادرة عن الوحى الالهى : عن كلام الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه · فالقيم ، والخير النهائى وما يتصل بها ترتبط ارتباطا لا انفصام له بالايمان بالله عز وجل ·

ولكن المدارس الاخلاقية حاولت أن تحل المشكلة الاخلاقية بعيدا عن الوحى وتأثرت فى ذلك بالعلوم الطبيعية ، وأخذت تتجه اتجاها يخضع الاخلاق للملاحظة والتجربة ، وفى نفس الوقت عجزت مدارس ما وراء الطبيعة عن تقديم تفسيرات للاخلاق تقاوم النقد العلمى الصحيح ، مما أدى الى التشكيك فى قيمة علم الاخلاق بل ان هذه القيمة أصبحت لا تستطيع النهوض أمام مناقشة علم النفس الذى أخذ يحل محل علم الاخلاق ·

يصح أن يوصف القرن العشرين بانه قرن علم النفس فى ميادين العلوم الانسانية كما يسمى بالقرن الذرى فى ميادين العلوم الطبيعية ·

ففى هذا القرن تفرع علم النفس وتشعب الى عشرات العلوم. مثل علم النفس الفردى والنظرى والتجريبى والتطبيقى والتكاملى والسلوكى والصناعى والادارى والسياسى والحربى والاقتصادى والتجارى والاعلامى والاجتماعى والتربوى والنفسجسمى ، وعلم نفسية الطفل ، وعلوم الصحة النفسية والامراض النفسية ، والشواذ والاجرام ودخلت الدراسات النفسية فى كل مجال من مجالات النشاط الانسانى ·

وهذا ما جعل الدراسات التربوية تلوى عنانها عن متاهات علم الاخلاق وتنصرف كلبا الى بناء دعائمها على اسس علم النفس الذى جذبها منذ ظهوره الى ميادينه البراقة ، وانتهى هذا الاتجاه بالتربية الى قرار لا مفر منه وهو فصل الاخلاق عن التربية ·

وحاول العلماء اخضاع النفس البشرية لما تخضع له موضوعات العلوم الطبيعة وبذلوا ما فى وسعهم لاستخلاص القوانين التى تتحكم فى الانســان عن طريق ملاحظة الظواهر النفسية : واخذ علم الاخلاق يضمر وينكمش فى كل منطقة غزاها علم النفس ٠

ولم يكن هناك مفر أمام علم النفس الحديث من أن :

١) ينكر وجود أى دراسة مبنية على وجود الروح لانها لا يمكن أن تخضع للملاحظة والتجربة العملية ٠ وأخذ علم النفس الحديث يتلمس الادلة التى تنكر وجود الروح فى محاولات العلماء الطبيعيين الذين يفسرون الحياة تفسيرا ذاتيا ليتوصلوا الى انكار وجود الخالق سبحانه ٠

ب) لم يكن هناك مناص من الاتجاه نحو تفسير السلوك تفسيرا ماديا لا دخل للاخلاق ولا للدين فيه ٠

ج) استبعدت معظم المدارس النفسية وجود الشعور من مجال الدراسات النفسية (فالواقع كله يتألف بحسب هذه الفكرة من عناصر موضوعية هى التى تقيم منها الفيزياء عالمنا ومن ثم يكون العالم الداخلى مستبعدا من الواقع) ٠

فالمدارس السلوكية درست سلوك الانسان دراسة آلية مستبعدة العقل والشعور ، والغت أثر العوامل النفسية الباطنة كالارادة والنزوع والتفكير فى الافعال والنتائج : فالكائن الحى لا تحركه عوامل ودوافع داخلية بل منبهات خارجية ٠ وميز آخرون بين نوعين من السلوك ليخرجوا من هذه الورطة : السلوك العقلى او الراقى ويقصدون به الافعال المتصلة بالحياة النفسية او العقلية ، والسلوك الالى ويعنون به ردود الافعال الصادرة عن الانسان بطريقة الية ٠

فالمدارس المعترفة بوجود الشعور تأثرت باتجاهات العلم الطبيعى الى درجة تجعلها لاتسمح بتدخل الشعور فى أية دراسة علمية جادة، اذ لايمكنها أن تصل الى نتائج علمية مبنية على حياة تأملية باطنية ٠

وكان من المنتظر ان تسير المدارس النفسية فى اتجاه واحد لانها تعالج موضوعا واحدا وهو النفس ولكنها وبالرغم من دعوتها الصادقة الى التكامل

نجد أنها غير متكاملة فيما بينها وكل مدرسة منها تنقض ما ادعته اختها .

حتى أن مدرسة نظرية الجشطلت (Gestalttheorie) أخذت تعيد بناء العلوم النفسية من جديد على اساس منهج التفكير (الفينومينولوجى) أى التحليل الكيفى لا الكمى للخبرة ، ورفضت قبول الثنائية الروحية المادية للانسان ، ولم تقبل قواعد المدارس المادية أساسا للتفسيرات النفسية اذ أنها « تؤكد استحالة تفسير التكيف عن طريق الصدفة ، والغائية عن طريق الميكانيزمات ، والنظام عن طريق الفوضى ، ناهيك عن استحالة تفسير الافعال الذكية عن طريق مجموعة من الافعال المنعكسة ، والفكر المنطقى عن طريق ترابطات خارجية · فالمذاهب المعاصرة بعدما استبعدت من حيث المبدأ فكرة النظام من العالم الفيزيائى وفكرة التكيف من العالم البيولوجى لم تستطع أن تقيمهما الا على الصدفة » (١) ·

ويمكننا أن نلمس هذا الاضطراب فى الاتجاهات النهائية لعلوم النفس فى الثغرات الاتية :

١ ـ ان الابحاث النفسية حرصت كل الحرص على استبعاد كل ما يمس اثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى مما أجبر الباحثين على احالة العلم على الفاظ غير محدودة المعانى لا يدرى من وضعها معانيها النهائية وهذا فى الواقع هروب سافر من الحقيقة : اذ أن كل حركة ادعت العلم وقصد بها تفسير الحياة تفسيرا ذاتيا قد فشلت فشلا ذريعا · بل كلما توغل العلم فى تفسير الحياة كلما قدم أدلة جديدة تزيد الناس ايمانا بوجود الخالق عز وجل ، فلا حياة بدون خالق ولا يزداد الكافرون الا خسارا ·

والالتجاء الى حذف كل ما يمس وجود الخالق سبحانه وتعالى مرجعـه الالحاد والكفر والجهلبالوجود أو لتحاشى الاتهام بالايمانية fedeism يعنى الاتصال بالدين والخروج عن المنهج العلمى الموضوعى · مع أن مجرد أى فكرة الحادية هى عين الخروج عنكل منهج علمى ، والواقع ان هؤلاء مصابون بمرض « الحساسية الايمانية » · الذى جعلهم لا يطيقون الحضور مع الله تعالى بوجه من الوجوه ·

---

(١) Paul Guillaume : Psychologie de la Forme :
ترجمة د· صلاح مخيمر ـ د· عبده ميخائيل رزق بعنوان علم نفس الجشطلت ص ٢٧٨/٢٧٩ ·

٢ ـ عجز العلماء عجزا مطلقا أمام لغز الروح الانسانى وصلته بالجسم مما اجبرهم على تجاهل الروح بحجة عدم الاعتراف بوجود ثنائية روحية مادية للانسان . وهذا العجز لا يبرر عدم وجود الروح التى يثبت وجودها :

ا) الحياة الباطنية للانسان .

ب) العقل الانسانى .

ج) الظاهرات الروحية للانسان .

د) ان تفسير حياة الانسان لا يمكن أن يكتمل الا بالاعتراف بوجود الروح . فالتخلص من وجود الروح لم يكن مصدره الدليل العلمى ولكنه العجز عن دراسة الروح لوقوعها فى ميدان بعيد عن متناول العلم (وماأوتيتم من العلم الا قليلا) والثنائية المزعومة التى خشيها العلماء انما هى ثنائية وهمية مردها العجز عن تفسير علاقة الروح بالجسم ، فهى قضية افتراضية لا علمية .

٣ ـ ان الظواهر النفســـية باعتراف جميع العلماء لايمكن ان تخضـــع للتفسير ولا للقياس الموحد ولا للتجربة لشدة تعقيدها .

ومع تشعب العلوم النفسية وازدياد تخصص كل فرع من فروعها وقفت النفس البشرية شامخة أمام ابحاث العلماء وراء ضباب من الالغاز التى لا يدعى احد أنه اخترقها ، وبقيت بمعزل عن جميع الابحاث التى لم تفلح الا فى بحث الظاهرات النفسية لا غير : وهذه معرفة هامشية مجردة من كل عمق لانها قاصرة على ظاهرات معينة مرتبطة بظروف نفسية معينة لا يصلح تعميمها .

ولا يستطيع عالم له وزن أن يدعى أنه قد تمكن من معرفة ماهية النفس أو الروح او العقل وان يحدد صلة وجود الانسان بهذه الاسماء .

ولقد حاول العلماء الماديون أن يوجهوا ضربة قاضية الى الاديان والعقائد : وبالتالى الى الايمان بوجود الله عز وجل فحاولوا بكل امكانياتهم أن يخلقوا الحياة فى ابسط صورها ولو فى خلية النواة ولكنهم انقلبوا خاسئين صاغرين وبقى سر الحياة والوجود بعيدا عن متناول المخابر والمجاهر والمعامل ينادى بلسان الحال (قتل الانسان ما اكفره) .

وبعد : فان بديهيات المنهج العلمى تقتضى بحث موضوع النفس مرتبطا بالخالق سبحانه وتعالى ولكن بعض الباحثين يحلو له أن يسمى الخروج على

الايمان الحق بالله تعالى منهجا علميا ! وهكذا فقد علم النفس أهم أسسه وهو ارتباط الانسان بخالقه سبحانه ٠

حقا ما أضعف الانسان ! ان عجزه عن معرفة نفسه لهو العجز المطلق ٠

ان سر النفس لا ينكشف الا بمقدار فهم الانسان فى كتاب الله عز وجل ، ففيه أسرار الحياة والوجود كما بينه صلوات الله وسلامه عليه : فالنفس البشرية لا تعرف الا على ضوء الايمان القرآنى وبيانه المحمدى وهنا تبدو فى أجلى صورها ومعانيها فى جميع مستوياتها ٠

فالتربية الصوفية انما نجحت فيما لم ينجح فيه سواها لانها اهتدت بنور الوحى المحمدى حين طبقت أقصى ما وصل اليه العلم فى ميادين التربية والنفس والاخلاق : انها تربية نابعة من مصدرين خالدين الكتاب والسنة فأخلق بها أن تهدى الى الحق فى مناهجها ووسائلها وغاياتها ٠

والصوفية لم يخترعوا هذا المنهج بل لقد عملوا بالشريعة التى ربطت ربطا تاما وكاملا بين معرفة النفس والتربية والاخلاق والمعاملات والعلاقات الانسانية وبين الايمان ٠ فجعلت النفس دليلا لمعرفة الله عز وجل ، (وفى انفسكم أفلا تبصرون) ـ ٢١ ـ سورة الذاريات ٠

ومما تواتر بين الصوفية (من عرف نفسه فقد عرف ربه) (١) ٠

وما دخل الكفر والنفاق على الانسان ، ومادخل الفساد والبغى على البشر مثلما دخله من باب جهلهم بأحوال النفس وحقيقتها ٠

(ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ١٧٩ ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ـ ١٨٠) سورة الاعراف ٠

---

(١) قال أبو المظفر السمعانى هو مما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازى يعنى من قوله ٠ وقال الامام النووى : ليس بثابت قال ابن الغرس لكن كتب الصوفية مشحونة به يسوقونه مساق الحديث ٠ وللحافظ السيوطى فيه تأليف سماه « القول الاتسبه فى حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه » وهو ضمن كتابه الحاوى للفتاوى ـ والذى فى أدب الدنيا والدين للماوردى عن عائشه رضى الله تعالى عنها سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أعرف الناس بربه ؟ قال : أعرفهم بنفسه ٠

هؤلاء قد انسدت جميع منافذ المعرفة عندهم فانحطوا الى درجة أضل من درجة الانعام · ولو تأملوا الحقيقة واستخدموا ما وهبهم الله تعالى من آيات لمعرفتها اذن لاعتصموا بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها · وما رأينا قوما جهلوا أسرار وجودهم وحقيقة أنفسهم الا وهم فى أحط درك من مستويات الوجود الانسانى الحق · وما أوتى قوم من الحضارة الا بقدر المامهم بشئون النفس وأحوالهم واسباب صحتها وعوامل انحطاطها وفسادها .ليعرف كل فرد ماله من حقوق وما عليه من واجبات ·

فواذل من تردى فى عبادة الهوى وظن أنه على يقين من ربه !

وياتعاسة من انطمست مرآة وجوده فلم يشهد بها آيات خالقه ·

ومن شأن الجهل بالنفس أن يقود الى الاغراق فى حب الشهوات من الرياسة والعلو والسيطرة وفرض الوجود على الغير ، وان يضع الجاهل موازين لهذه الامور يقيس بها مودة الناس له وصدقهم وحبهم واخلاصهم له فيكافىء ويعاقب عليها ويعيش مخدوعا ضالا مضلا فاتنا مفتونا ، منقطع الاسباب عن خالقه تعالى. لا يدرى من الوجود سوى الابعاد التى حددتها له خيالاته ومفاهيمه الخاصة ، ويناصب كل من دعاه الى الحق العداء ·

والتربية الصوفية تقرر قابلية الاخلاق والسلوك للتعديل عند الفرد ، ولذا تدعو الى مجاهدة النفس لابقصد استئصال الغرائز كما يظن البعض، وانما لتطويعها حتى توافق الشرع فى الاوامر والنواهى والعلاقات الانسانية، وبذا يتفتح أمام الانسان مجال الارتقاء الدائم فى معارج الكمال لحضور القلب فى كل لحظة أو فكرة أو شعور مع الخالق سبحانه وهذا هو السبيل القويم لتكامل شخصية الانسان ·

(وعلى ضوء علم النفس الحديث وعلى هدى المذاهب العلمية التربوية يجب أن ننظر الى الفناء الصوفى على أنه منهج للكمال والتسامى لا يطاوله غيره ولا يغنى عنه سواه ·

(انه فناء المشاعر والرغبات الارضية فى شىء أكبر وأعظم من المثل الاعلى المصطلح عليه تربويا · انه فناء هوى النفوس وشهواتها وعواطفها وكل ما تحب فيما يحبه الله ويريده ويأمر به ليعيش الصوفى متخلقا بخلق الله أو كما

يقول الامام الجنيد : « فتكون كل حركاته فى موافقة الحق دون مخالفاته ، فيكون فانيا عن المخالفات ، باقيا فى الموافقات » ٠

(انه اذن استبدال خلق بشرى بخلق ربانى وذلك ارتفاع بالبشرية لا نعرفه ولا تعرفه الدنيا لغير الصوفية الاسلامية ٠

(فالفناء الصوفى ليس فناء جسد فى جسد ولا فناء روح فى روح : انه فناء ارادة فى ارادة ، وفناء أخلاق فى أخلاق، وصفات فى صفات، أو كما يقول الصوفية : « فانيا عن أوصافه . باقيا بأوصاف الحق » ، انه لتصعيد للكمال : تصعيد تخفق أجنحته فى أفق قدسى علوى ثم تخفق صاعدة حتى تنـــــال شرف التخلق بأخلاق الصفات الالهية ٠ وهذا الفناء هو الذى عبر عنه الحديث النبوى « **تخلقوا بأخلاق الله** » وصورة الحديث القدسى « **كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبص ربه !** » ، وبهذا الفناء يحس الصوفى احساس ذوق ووجدان وقلب وروح باذن الله سبحانه معه وفى ضميره وحركاته وكلماته)(١) .

والشريعة لا تقف من الاخلاق موقف الواعظ الناصح ، ان شاء المؤمن أخذ منها وان شاء أعرض ! كما يظن من يدعى الاسلام ولا يفهم حقائقه وقواعده ٠ ذلك لان الاخلاق القرآنية تتوقف عليها صحة الايمان ، وحين يعجز أى مسلم عن العمل بالخلق القرآنى ، فانه يسلك سبيل الردة عن دين الله تعالى شاء أم أبى ٠ ذلك لانه لا قيام للدين بدونها ، ولا يصح الايمان الا بها : فقد نص الحديث على أن (**الايمان بضع وسبعون شعبة أفضلها لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان** (رواه الشيخان وأبو داود والنسائى . فما آمن من أخذ بأسباب الكفر واكتفى باثبات ايمانه باللسان ، وما آمن من نطق فمه بعبارات الايمان وقلبه لا يهوى الا أقوال المنافقين وأحوالهم ، ما آمن من هربت نفسه من أحكام الشريعة واستحلت مراعى الضلال والكفر ٠ (**ياأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم** (من الاية ٤١ من سورة المائدة ٠

وقد أفرد الامام الكبير الحافظ البيهقى مؤلفا خاصا جمع فيه أصول « شعب الايمان » وعنونه بهذا العنوان وهو فى ستة مجلدات مخطوطة فى دار الكتب العامة ٠

---

(١) مقدمة التعرف لمذهب اهل للتصوف ـ ص ٣/٢ ٠

ونذكر من هذه الشعب :

حب الله تعالى وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يحب المرء لا يحبه الا لله « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله تعالى وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن انقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار !** » رواه الستة ماعدا الموطأ ، ورواه الامام أحمد ٠

« **والذى نفسى بيــده لا تدخلوا الجنــة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا** » ٠

ومن علامة حب الله تعالى أن يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهتدى بهديه فى كل أمر (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ـ ٣١ قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين ـ ٣٢) سورة آل عمران ٠

وقد أرشدنا صلوات الله وسلامه عليه الى السبيل الحق لاكتمال هذه الشعبة لننجو فى الدنيا والاخرة فقال صلوات الله وسلامه عليه « **لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين** » ٠

قال تعالى : (**قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين**) سورة التوبة ـ ٢٤ ٠

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول أحد منهم على قوله صلى الله عليه وسلم أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله او معاملة أحدهم على معاملة الله ورسوله فهو ليس من الذين كان الله ورسوله أحب اليهم من سواهما ٠

ومن شروط الايمان تقديم قوله صلى الله عليه وسلم على كل مخلوق (**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ـ ٦٥) سورة النساء ٠

فسلب اسم الايمان عمن وجد فى نفسه حرجا من قضائه صلى الله عليه وسلم ، قال تاج الدين بن عطا الله «فى هذه الاية دلالة على أن الايمان الحقيقى لا يحصل الا لمن حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على نفسه قولا وفعلا وأخذا وتركا وحبا وبغضا » مع الكامل بأحكامه صلوات الله وسلامه عليه .

وفى الاية الكريمة من الاعجاز أنه صلوات الله وسلامه عليه : وهو المبلغ لما أمره الله والمنزل عليه كلام الله تعلى ، والمبين للعالمين آيات التنزيل : **انما هو تبعا لماجئت به)** ثم حذرنا من الانحراف وعواقبه فقال صلى الله عليه فمن لم يعرض بحكمه صلىالله عليه وسلم فقد تجرد من نور الايمان ، وسقط على أم رأسه تهوى به الشياطين فى مهاوى الخسران والضلال .

ولشدة رحمته صلى الله عليه وسلم بالامة نبه فى الحديث بعد الحديث الى مراعاة نفى الحرج أو الضيق فى كل ما أمر به ولا يتم ذلك الا اذا كانت المتابعة وكان الاقتداء عن رضا نفس وحب فى الله (**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)** ثم حذرنا من الانحراف وعواقبه فقال صلى الله عليه وسلم (**من رغب عن سنتى فليس منى)** رواه مسلم .

هذا هو الحب العام الشامل الذى يسعد به البشر دنيا وأخرى ، وهو أصل من أصول الايمان فلا يصح الا به ، أما هذا الذى يسرح ويمرح كيفما وحيثما سولت له نفسه وزين له الهوى ثم يدعى الايمان فهومدع ما ليس فيه :

تعصى الاله وأنت تظهر حبه ... هذا محال فى الفعال شنيع
لو كان حبك صادقا لاطعته ... ان المحب لمن يحب مطيع

ومن شعب الايمان :

الايمان بوجوب الخوف من الله عز وجل (**فلاتخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين)** ١٧٥ سورة آل عمران .

وعن بعض العلماء « خوفوا المؤمنين بالله . والمنافقين بالسلطان . والمرائين بالناس » .

ومنه الايمان بوجوب التوكل على الله تعالى : **(وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين (** ــ من الاية ٢٣ سورة المائدة (**ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله**

واليوم الاخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ــ ٢ ــ ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا ــ ٣) سورة الطلاق ٠

ومن الاخلاق الملازمة للايمان المصاحبة له :

الحياء ، وهو شعبة من الايمان ٠

ومعناه أن تستحى من الله عز وجل ٠ فلا تأتى محارمه أو تستعمل نعمه فى معصيته ٠

ومنها اخلاص العمل لله عز وجل :

أما هذا الذى يكون الدافع له الى العمل هو المصلحة الذاتية فان أعماله تكون صالحة لاكبر الضرر بل قد تدمر من الوجه الذى يرجى منه النفع ، وأخف الاضرار أن أمثال هؤلاء لا ينفكون عن مطالبة المجتمع بثمن خدماتهم ولا يشبعون من مكافأة ، ولا يزال الانسان يحتجب بمصالحه الذاتية عن ارادة وجه الله تعالى حتى ينقطع عن الله عز وجل ويحتجب بنفسه وكفاه بذلك خسرانا مبينا : « **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ــ ١٨ ومن أراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ــ ١٩** » سورة الاسراء ٠

« **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ــ ١٥ ــ أولئك الذين ليس لهم فى الاخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ــ ١٦** » سورة هود عليه السلام .

وفى الحديث القدسى : « **انا اغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فانا منه برىء وهو للذى أشرك** » رواه مسلم ٠

ومنها الامانة :

فالمؤمن من امنه الناس « **ولا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لاعهد له** » رواه أبو يعلى والبيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه . وبلفظ آخر عن الطبرانى فى الاوسط عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ٠

ومنها الرحمة :

وفى الحديث « **ما نزعت الرحمة الا من شقى** » رواه الحاكم والبخارى فى الادب وأبو داود والترمذى ٠

« **من لا يرحم الناس لا يرحمه الله** » رواه مسلم عن جرير بن عبد الله رضى الله تعالى عنه ٠

ومنها الوفاء بالعهد :

« **والذين ينقضون عهدالله من بعد ميثاقه ويقطعون مأأمر الله به أنيوصل ويفسدون فى الارض أولئك لهماللعنة ولهم سوءالدار — ٢٥** » سورة الرعد

وفى الحديث « **حسن العهد من الايمان** » رواه الحاكم والديلمى وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ٠ والعهد فى الحديث يشمل المراعاة واليمين والامان والموثق والذمة والوصية والحفظ ٠

ومن الوفاء بالعهد بذل الجهد فى النصح :

جاء فى الحديث « **ان الدين النصيحة ٠ ان الدين النصيحة ٠ ان الدين النصيحة ٠ قيل لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » ٠

رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن تميم الدارى والترمذى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنهم ٠

ومن شعب الايمان : دوام التوبة ٠ وطلب العلم الذى تصح به الاعمال دنيا وآخرة وهو الذى يورث التقوى والخشية والمعرفة ٠

جاء فى الحديث « **الطهور شطر الايمان** » رواه مسلم ٠

ومن العار أن ينظف الانسان ظاهره ، وباطنه ملطخ بالاوحال :

ما بال دينك ترضى أن تدنسه ... وان ثوبك مغسول من الدنس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... ان السفينة لا تجرى على اليبس

ومن الشعب المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية :

صلة الرحم :

من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليصل رحمه ٠

قال تعالى : « **فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم — ٢٢** « **أولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم — ٢٣** » **سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ٠**

المحافظة على حقوق الجار :وقد جاء فى الحديث

« **من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليحسن الى جاره** ! ٠

« **لا يبلغ أحد حقيقة الايمان حتى يامن جاره بوائقه** » ٠

« والله لا يؤمن والله لا يؤمن من بات وجاره جوعان » ٠

المحافظة على حقوق الغير :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » رواه البخارى ٠

اكرام الضيف :

« ومن كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليكرم ضيفه ! ٠

قول المعروف :

« ومن كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليقل خيرا أو ليسكت »من حديث رواه الامام أحمد والشيحان والترمذى ٠

المحافظة على الدماء والاموال :

ففى الحديث « **قتال المسلم اخاه كفر وسبابه فسوق** » اخرجه الترمذى والنسائى وأخرجه الامام أحمد وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير واللفظ له « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر وحرمة ماله كحرمة دمه » ٠

قال تعالى : « **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما** ــ ٣٩ » سورة النساء ٠

ومنها المحافظة على الاعراض :

« **لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ٠ ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ٠ ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن** »رواه الشيخان ٠

ومنها الامر بالمعروف والنهى عن المنكر :

عن مالك بن دينار أنه قرأ هذه الاية « **وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض ولا يصلحون** ــ ٤٨ » سورة النمل ٠ فقال : « فأما اليوم ففى كل قبيلة وحى رهط من الذين يفسدون فى الارض ، ولا ينهى بعضنا بعضا ، ولا يذرنا الله تعالى على هذا ، فليت شعرى أى عذاب ينزل » !

ومنها الجهاد فى سبيل الله تعالى :

قال تعالى : « **يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم** » من الاية ٥٤ سورة المائدة ٠

وفى الحديث « **ما ترك قوم الجهاد فى سبيل الله الا أذلهم الله** » ٠

« **من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق** » ٠ رواه مسلم ٠

« **لغدوة فى سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها** رواه الشيخان والامام أحمد وغيرهم ، وعده الامام السيوطى من المتواتر ·

ومنها المحافظة على الدين وعدم الخروج على الجماعة :

ففى الحديث « **من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاســـلام من عنقه** » ·

والمراد بالجماعة الطائفة المستمسكة بكتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

وهى الطائفة التى لا تزال قائمة على الحق حتى يأتى أمر الله لا يخشون فى الله لومة لائم لا يضرهم من خالفهم ·

« **ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا** » سورة النساء ـــ ١١٥

ومن شعب الايمان : ماهو مرتبط بالتخلى عن أسباب الكفر والنفاق ومنها :

عدم اتخاذ المستهزئين بالدين أولياء من دون الله تعالى والمؤمنين :

« **لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئـــك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، الا أن حزب الله هـــم المفلحون** ـ ٢٢ » سورة المجادلة ·

« **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين** » سورة المائدة ـ ٥٧ ·

وقال تعالى : « **ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لايهدى القوم الظالمين** » سورة المائدة ـ ٥١ ·

ومنها البراءة من الظلم :

وفى الحديث القدسى « **ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا** » الحديث . رواه مسلم والترمذى وابن ماجة ، وقد جاء أن « **دعوة المظلوم وان كان كافرا ليس دونها حجاب** » رواه الامام أحمد ·

ويشمل هذا الخلق الاخذ على يد الظالم وتجريده من كل عون ففى الحديث « **من أعان ظالما بباطل ليدحض به حقا فقد برئ من الله ورسوله** » رواه الطبرانى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ·

ومن الاخلاق الموجبة للنفاق والتى يجب الطهارة منها : الكذب والغدر والخلف والفجور : فقد جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها اذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا وعد أخلف واذا خاصم فجر** » . أخرجه الامام أحمد وأبو داود والنسائى والترمذى والبخارى ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما ·

ومن الاخلاق المنافية للايمان :

الغش · فقد جاء فى الحديث المتواتر « **من غشنا فليس منا** ! » ·

ويسرى ذلك علىجميع أنواع الغش وأشدها غشالراعى للرعية « **ما من عبد يسترعيه الله عز وجل رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته الا حرم الله عليه الجنة** » رواه الشيخان · وكل انسان راع فى مستواه « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** » رواه الشيخان وغيرهما ·

ومنها البراءة من الكبر :

« **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر** » رواه مسلم ·

وفى الحديث القدسى : « **الكبرياء ردائى ، والعظمة ازارى ، فمن نازعنى ردائى قصمته** » وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ·

ومن الاخلاق التى يتبرأ منها المؤمن :

البخل وسوءالخلق « **خصلتان لاتجتمعان فى مؤمن : البخلوسوءالخلق** » رواه الترمذى · ومنها الفحش « **ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذئ** » رواه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه ·

ومنها الحسد « ليس منى ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة » رواه الطبرانى · وليس من الايمان تخبيب (افساد) المرء الزوجة على زوجها ، او احتقار العالم ، او عدم أداء حقوق الغير « ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » رواه الامام احمد والترمذى عن عبادة بن الصامت .

فالايمان يرتبط ارتباطا كاملا بالاخلاق ، وقد نص الحديث المتواتر على أن « أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا » ·

ولا يمكن ان يكون المجتمع كاملا ما لم تدر فيه العلاقات الانسانية حول محور شعب الايمان · اذ يكون مصدر الالزام الخلقى هو الايمان بالله تعالى طبقا للوحى القرآنى ألاسمى ومن هذا الفيض اللانهائى تتولد جميع الكمالات الانسانية الحقة · وما عدا ذلك من المجتمعات فانها تسير طبقا للعلاقات البشرية التى تفرضها وسائل الضبط الاجتماعى بغض النظر عما تسببه من صلاح أو فساد · والبون شاسع ما بين النوعين : فالمجتمع الاول مبنى على معرفته تعالى ومعرفة صفاته القدسية وأسمائه الحسنى وما تقتضيه هذه المعرفة من ايمان يلزم النفس بمراعاة الاداب العليا مع الحضرة الالهية فى كل وقت وحال ، وبدون هذا الايمان الملزم لا يثبت للانسان قدم فى المعرفة الحقة بأحوال النفس البشرية : فهو النور الاعظم الذى يسلطه المؤمن على عالمه النفسى فيكشف له كل ما فيه من مكامن الهوى وغوائل الشهوة وخبايا الرذيلة وخفايا الشر المدمر ليكون دائما على بصيرة من امرهم ، وهو المرشد الذى يهدى صاحبه الى سبل السلام والخير ويجنبه كل ما يؤدى الى الشر ، وهو الطاقة التى تولد فى الانسان قوة متجددة خارقة لا حدود لها ، وهى قوة تتجه بالمؤمن فى ثقة واطمئنان نحو الكمال اللا متناهى ·

أما المجتمع الثانى فيرجع الالزام فيه الى العادات والتقاليد والعقائد الوضعية فهو يتحرك داخل ابعاد تتسع وتضيق وتتغير وتنقلب طبقا للمصطلحات التى وضعها البشر ، وهذا هو السر فى تضارب المدارس الخلقية وتعددها حيث لا ينبغى التضارب أو التعدد ، وهو السبب فى ضعف بواعث الخير فى هذه المجتمعات مهما بلغت من مظاهر الرقى ·

حكم التصوف شرعا

حكمه من وجه أنه علم معرفة النفوس وتهذيبها وعلاج أمراضها ، وتربية الانسان وتكميله وتنشئته على مكارم الاخلاق والتنزه عن سفاسفها حكمه أنه واجب وتركه حرام ·

ذلك لان نجاة الانسان فى الدنيا والاخرة انما تتوقف على مجاهدته لنفسه وتزكيته لها وتطهيره اياها وتحليتها بالاخلاق الحمدية وتخليتها من كل ما هو

مذموم ليتخلص الانسان من كل حجاب يحجبه عن خالقه وتكون سعادته فى الاقبال عليه تعالى فى جميع الشئون الظاهرة والباطنة وكل ما توقفت عليه نجاة المرء فى دنياه وآخرته فحكم الله فيه أنه واجب وتركه حرام « وقد صرح بذلك الامام ابن حجر فى كتابه تحفة المحتاج والخطيب الشربينى فى شرح الغاية ، والامام الغزالى والبغوى وعلاء الدين فى الدر المختار وشيخ الاسلام زكريا الانصارى وغيرهم من الائمة » (١) ٠

قال الكلاباذى :

« اعلم أن علوم الصوفية علوم الاحوال ،

والاحوال مواريث الاعمال ،

ولا يرث الاحوال الا من صحح الاعمال ،

وأول تصحيح الاعمال معرفة علومها » ٠

وما تصح به الاعمال الظاهرة والباطنة يتطلب :

أ ــ أحكام معرفة الله عز وجل طبقا للكتاب والسنة والاجماع .

ب ــ التفقه فى الدين ٠

كما يتطلب :

« الاجتهاد فى علم آفات النفس ومعرفتها ورياضتها وتهذيب أخلاقها ، ومكائد العدو ، وفتنة الدنيا ، وسبيل الاحتراز منها ، وهذا العلم علم الحكمة. فاذا استقامت النفس على الواجب ، وصلحت طباعها ، وتأدبت بآداب الله عز وجل من ذم جوارحها وحفظ أطرافها وجميع حواسها سهل عليه اصلاح أخلاقها وتطهير الظاهر منها ، والفراغ مما لها ، وعزوفها عن الدنيا واعراضها عنها ، فعند ذلك يمكن العبد مراقبة الخواطر وتطهير السرائر وهذا هو علم المعرفة »(٢) .

وقد حكم العلماء على التصوف ، من هذه الوجهة ، فقال الامام الغزالى انه فرض عين اذ لا يخلو احد من عيب الا الانبياء عليهم الصلاة والسلام ٠

وقال الامام الشاذلى : « من لم يتغلغل فى علمنا هذا مات مصرا على الكبائر وهو لايشعر » .

---

(١) العارف محمد عيد الشافعى : مكانة التصوف والصوفية فى الاسلام ــ ص ١٢٩ ٠

(٢) التعرف ص ٨٧ ٠

وقال الامام السنوسى صاحب العقائد « النفس اذا غلبت كالعدو اذا فجأ يجب مجاهدتها والاستعانة عليها ، وان خالف الوالدين ، كما فى العدو اذا برز » .

وقال الامام المنجورى فى شرحه على منظومة ابن زكوان عند قوله :

وذاك واجب على المكلف وتحصيله يكون بالمعرف

قال : ان علم التصوف فرض عين على كل مكلف وذلك أن الانسان لا ينفك عن دواعى الشر والرياء والحسد فيجب أن يتعلم ما يتخلص به من ذلك » .

فطلب العلم الذى تصح به الاعمال فريضة ، ولا عذر لاحد فى الاهمال أو التقصير فيها .

ومن هنا ندرك ان الاسلام فى جميع مظاهره مبنى على العلم الحق ، حتى جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وفى الوقت الذى تتهاوى فيه العقائد التى لا صلة لها بالله تعالى أمام نور العلم ، نجد أن المؤمن الحق يزداد ايمانا ونورا كلما ازدادا علما « **وقل رب زدنى علما** » .

السلوك على يد استاذ فى الطريق

ضرورة اقتضاها الاحتجاب بالاكوان عن المكون

يقول القطب الدسوقى :

« والله لو هاجر الناس مهاجرة صحيحة طالبين الله خالصا ، ودخلوا تحت أوامره لاستغنوا عن الاشياخ . ولكنهم جاءوا الى الطريق بعلل وامراض فاحتاجوا الى حكيم » .

ان النفس البشرية معقدة تعقيدا تدق ملاحظته على جميع المخابر والمعامل الحديثة ، حتى ان العمل الواحد قد يصدر عن مئات الاشخاص ولكن تقييمه وتقديره يختلف ويتفاوت بحسب الصحة النفسية لكل منهم ، والصحة النفسية هنا يقصد بها الاخلاص له عز وجل .

فأفعال الانسان تدخلها الحظوظ النفسية طالما أن الانسان لم تكمل صلته بالخالق سبحانه وتعالى ، ومن هنا زحفت العلل والامراض النفسية لتفتك بالانسان ، وتحوله الى مسخ مشوه لا يعرف للسعادة الحقة سبيلا ، ولا الى الحياة السليمة طريقا .

ولا نجـــاة من أدواء النفس وعللها والوقوع فى أسر حظوظها والعبودية لاطماعها وأهوائها الا بأمرين :

الاول : التمسك بكتاب الله عز وجل وسنته صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا كالغريق الذى يتعلق بطوق النجاة فلا يفلته خشية الهلاك ٠

الثانى : الالتجاء الى مرب واصل عارف خبير بأدواء النفوس وعللها وأمراضها وعلاجها ليقتلع الادواء المتغلغلة فى اعماق النفس والتى تحول بينها وبين معرفة الله عز وجل ٠

فالحضرة الالهية حضرة عزيزة منيعة لا يدخلها الا من تأدب بالاداب التى عرفنا بها الحق عز وجل على لسان حبيبه الاعظم صلوات الله وسلامه عليه ، ولا يؤبه بمن يدعى أن له معاملة مع الله عز وجل عن طريق غير هذا : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** » هذا هو الصراط الحق ولاسبيل للنجاة سواه ، هذا هو معراج الكمال الذى لا نهاية له ، ولا معراج غيره ، هذه هى المعرفة الحقة التى تتدفق من الشريعة المحمدية الخالدة وكل معرفة غيرها فهى باطلة ٠

ولا تكمل النفس الغارقة فى وحل الحجب الحائلة عن المعرفة الالهية الا اذا تولى تربيتها عارف خبير ، ولا يشم مخلوق المعرفة الالهية الا اذا تخلق بالخلق القرآنى وعلى قدر تخلقه تكون معرفته .

فما حجبك عن الله تعالى سواك ، وما قطعك عن الحق الا هواك ، والناس مراتب، واكثرهم محتجب بالاكوان عن المكون، منصرف عن المحور الذى يدور عليه وجوده .

فالسالك لم يحتج الى مرشد الا لا نقطاعه عن الله عز وجل وتعلقه بالاكوان فاحتاج الى من يخلصه منها ٠

والعارفون بالله عز وجل هم أشد الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم ، معرفة بخصائص النفوس البشرية وأسرارها وعللها وأمراضها وطرق علاجها ، ونجد أنهم فى ميادين الصحة النفسية يطبقون المناهج الثلاثة : المنهج العلاجى ، والمنهج الوقائى ، والمنهج الانشائى ، ومن تتبع طرقهم فى ذلك

خرج بعلوم ومناهج تعتبر ثروة عزيزة وافرة فى علـوم النفس والتربيـة والاخلاق ٠

ومرد نجاح الصوفية فى هذه الميادين انما يرجع الى انفرادهم بتطبيق هدى المنهج المحمدى المحيط بأسرار النفوس ودقائقها وطرق تهذيبها ووسائل علاجها لانه يتفجر من سماوات الوحى القرآنى الكريم ٠

والصوفية يقولون بقابلية الاخلاق والسلوك للتعديل كما يأخذون بقاعدة الاستعدادات الفطرية والمكتسبة ، ولذا يسندون الى كل سالك العمل المناسب لاستعداده ومواهبه : **ولا يستلزم العلاج النفسى الانقطاع عن الناس : بل يباشره الاستاذ دون أن يطلب من السالك الانقطاع عن عمله ، فيشرع فى اجتثاث ادواء النفس واستئصالها طبقا لـما يتطلبه حسم كل داء منها ٠**

وقد يظن الجاهل انه فى استطاعة العارف ان يوصل من شاء فما عليه الا ان يأخذ الطريق عنه فيصل !

كلا ، فان مهمة المرشد العارف عسيرة شاقة ألا وهى تخليص السالك من التعلق الظاهرى والباطنى بغير الله عز وجل ، ليرده من مرارة الانصراف عن خالقه تعالى الى حلاوة الاقبال عليه ، ويتوقف ذلك على مضاء عزم السالك واخلاصه فى طلب الحق عز وجل ، أما هذا الذى ينقصه العزم فلا يفيده مخلوق ٠

وقد يباشر البعض العلاج النفسى دون الالتجاء الى أستاذ عارف ، فيلجأ الى التخلص من أمراضه وعلله النفسية بطرق تزيد الداء استفحالا ، وتثبت جذور المرض وتزيدها عمقا ، كالتجاء بعضهم الى العزلة أو الخلوة ، أو ملازمة الجوع أو السهر فى العبادات ٠

وفى هؤلاء يقول : « لا تفيد الخلوة الا ان كانت باشارة شيخ والا ففسادها اكثر من صلاحها » فيخسر المرء من حيث يطلب الربح ، ويسىء من حيث يظن الاحسان ٠

فالعاقل لا يشرع فى العلاج الا على يد اخصائى ماهر عليم بأدواء النفوس فيتولى غسل أوساخ النفس من قذارة الشهوات حتى تصلح لتلقى أنوار متابعة

سيد الوجهاء صلوات الله وسلامه عليه ، وحينئذ يصلح للجلوس على بساط المشاهدة ·

وعملية تصفية النفس وتطهيرها من ادران الظلم والطغيان والقابلية للفساد والضلال والفتنة والكفر ، وكل ما يصرفها عن الله خالقها ، لهى عملية من أشق العمليات وأدقها وأصعبها وأمرها مذاقا ، وفى صعوبة قطع مقامات النفس ومشقات الطريق يقول رضى الله تعالى عنه

« آه ، آه ، ماأحلى هذه الطريقة ، ماأسناها وما أمرها ، ماأقتلها ما احياها ، ماأصعبها ، ما اكبرها ، ماأكثر مصايدها ، ماأصعب مواردها ، ما أعجب واردها ، ما أعمق بحرها ، ما أكثر أسدها ، ما أكثر حياتها وعقاربها ، فبالله يا أولادى لا تتفرقوا ، واجتمعوا يحميكم الله من الافات ببركة أستاذكم » (١) ·

ويقول فى مشقة الطريق ونتائجها :

« الطريق الى الله تعالى تذيب الاكباد وتفنى الاجساد ، فاذا ارتفع الحجاب تنعم بسماع الخطاب وقرأ الرموز من اللوح المحفوظ واطلع على معان دقت ، وشرب بأوان صفت ورقت ، فكان مع قلبه ثم يكون مع مقلبه لا مع قلبه ، لان الله يحول بين المرء وقلبه ، فاذا جاوز الكل طال لسانه بلا لسان وزاد اجتهاده فى العمل ودام فضل الله عليه » [٢] ·

وهو اذ يؤكد صعوبة السلوك ، والمشقات التى يكابدها السالك انما يشفق على من يسلكها ظنا منه أن الطريق عبارة عن تلذذ بالمشاهدات وتمتع بالمكاشفات ، ومثل هؤلاء هم أبعد الناس عن الطريق الى المعرفة الصحيحة بالله عز وجل ، والاخلاص له سبحانه ، ولذا قد يلتبس الامر على الناس ، فيشهدون الرجل يظهر بمظهر الجاد فى السلوك وهو فى الواقع لا يطيق السير ولا يستطيع مواصلته لوقوفه مع حظوظه ، وينبه على امثال هؤلاء المرة بعد المرة حتى لايؤثروا فى الصادقين من السالكين فيتوقفوا عن السير :

---

(١) طبقات الابرار ــ مخطوط ــ وجه ق ١١٦ ·
(٢) الكواكب الدرية مخطوط وجه ق ٢٢٩ ·

« كم واقف فى الماء وهو عطشان لعدم صدقه فى طلب مولاه ، فاعملوا بالاخلاص لترووا ظمأ العطش ، فان طريق الله تعالى لا تنال الا بقتل الانفس ، وذبحها بسيوف المجاهدة والمخالفة »(١) .

وصعوبة الطريق ومشقاتها انما ترجع الى صعوبة تخلص النفس من عاداتها وحظوظها وشهواتها المهلكة ، ثم التجرد من السوى والتعلق بالله عز وجل ، فتحيا الحياة السرمدية بالله عز وجل ، وتخلص الاعمال لوجهه الكريم « **ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم** » سورة التوبة ١١١ .

والمريدون يتفاوتون فى زمن التخلى عن السوى وتصفية وجودهم لله خالقهم ، وذلك يتبع صدق الارادة ، فمنهم من يمكث العمر كله ولا يستطيع أن يكسب المعركة مع أهوائه وشهواته وحظوظه النفسية ، ومنهم من يقطع مقامات النفس فى أيام بل فى ساعات بل فى لحظات ، وهؤلاء هم أصحاب الجواهر النقية الصافية التى تنفر بطبعها عما يصرفها عن الله عز وجل « **خياركم فى الجاهلية خياركم فى الاسلام اذا فقهوا** » .

و « من جاهد شاهد ومن رق تباعد » « ما أعز الطريق وما أعز طالبها وما أعز من يصدق فى طلبها وما أعز الدال عليها »(٢) .

ومما يؤكد الحاجة الى مرب عارف : أن الارواح ترتبط ببعضها ارتباطا يوجب لها سريان المزايا الموجودة فيها وتبادل الغرائز المنطوية عليها ، وهذا ما يطلق عليه العلماء « سريان الاخلاق بالامتصاص والانتشار (فلذلك جعل أهل الطريق رضى الله عنهم ونفع بهم اتخاذ الشيخ المرشد والارتباط بروحه المتعلقة بالله ، المتمتعة بدوام شهوده ورضاه ، من أعظم ما يحتاج اليه مريد السير الى الله تعالى وأهم الاصول التى يتوقف عليها سلوكه فى هذه الطريق ، لانه اذا كان الارتباط بالروح المحجوبة يوجب الموافقة لاميالها والتطبع

(١) الطبقات الوسطى مخطوط — ظهر ق ١٠٨ .
(٢) الكواكب الدرية مخطوط وجه ق ٢٢٩ .

بطبعها فالارتبـــاط بالروح التى أطلقت من قيودها ، وصار ديدنها الاقبـــال على معبودها ، وطبيعتها العكوف على أبواب رضوانه ، وسليقتها الفرار عما يجر الى بعده وحرمانه ، يقتضى سريان تلك الصفات اليها ويستلزم افاضة هذه المزايا عليها · بل هذه الروح المطلقة أولى بسريان أحوالها الى الروح المتعلقة بها من تلك الروح المحجوبة ، لان هذه قد خلصت من عقالها ، وتلك ضعيفة مكبلة بأوحالها »(١) .

من شروط المربى الذى يتصدى لتطهـــير النفوس من عللهـــا

ان أنجح مدارس التربية الحديثة لم تستطع أن تتعمق فى النفس البشرية تعمقا يخلص الانسان من العلل التى تحول بينه وبين سلوك طرق الخير فى أقواله وأفعاله ، ولذا اضطرت الى فصل الاخلاق عن التربية ، وانكمشت التربية حتى أصبحت وظيفتها قاصرة على طريقة ايصال الخبرة الى الكائن الحى ، وهذه ايضـــا لم تسلم من المســـخ ، فهناك مدارس تنادى بالطريقة الطبيعية، ومدارس تنادى بالطريقةالسلوكية المادية ومدارس تنادىبالطريقة الليبرالية ، ولم تفلح مدرسة منها أن تقوم خلال عملية التربية بعملية تطويع النفس وتهذيبها تهذيبا يجعلها تسير وفق المبادىء والمثل العليا التى يسعد بها البشر .

وان وسائل التربية الحديثة وطرقها وفلسفتها لتتضاءل وتتصاغر بجانب التربية العلمية والعملية كما فصلها العارفون بالله تعالى ، ولو تتبعت مدارسهم لوجدت أن كل عارف بالله تعالى مدرسة تربوية قائمة بذاتها ·

ونهج العارفين فى التربية يقوم على الحقائق العامة التالية :

١ ــ المثل الانسانى الاعلى هو سيد الوجهاء وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ، وهو الحائز على أعلى كمالات النوع الانسانى لاختصاصه بتلقى القرآن العظيم وتحليه بالكمالات التى يستلزمها تلقى الوحى القرآنى ، فلا نجاة للانسان الا بالاهتداء بهديه صلى الله عليه وسلم ·

---

(١) الامام العارف أحمد أبو الوفاء الشرقاوى : مصباح الارواح ــ ص ــ ١٢ .

٢ ــ لا يمكن أن تقوم التربية على أساس اتباعه صلوات الله وسلامه عليه والاهتداء بهديه ما لم يكن المربى مجتهدا فى الفهم عن الشريعة ٠

٣ ــ أصول السعادة وأصول العلاقات الانسانية والوسائل والغايات النهائية من الاعمال والاقوال لا يحددها سوى الوجود الانسانى الخالص لله عز وجل ٠

ولا يستطيع بشر أن يسعد ابنه فضلا عن الاخرين ، ولكن الذى يسعد البشر جميعا هو الخالق عز وجل ، وهذا يتوقف على مدى الاخلاص له عز وجل ويقاس مدى الاخلاص بدرجة اتباعه صلى الله عليه وسلم ٠

٤ ــ تحديد الخير والشر لايكون الا طبقا لما بينه سيد العلماء بالله تعالى صلوات الله وسلامه عليه ٠

وعلى هذا الاساس تصح الدعوة الى الخير أو النهى عن الشر (الامر بالمعروف والنهى عن المنكر] ــ وهو أصل من أصول الشريعة ــ وليس من حق مخلوق بعد ذلك أن يحدد الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة من عندياته أو بفلسفة يبتكرها هواه ، أو تمليها عليه معلوماته النسبية القاصرة ، ومن حاد قيد شعرة عن النهج المحمدى المبين فهو يضل الناس عن الحق بقدر انحرافه

٥ ــ لا يتصدى المربى للتربية الا اذا بلغ مرتبة معرفة علل النفوس وطرق علاجها ، ولا يتمكن فى هذه المرتبة الا باتباعه الكامل لسيد العلماء صلوات الله وسلامه عليه ، فاذا لم يبلغ هذه الدرجة لايجوز له ان يتصدى للتربية وهو لم يستكمل أصولها بعد .

هذه هى الاصول العامة التى سار عليها العارفون بالله عز وجل ، وفيما عدا ذلك فلكل منهم منهجه الخاص فى التربية طبقا لخصائصه الشهودية والعرفانية وتمكنه فى مقامات المعرفة ، كما أن لكل مريد استعداده الخاص وقابليته المعينة وهذا يحتاج الى منهج تربوى خاص به يتناسب مع استعداداته ومواهبه وعلله النفسية بشتى انواعها ٠

ونعرض مختارات من كلامه رضى الله تعالى عنه فى شروط المربى ،

١ ــ العلم بالشريعة والعمل بها ، وفى ذلك يقول :

من اراد ان يكون اماما يقتدى به فليحكمبالحقيقة ؛ اذ ماسميتحقيقة الا لكونها تحقق العلوم بالاعمال وتنتج الحقائق من بحر الشريعة » (١)

(لايكمل الفقير الا اذا تكلم بمعانى الحقيقة ذوقا لانقلا وفعلا لا قولا ، وتحلى باطنه بحلية الاصفياء بالسر والمعنى « فتغنى وتكلم بالحكم ونطــق بالمعجم وبالسر المكتم واطلع وحقق ، فما ينطق الا صدقا ولايتكلم الا حقا، وعند ذلك يصح ان يدعو الخلق الى الله تعالى) (٢) ٠

(لا يحق لك أن تامر غيرك الا ان كانت الشريعة تزكيك بوقوفك عند حدودها ، والا كان الامر والنهى لحظ نفسانى) و (ومن لم تزكه الشريعة بوقوفه عند حدودها لا يصلح أن يتصدر لارشاد غيره] ٠

روى الامام الشعرانى عن جده العارف على بن شهاب (٨٠٤ ــ ٨٩١ هـ) انه رضى الله تعالى عنه كان لا يمكن أحدا من الفقراء البرهامية من فعل شىء مما يفعلونه اذا ما زاروا بلدته مثل أكلهم النار وجر السيف على اللسان ، وعلى الكتف ، ويقول : « ان كنتم برهامية فاتوا لنا بالبرهان على ذلك من الكتاب والسنة أو فعل سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه ٠ »

فانتصر جماعة من أهل البلد للفقراء وقالوا : لابد من أن يفعلوا ذلك حتى نتفرج عليهم ، فرأى بعض الفقراء فى هذه الليلة القطب الدسوقى وهو يقول لهم : « أطيعوا الشيخ عليا رضى الله عنه ، وأنا برىء من كل عمل يخالف هدى الخلفاء الراشدين والائمة المجتهدين » ٠

فاستغفروا وتابوا ورجعوا عن ذلك الفعل ؛ فقــال لهم الشيخ على بن شهاب ، « انا رجل برهامى ولو كنت اعلم برضا سيدى ابراهيم بذلك لكنت أول فاعل له لانه قدوتى وشيخى » ٠

فالولى يغار على الشريعة بعد وفاتهكماكان يفعل اثناء حياته ،ولاعبرةبمن انتمى الى الطريق وهو يحيد عن الشريعة قيد شعرة عن بينة من ذلك ٠

---

(١) الكواكب وجه ق ٢٢٩ ٠
(٢) الطبقات الوسطى ظهر ق ١١١ وما بين علامتى التنصيص من الكبرى ص ١٥٦ ٠

وكان يقول : « العبد كلما خدم سيده قدم على بقية العبيد ، وأما من ادعى المشيخة وعصى ربه ، قال له : أف أف لك ! اما تستحى ! اين دعوات القرب منا ! أين غسيلك اثوابك المدنسة لمجالستنا ! » [1]

وكان يقول ــ وهذا من شدة تمكنه فى التحقق بآداب الشريعة « قد صرفنا هممنا اليه فأغنانا عما سواه ــ انا لا نعرف قط ابليس اللعين » ٠

٢ ــ الاجتهاد فى العمل :

من لم يكن مجتهدا فى البداية لا يفلح له مريد فى النهاية فانه ان نام ، نام مريده ، وان غفل غفل مريده ، وان رغب فى الدنيا رغب فيها مريده ، وهكذا فى سائر الاخلاق « وان امر الناس بالعبادة وهو بطال او توبهم عن الباطل وهو يقوله ضحكوا عليه ولم يسمعوا منه] [2] ٠

فلا يتصدى أحد لمقام التربية الا اذا كان قدوة يحتذى به فى أقواله وأفعاله ، أما من يوجه غيره ولا يرتبط بتوجيهاته ولا يحفل بكلامه ، فمثل هذا لا يزيد مريده الا ضلالا ولا يمده الا بالغواية ، ومن تجرد من الهدى لا يمنح الهداية ، وفاقد الشيء لا يعطيه (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام ــ ٢٠٤ واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ــ ٢٠٥) من سورة البقرة .

فالتربية اذن ليست بشقشقة لسان ولا مضغ عبارات وكلام ولا هى بتخدير الناس بالكذب والتمويه عليهم بالدعايات والامانى المعسولة للوثوب على المطامع والاغراض ، ولكنها قول وعمل وجد واخلاص ، وتطهير للقلب مما سوى الخالق فلا يعرف السالك سواه عز وجل فى كل حركة أو سكنة ٠

أما التهاون أوالتكاسل أو التواكل أو الاهمال فى الاعمال .فكلها دلائل على الكذب فى الدعوى ، وعدم الصدق فى الطلب ، يقول رضى الله تعالى عنه : « عليك بالعمل بالشرع واياك وشقشقة اللسان بالكلام فى الطريق دون التخلق بأخلاق أهلها وقد كان صلى الله عليه وسلم يجوع حتى يشد الحجر على بطنه ، وقام حتى تورمت قدماه ٠ ثم تبعه أكابر الصحابة رضى الله عنهم

---

(١) طبقات البقاعى وجه ق ١١٦ ٠

(٢) الطبقات الوسطى وجه ق ١٠٣ وما بين علامتى التنصيص من الكبرى ٠

على ذلك فكان أبو بكر الصديق اذا تنهد يشم لكبده رائحة الكبد المشوى وانفق ماله كله فى سبيل الله ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه شديد العمل والكد حتى رقع دلقه بالجلود ، ولف رأسه بقطعة خيش ، وكان عثمان رضى الله عنه يختم القرآن قائما كل ليلة على أقدامه ، وكان على رضى الله عنه من زهاد الصحابة ومجاهديهم ٠٠ هؤلاء خواص الصحابة رضى الله عنهم مع قربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا كان عملهم ، هذا كان اجتهادهم وزهدهم وجوعهم فأحكموا الحقيقة والشريعة ، ولا تفرطوا أن أردتم أن يقتدى بكم » ٠

فطريقته رضى الله تعالى عنه هى العمل المتصل فى سبيل الله تعالى حتى تصفو النفس وتصلح أن تكون أداة فاعلة لكل خير قابلة له ، « فاعمل لعل أن تكون من الذين عادت ارواحهم روحانية لطيفة نورانية تجول فى الملكوت وتشاهد الحى الذى لا يموت وهى تنظر عجائب غرائب ما يكون من الامر المكنون » (١) ٠

٣ ــ العلم بأمراض النفوس وطرق علاجها : وفى ذلك يقول :

« اتقوا فراسة الفقراء فانهم ينظرون بواطنكم بنور الله تعالى فيجدون فيها ما يسخط الله تعالى » (٢) ٠

فمن لم يصف باطنه بحيث يكشف بصفائه عن الامراض النفسية التى تكمن فى باطن من يقابله ويتوجه اليه فلا يصلح للتربية والعلم بأمراض النفوس لا يأتى بقراءة الكتب ولا بسماع القصص ولا بالتجارب فى المعامل ، ولكن كل شخص مزود بحاسة يحس بها أمراض النفس المعافى هو منها ، وكلما صفت النفس كلما رقت هذه الحاسة وصفت حتى يستطيع أن يشخص ماعند غيره من علل ، ويكمل هذا الصفاء عند العارفين بالله عز وجل الذين وصلوا الى مرتبة تربية المريدين أو مرتبة تهذيب النفوس وعلاجها فالعارف اذ خلص نفسه من رق الاشياء ، قد خلصها من الامراض المترتبة على هذا الرق ، فكان طبيبا ماهرا فى تشخيص علل المكبلين بأغلال هذا الرق ٠

---

(١) لسان التعريف ق : ٢٠ ب ٠
(٢) الطبقات الوسطى ق : ١١١ ب ٠

٤ ـ التعفف عن اموال الناس :

فى الواقع أن حب المال اذا كان هو العاطفة السائدة Master sentiment عند أى شخص : كانت جميع أقواله وأفعاله واقعة تحت دافع الكسب المالى، ولا يكترث بموافقة ذلك لشريعة أو خلق أو قانون وتصبح هذه العاطفة هى المعيار الذى يقيس به قيمة كل شىء فى الحياة ، وليس من السهل على الانسان أن يقول : أنا رجل لا قيمة للمادة ــ يعنى المال ــ عندى ! وهو أسير المال وعبده المطيع ، فالمال وجه حياة الناس منذ القدم ، وكم من كرامة قد ابتذلت وحرمات قد انتهكت ، وعقود قد مزقت ، وأرحام قطعت ، ودماء قد سفكت فى سبيل المال .

ويحذر القطب الدسوقى من هذا الداء العضال فيقول :

« ان أردت أن تكون ولدى حقا وتبعى صدقا ، فأخلص العبودية لله عز وجل واجعل واعظك من قلبك ، وكن عمالا بجسدك وقدبك ، ولا تأخذ لاحد من المريدين درهما فان هذه طريقى ومن أحبنى سلك معى فيها ، فان الفقير الصادق هو الذى يطعم الناس ولا يطعمونه ، ويعطيهم ولا يعطونه « ولا يلتمس الدنيا ولا شيئا من عروضها » فان الرشا فى الطريق حرام يرشى المريد شيخه حتى يميل اليه ،فاذا مال ، كان حكمه حكم القاضى اذا قبل الرشوة ليحكم بحكم غير حكم الله ، وذلك شديد التحريم .. وشيخكم قد بايع الله تعالى ألا يأخذ لاحد فلسا ، ولا درهما ولا يأكل له طعاما الا ان سلم من العلل » (١) .

ويقول : « بالله عليكم ياأولادى اسمعوا منى ماينفعكم ، فانى بايعت الله على انى لا أطلب أموالكم ، ولا آخذ تراثكم ، ولا أدنس حرمتى بما فى أيديكم ، فاسمعوا واطيعوا ، وعلى أموالكم الامان منى ومن جماعتى الذين أخلصوا معى ، وأسأل الله تعالى أن يلحق بقية أولادى بمن خلص معى ويجعلهم مثلهم فيشفقون على اخوانهم وينصحونهم مع تجنب أموالهم » (٢) .

٥ ــ التجرد من عاطفة التمركز حول الذات : وهى عاطفة مدمرة لو سادت باقى العواطف لان صاحبها يكون همه فى الحياة تكريس الجهود لتعظيم نفسه وارضائها ويصبح مقياس الخير والشر مدى خضوع الناس له واحترامهم

---

(١) و (٢) الطبقات الوسطى ١٠٩ ب ، ١٠٦/أ على التوالى وما بين علامات التنصيص زيادة من الطبقات الكبرى .

واجلالهم لشخصه ، ولا تنساق نفسه الا لمن يشبع غروره واعجابه بنفسه ، ومن مظاهر التمركز حول الذات حب السيطرة ومظاهرها ، وتأليه النفس ٠

ويحذر القطب الدسوقى من هذا الداء فيقول :

« اياكم وأن تقنعوا بتقبيل أيديكم والرياسة علىأقرانكم » فان حبالرياسة اذا كان هو السائد المتحكم فى العواطف تحول الانسان الى وحش مسعور يضحى بكل ما يملك فى سبيل اشباع هذه العاطفة المتعطشة الى اذلال الغير والتحكم فى »مصائرهم فى دائرة تخصصه وعمله ٠ وهذا الداء يتطور الى أشكال شتى تخفى على من يقوم بعملية استبطان ذاتية ، **ولكن الاستاذ العارف يدركها ويحسها كما لو كانت شيئا ماديا أمامه : ولا يزال يتتبع عروق الداء حتى يستأصلها من جذورها ، وهذا الداء ــ داء حب الرياسة ــ هو آخر العلل الذى يمكن أن تتخلص منها النفس واصعبها علاجا ٠ وقل من يشفى منه ٠**

ويعلن القطب الدسوقى على مريديه أنه اذا نصحهم فانما يفعل ذلك اجتهادا فىالنصيحةفى الدين ولا يرىلنفسه مكانةفوقهم » ما اعلمتكمبذلكالالتقتدوابىلا للمشيخة عليكم فانى أرى نفسى دونكم وانما المراد سلامة الذمة وبراءتها من الخلل فى نصح الاخوان » ، وكثيرا ما كان ينشد اذا قيل له انصحنا أو أدبنا ، لا تعدلين الحرائر حتى تكونى مثلهن ٠ يقبح على معلولة وصف الدوا للناس والناس يظنون أن المعرفة بالله عز وجل مرادفة للكرامات من جميع الاشكال والالوان مع أن هذا ليس من المعرفة فى شىء ، واذا ماوجد فى النفس الميل الى الكرامات فهذا دليل على أن صاحبها لم يذق شيئا فى المعرفة ، وأنه يتخذ من طريق الله عز وجل وسيلة الى اشباع شهوة الرياسة التى تعتلج فيه ٠

« من أدخل دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة بقى هو بلا هو ، فحينئذ يبقى زمانا مافانيا ، ثم يعود فى حفظ الله وكلاءته سواء حضر أو غاب ، ولا يبقى له حظ فى كرامات ولا كلام ولا شأن نفسانى وخلص لجانب العبودية المحضة » ٠

٦ ــ لا يقدم أحد فى الطريق لسبب غير تقوى الله عز وجل ، وهذه المسألة يترتب على مخالفتها الانقطاع عن الطريق ، ولا تتأتى مخالفتها الا لوجود بقية من الافات النفسية المترسبة فى أعماق الباطن ، ومما يحدث فى هذا الصدد :

اعتبار السن كشرط من شروط الاستاذية فى المعرفة ، مع أن السن لا دخل له بالمعرفة ، ولذا نجد أن بعض العارفين قد يترك الامر من بعده الى شاب يسند اليه تكملة تربية المريدين وفيهم من هو فى سن والده أو جده . فتنفر نفوس الناقصين منهم ويهجرون الطريق ولا ينتفعون بشىء ، وفاتهم أن الطريق ليست بالسن ولا بالوراثة ولا بالجاه ولا بالمركز ولا بالمكانة ، بل كل هذه حجب تحجب عن الله عز وجل وليست بسبل توصل اليه ، ان اكرمكم عند الله أتقاكم .

« ليس لاحد أن يقدم فى الطريق لكبر سنه وتقادم عهده ، انمايقدمه فتحه ، ومع هذا فمن فتح عليه منكم فلا يرى نفسه على من لم يفتح عليه ، وتأمل ياولدى ابليس اللعين لما رأى نفسه على آدم عليه السلام وقال : أنا أقدم منه وأكثر عبادة وقدرا كيف لعنه الله تعالى وطرده » .

٧ ـ سياحة المربى لا لغرض دنيوى :

وفى ذلك يقول « ان من أحكم من هذه الطائفة أمره وارتوى من الاحوال وبلغ مبلغ الرجال ، وانبجست من قلبه عيون ماء الحياة ، وصارت نفسه مكتسبة للسعادات : استنشق نفس الرحمن من صدور الصادقين من الاخوان فى اقطار الارض ، فيسيح فى البلدان لملاقاتهم وينبعث الى السير فى الافاق ، ويسيره مولاه فى البلاد لفائدة العباد ، يستخرج بمغناطيس حاله خبايا أهل الصدق ، ويبذر فى ارض القلوب بذر الفلاح فيكثر ببركة صحبته أهل الصلاح ، وهذا مثل الامة الهادية فى الانجيل «**كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه**» تعود بركة البعض على البعض ، وتسرى الاحوال من البعض الى البعض ، ويكون طريق الوراثة معمورا وعلم الافادة منشورا » (١) .

هذه هى بعض شروط مقام التربية اقتبسناها من عباراته ، ولا يخفى أنه مقام عزيز : « ياأولادى طوبى لمن وصل الى حال تقرب العباد من الله تعالى ثم وقف يدعوهم اليها ، فكونوا داعين الى الله تعالى باذن الله » ، فجمع الناس على خالقهم عز وجل هو أساس السعادة العظمى التى استوعبت كل سعادة ، وفى الحديث الشريف : « **لان يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم** » .. وفى رواية أخرى : « **لان يهدى الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس** » (٢) يرشدنا امام الهداة صلوات الله وسلامه عليه الى

(١) لسان التعريف ١/٤٦ .

(٢) المناوى : كنوز الحقائق فى حديث الخلائق ــ وقال رواه الطبرانى .

الاجتهاد فى سبيل هداية الناس الى الله عز وجل فهى خير من الدنيا ومافيها ، اذ أن كل خير مرتبط ومتعلق بها ، فتأمل مافى هذا الخلق المحمدى من اعجاز ٠

من آداب المريد مع أستاذه العارف

ان الغاية القصوى لطالب الحق عز وجل هو الاجتماع بمرب عارف يدله على الطريق المستقيم ويحذره من آفات الانقطاع والاحتجاب ، فاذا نال هذا المطلب ، وجب عليه أن يتأدب مع أستاذه بالاداب التى يفرضها عليه شرف غايته العزيزة التى لا غاية فوقها أو بعدها فى الوجود ، فاذا مارأى المربى ان مريده قد تحلى بحلل الآداب المناسبة لمطلبه «رباه بألطف شراب وسقاه من ماء التربية ماء النفع بملاحظة باطن السر المعنوى والفعل المرضى المضى ، فما أسعد من حسن أدبه مع مربيه فانه يفلح نجحا وصلحا وينفلق له من الدجنة صبحا ، وهذه طريقة القوم المحققين المخلصين الصادقين المتميزين الواصلين المجتهدين الطالبين الراغبين المرضيين رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » (١) ٠

وقد عنى العارفون بجمع هذه الاداب ونظمها لتسهيل السلوك على المريدين : فلم تخل منظومة فى الطريق منها وممن نظمها لتيسير حفظها : الامام أبو العباس أحمد بن محمد الشريشى(٢) البكرى الصديقى ، والعارف الشرنوبى(٣) ، والامام مصطفى بن كمال الدين البكرى(٤) ، والعارف الشيخ رضوان العدل بيبرس [١٣١٠ هـ] الذى أسهب فى بيانها فى منظومته مطهرة النفوس وروض القلوب المستطاب ٠

وقد تتبعنا هذه الاداب فى كلام القطب الدسوقى فجمعنا بعضها فيما يلى :

أولا : قوة الرابطة بين المريد والاستاذ :

---

(١) من كتاب الجوهرة المطبوع ص ١٤ .

(٢) أصله من المغرب هاجر الى مصر واستقر بالفيوم حيث توفى بها عاش من ٥٨١ — ٦٤١ هـ وقصيدته تسمى (أنوار السرائر وسرائر الانوار) وقد عنى العارفون بشرحها مثل شرح الامام أحمد بن يوسف الفاسى ، والقطب الدباغ ، والحافظ ماء العينين وكلها مطبوعة .

(٣) العارف الكبير أحمد عرب الشرنوبى (٩٣١ — ٩٩٤) هـ ٠ وقصيدته تسمى (تائية السلوك الى ملك الملوك) نشرها وشرحها العلامة عبد المجيد الشرنوبى ط القاهرة ١٩٥٨ .

(٤) منظومته (بلغة المريد ومشتهى الموفق السعيد فى آداب الطريق) مطبوعة . والفيه التصوف فى ١٢١٩ بيتا وهى مخطوطة .

ولكى تتصور مقدار متانة هذه الرابطة تأمل قوله رضى الله تعالى عنه « ولد القلب خير من ولد الصلب ، فولد الصلب ورث الظاهر من الميراث ، وولد القلب ورث الباطن من السر » (١) ٠

ولا يصح لمريد آى قدم فى الطريق مالم يعرف حقيقة هذه الرابطة ويتحقق بشروطها : ويتفاوت المريدون فى المقامات على قدر صدقهم فى محبتهم ، ويشير رضى الله تعالى عنه الى المحبة التى تتلاشى فيها الاهواء والحظوظ النفسية فيقول « مادمت أنا أنا ، وأنت أنت ، فلا محبة ، انما المحبة ممازجة الارواح بالاجساد » ينبه الى أن الجسم يتاثر بالحب الروحى وينبعه ، فلا يتحرك الا فى خدمة من أحب ٠

فمن ادعى حب الله عز وجل كانت كل حركاته الجسمية فى خدمة الله تعالى ، ومن ادعى أن الحب روحى ، والجسم غارق فى المخالفات فهو واهم ضال مضل كذاب ٠

والقطب الدسوقى يرشد الى المحبة التى ينتفع منها المريد بأنوار أستاذه وهى محبة الصغير للكبير لا الكبير للصغير ٠

ويقول القطب الشهير السيد عبد العزيز بن مسعود الدباغ الحسنى فى هذه القاعدة « ان المحب لا ينتفع بمحبة الكبير له ولو كان الكبير نبيا ، حتى يكون الصغير هو الذى يحب الكبير فحينئذ ينتفع بمحبته ،الا الله تعالى ، فانه تعالى اذا أحب عبدا نفعته محبته ولو كان العبد فى غاية الأعراض »(٢) .

وقال « ان الصغير اذا أحب الكبير جذب مافى الكبير ولاعكس » ٠

واذا لم تكن المحبة صادقة لابد وأن تنتهى بانقطاع المريد وتبدل رأيه تغير نيته نحو أستاذه ٠

وينقسم المريدون من حيث تعلقهم بالاستاذ الى ثلاثة اقسام :

مريد محبته لغرض من الاغراض قد يكون واضحا له ، أو مخفيا فى بؤرة اللاشعور ، وهذا لابد من انقطاعه ولو كانت نيته فى صحبة الاستاذ لاجل الفتح ٠

---

(١) طبقات الابرار للبقاعى ١١٥/ب .
(٢) الابريز ص ٢٠٢ . ط القاهرة ١٣١٧ هـ .

ومريد محبته منقطعة تارة تخبو وتارة تشتعل فتنقطع عنه أسرار المعرفة وتتصل بحسب اشتعال نور محبته ٠

ومريد محبته خالصة دائمة حبا فى الله عز وجل ، وهذا لايزال يترقى حتى يفتح عليه ، وهذه المحبة نابعة من شدة حبه لله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه ، ففى الحديث المتفق عليه عن أنس رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين** » ٠

وفى ثمرة هذه الرابطة يقول القطب الدسوقى ٠

« ياأولادى ، ان صح عهدكم معى فأنا منكم قريب ، وأنا فى ذهنكم وفى سمعكم وطرفكم وجميع حواسكم الظاهرة والباطنة ، وان لم يصح لكم معى عهد فلا تشهدون منى سوى البعد ، واذا كنت لا أرضى اللعب لاحد من خلق الله ، فكيف أرضاه لولد قلبى ؟ فان أخذتم ياأولادى عهدى وعملتم بوصيتى : سمعتم كلامى ، ولو كان أحدكم بالمشرق وأنا بالمغرب ، ورأيتم شخصى فمهما ورد عليكم من مشكلات سركم أو شيء تستخيرون فيه ربكم ، أو عرض لكم أحد بأذى فوجهوا وجهكم ، وصفوا سركم ٠ واطبقوا عين حسكم ، وافتحوا عين قلبكم فانكم سترونى جهارا وتستشيرونى فى جميع أموركم وتطلبوا منى حوائجكم ، فمهما قلته لكم فاقبلوه وامتثلوه وهذا ليس خاصا بى ، بل بكل شيخ صدقتم فى محبته ، وقد يعلم ذلك شيخكم وقد لا يعلم ، هكذا جرت سنة أولياء الله تعالى مع مريديهم » ٠

وهذا ما يطلق عليه علماء الروح الان : الجلاء السمعى ، والجلاء البصرى ، واستقبال الخواطر او تلقى الرسائل Telepathy

ثانيا : الصبر على صحبة المربى :

هناك مدع ليست عنده قابلية للسلوك ، ولكنه يتوهم ان الاستعداد موجود عنده ، فيطلب المربى ويصحبه ، ولكن العارف يطلع على قابليته فيجدها غير صالحة لعدم صدقه فيما يدعى ، وحينئذ اما ان ينقطع هذا الشخص ، واما ان يلح على المربى ان يوصله مثل فلان وفلان ، فيعرض نفسه للاختبار الشخصى حتى يعلم من نفسه انه غير صادق فيما يدعيه فينصرف مشكورا او يستمر على صحبة الاستاذ ان شاء ٠

---

(١) الطبقات الوسطى ١/١١٠ — ولا تخلف عن عبارة الكبرى ٠

اما المريد الصادق فلا يصرفه صارف عن صحبة استاذه لانه يصحبه فى حب الله عز وجل لا حبا فى نيل اغراضه ، وما كان لله دام واتصل ويوصى مريديه بالصبر على محبة الاستاذ فيقول :

« يا اولادى اذا صحبتم غيرى من بعدى فاصبروا على جفاه ، فانه ربما امتحنكم ليريد بكم الخير ، وان يجعلكم محلا لاسراره ، ويرقيكم بذلك الى معرفة ربكم ، فمن اشتغل قلبه بمحبة شيخه ترقى الى محبة الله عز وجل ، ولولا ان الشيخ سلما لتربية المريد لمقت الله كل قلب وجد فيه محبة لسواه » (١) ٠

ولهم فى ذلك عبارات ونظم رقيق ، يقول الامام الجيلانى فى عبنيته :

وصومى فيك بعدى عن السوى ... وفطرى أننى وجهك راجع

ويقول بعضهم :

وملأت كلى منك حتى لم أدع ... منى مكانا خاليا لسواك
فالقلب فيك هيامه وغرامه ... والنطق لا ينفك عن ذكراك
والطرف حيث أجيله متلفتا ... فى كل شىء يجتلى معناك
والسمع لا يصغى الى متكلم ... الا اذا ما حدثوا بحلاك

ويقول آخر :

اترك ملامى وصد عن عذلى ... فالحب معنى لست تدريه
وفى ضميرى من لا أبوح به ... وفى فؤادى من لا أسميه
قد أدهش الطرف فى محاسنه ... وحير القلب فى معانيه
محجب والقلوب تشهده ... مغيب والغرام يبديه
وجهه حيث كنت واجهنى ... لا شىء يخفيه او يواريه
ان تلت يا بغيتى ويا أملى ... يقول لبيك فى تعاليه
ها أنا دان منك مقترب ... فخذ من الوصل صرف صافيه
وأغنم زمان الرضا فما أحد ... يدرى الذى فى غد يلاقيه

فالمدار فى المحبة على تجريد القلب من كل حب للسوى وامتلاء القلب بحب الله تعالى ، ويرشدنا امام المحبين وسيد المتقين صلوات الله وسلامه عليه الى هذا الكنز الثمين الذى يجمع المخلوق على خالقه فيحيا حياة مضيئة بأنوار الله

---

(١) الطبقات الوسطى ١١٠/ب ٠

عز وجل فيقول : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، واذا احببت فأحبب فى الله ، واذا استعنت فاستعن بالله »

ولو اخلص العبد النية لله تعالى فى جميع احواله لما احتاج الى مرب ، وما طرأت العلل الا لفساد فى عقد النية لله عز وجل .

ثالثا : السمع والطاعة :

العارف حكيم المريد وطبيبه ، واذا لم يعمل المريد بقوله لم يحصل له الشفاء ، بل قد تكون صحبته وبالا عليه لاساءته الادب « فيا اولادى ناشدتكم بالله لا تسيئوا الى طريقى ولا تلبسوا فى تحقيقى ولا تدلسوا ولا تدنسوا .. وكما اجتبيناكم واخترناكم فلا تكدروا علينا ولا ترموا طريقتنا وتكتفوا فيها بالكلام ، وكما وفينا لكم بحق التربية والنصح ، فوفوا لنا بالسماع وقبول النصيحة ، وانما آمركم بما امركم به ربكم ، وان نقضتم العهد فانما هو عهد الله لا عهدى ، وانكنتم صحبتمونا لتأخذوا منا اوراقا منغير عمل فلا حاجة لنا بكم » (١) .

ويعنى بالاوراق : الاجازة فى الطريق

ويقول « رأس مال المريد المحبة والتسليم والقاء عصا المعاندة والمخالفة والسكون تحت مراد شيخه وامره ، فاذا كان المريد كل يوم فى زيادة محبة وتسليم ، سلم من القطع ، فان عوارض الطريق وعقبات الالتفاتات والارادات هى التى تقطع عن الامداد وتحجب عن الوصول »

رابعا : على المريد الا يقتدى بأحوال استاذه الا فيما يأمره به :

ذلك لان المريد مبتدىء والمربى منته ، وفرق بين المبتدىء والمنتهى وفى ذلك يقول :

« المبتدى مجاهد ، والمنتهى مشاهد ، المبتدى خائف ، والمنتهى طائف ، المبتدى تائب ذائب ، والمنتهى غائب ، المبتدى محزون ، والمنتهى مسرور ، المبتدى باك حيران ، والمنتهى ضاحك مقرور له العينان ، المبتدى صائم قائم ، والمنتهى فى بحار القرب عائم ، المبتدى محجوب بأعماله والمنتهى « مشتغل بالنظر الى جلاله » هذا بالظاهر يجرى وذاك بالباطن يسرى ، هذا محجوب وذاك محبوب ، هذا سكرانوذاكصاح ، المبتدى يلبس الدلوق ، والمنتهى يلبس

(١) الطبقات الوسطى ١٠٦/أ .

الخلوق ، اذا عارضه فى الطريق عاطل ناداه الا كل شىء ما خلا الله باطل » (١) ٠

وفى كتاب الجوهرة زيادات نذكرها :

« المبتدى يلبس الصوف ، والمنتهى يلبس ثوب الصفا ، هذا جهيد وهـذا شهيد ، هذا مزق اثوابه ، وهذا مزق قلبه حب أحبابه ، المبتـدى يحاسب نفسه على الذر ، والمنتهى يحاسب نفسه فى سر السر ، المبتدى بالرياضة يغتدى ، والمنتهى بالافاضة يغتنى ، المبتدى محصور فى الاحوال والاقوال ، والمنتهى تعدى الحال والمقال وليس له مطلوب الا ذو الجلال ، هذا يلبس الخشن ويحمله ، وهذا رقيق الثياب لا يستطيع حمله ، لان المبتدى عذابه لجسده ، والمنتهى حاله فى قلبه ولبه ، فقلبه احرقته نيران حبه وتجليـات استنزالات مواد امداد مدد ربه ، هذا له أعمال ، وهذا له أحوال ، هذا من المقربين ، وهذا من المختصين ، هذا فى خلوته ،وهذا فى جلوته ، هذا فى عزلته ، وهذا فى بدليته ، وقطبيته ، هذا فى الجمع مخلى ، وهذا فى الجمهور مجتلى ٠٠ هذا بين الناس ، وهذا عنهم باين ، وفى موطن القرب ساكن ، المنتهى ممتلىء بين الجلاس والمبتدىء يفر من مخالطة الناس ليقوى العمارة والاساس » ٠

خامسا : لا يصح لمريد أن يتكلم فى الطريق وفى التربية الا بعد اذن من أستاذه ٠

لان التربية بدون اذن من الاستاذ العارف معناها : اشباع الاغراض والشهوات الشخصية ، بدون أن يبلغ الشخص المستوى الذى يؤهله للمهمة التى صدر نفسه بها ، وفى ذلك هلاكه وهلاك من تبعه .

يقول (يجب على المريد ألا يتكلم قط الا بدستور شيخ أن كان جسمـه حاضرا ، وان كان غائبا يستأذنه بالقلب ، وذلك حتى يترقى الى الوصول الى هذا المقام فى حق ربه عز وجل ، فان الشيخ اذا رآه هكذا رقاه الى الادب مع الله ، ورباه بلطيف الشراب ، وسقاه من ماء التربية « ويا شقاوة من أساء »)(٢) .

(١) الكواكب ٢٢٩/ب وما بين علامتى التنصيص من كتاب الجوهرة ٠
(٢) الطبقات الوسطى ١/١٠٣ وما بين تنصيصتين فهو من الكبرى ٠

ويمتد هذ االحكم على جميع حركات المريد وسكناته ، فلا يفعل شيئا الا بعد مشورة شيخه ومربيه : من زواج او سفر او عزلة او مخالطة او اشتغال بعلم ، او ذكر او اوراد وفى ذلك .يقول « هكذا كانت طريقة السلف والخلف مع اشياخهم ، فان الشيخ هو والد القلب ويجب على الولد عدم عقوق الوالد ، ولا يعرف العقوق ضابطا يضبطه ، انما الامر عام فى سائر الاحوال ، وما جعلوه الا كالميت بين يدى الغاسل فاياكم ومخالفة الاشياخ فان كثيرا من الفقراء صحبوا الاشياخ بلا ادب فماتوا بغصصهم ، آه من صدود الرجال ومن صحبة الاضداد » .

ذلك لان المريد اذا اتبع هواه قد يسلك مسلكا يظنه صحيحا وهو باب من ابواب الحظوظ النفسية التى لا تنتهى فيزداد مقتا وطردا . فلا يدخل فى مسلك ولا فى عبادة الا باذن من مربيه حتى الخلوة نفسها « لا تفيد الخلوة للمريد الا ان كانت باشارة شيخه والا فضررها اكثر من نفعها » .

يقول صاحب الهائية العارف ناصر الدين بن بنت الميلق ، (فى آداب المريد مع استاذه (١) :

اخلص ودادك صدقا فى محبته — والزم ثرى بابه واعكف بناديه
واستغرق العمر فى آداب صحبته — وحصل الدر والياقوت من فيه
وابذل قواك وبادر فى أوامره — الى الوفاق وبالغ فى مراضيه
واحذر بجهدك أن تأتى ولو خطأ — مالا يحب وباعد عن مناهبه
وكن محب محبيه وناصرهم — والزم عداوة من أضحى يعادبه
واعلم يقينا بأن الله ناصره — ان لم تكن ناصرا فالله يكفيه

الى ان قال :

واترك مرادك واستسلم له ابدا — وكن كميت مخلا فى أياديه
اعدم وجودك لا تشهد له اثرا — ودعه يهدمه طورا ويبنيه
متى رايتك شيئا كنت محتجبا — برؤية الشىء عما انت ناويه
ولا ترى أبدا عنه غنى فمتى — رأيت عنه غنى يخشى تناسيه

---

(١) شرح الهائية المسمى (حال السلوك الى ملك الملوك) لابن علان الصديقى — مخطوط بالمكتبات الازهرية . وصاحب الهائية هو قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن عبد الدائم الانصارى الشاذلى (٧٣١ — ٧٩٧ هـ) .

ان اعتقـــادك ان لم تأت غايتـــه	فيه فيوشك أن تخفى مبــــاديه
وغاية الامر فيـــه أن تراه عــلى	نهج الكمـــال وان الله هــــاديه
وليس ينفع قطب الوقت ذا خــلل	فى الاعتقاد ولا من لا يواليــــه
الا اذا ســبقت للعبـــد سابقـــة	يعود من بعد هــذا من مواليــه
فنظرة منه ان صــحت اليه على	ســبيل ود باذن الله تغنيـــه

من شروط المريد الصادق

سلوك الطريق ليست دعوى من الدعاوى يدعيها كل جاهل أو يطمع فيها كل كاذب او منافق باع دينه بدنياه ، فان العارفين قد بينوا كل ما يتعلق بآداب الوقت والمعاملات فمن ادعى انه من المربين طالبوه بشروط القيام بالتربية فاذا انطبقت عليه سلموا له · ومن ادعى الارادة طالبوه بشروط المريد الصادق فاذا انطبقت عليه فتحوا له الباب ، وان لم تنطبق عليه نصحوه بالاكتفاء بما هو عليه ·

والشرط الاساسى فى كل مريد صادق هو ملازمة الشريعة والتخلى بآدابها « من لم يكن متشرعا متحققا عفيفا فليس من اولادى ولو كان ابنى لصلبى ، وكل من كان من المريدين ملازما للشريعه والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة والزهد والورع وقلة الطمع ، عاملا بما علم فهو ولدى وان كان من اقصى (١) البلاد » ·

فهذا هو النوع الذى تفيده التربية جاء بجميع الادوات ولا ينتظر غير من يوقد له فتيل المعرفة .

ومن تتبع عباراته رضى الله تعالى عنه نذكر بعض هذه الشروط :

١ ــ التوبة الصادقة عن القواطع :

وهى كل ما يحجب عن الله عز وجل ، ولا تتم الا بمعرفته تعالى المعرفة القرآنية المحمدية ، وشروطها الندم على ما سلف والاقلاع عنه فى الحال والعزم على عدم المعاودة فى المستقبل واكثر الناس يتنزهون عن الكبائر الحسية وهم غارقون فى كبائر معنوية هى اشد من الحسية بكثير .

---

(١) الطبقات الوسطى ١٠٣/ب وما بين نصيصنين من الكبرى .

ومنزل التوبة اول المنازل ، واوسطها ، وآخرها فلا يفارقه مؤمن الى الممات ، وهو يصاحبه فى كل منزل ارتحل اليه ٠

يقول : « البس من ثوب التوبة قميصا نقيا ابيض صافيا مصفى مقصورا من نور ، لا فيه كدر ولا قطع : ما ثوب البطالة الا اسود ٠ فالبس ثوبا تقف به بين يدى التواب . والثوب ما هو بالخشن ولا بالصفيق والرقيق ولا بتخن الزيق ، انما هو ثوب حسنك المروق » ٠

٢ ـ ملازمة ذكر الله عز وجل

فذكر الله عز وجل هو منشور الولاية لمن صدق واخلص ، وذكره عز وجل هو المنزلة الكبرى الشاملة لكل منزل حق وصدق (ولذكر الله اكبر)

هو قوت القلوب ، وعمارة الديار ، ودواء الاسقام :

اذا مرضنا تداوينا بذكركم فنترك الذكر أحيانا فننتكس

به تنقشع الظلمات وتتبدد الحجب وتصفو النفوس وتطهر من ادناسها : هو الباب الاعظم المفتوح بين الله عز وجل وبين عباده مالم يغلقوه بغفلاتهم ، وعلامة ذلك فقدان الحلاوة عند الذكر او سماعه ٠ والفلاح معلق باستدامة الذكر ، والخسران معلق على الاعراض عنه ، والذاكرون الله كثيرا هم المفردون فى العناية الالهية بالدرجات العليا ، وفى المسند مرفوعا من حديث ابى الدرداء رضى الله تعالى عنه (الا انبئكم بخير اعمالكم وازكاها عند مليككم وارفعها فى درجاتكم وخير لكم من اعطاء الذهب والفضة وان تلقوا عدوكم فتضربوا اعناقهم ويضربوا اعناقكم ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : ذكر الله عز وجل) (١)

٠ وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل اى العباد افضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال الذاكرون الله كثيرا ، قال : قلت : يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله « قال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله افضل درجة) رواه الترمذى ورواه البيهقى مختصرا قال قيل يا رسول الله اى

---

(١)ورواه ابن أبى الدنيا والترمذى وابن ماجه والبيهقى والحاكم وقال صحيح الاسناد .

الناس اعظم درجة قال الذاكرون الله كثيرا) وهذا الجواب من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم وبيانه المعجز للعالمين : اذ مدار سعادة الدارين على ذكر الله تعالى .

وذكره عز وجل بالقلب وباللسان وبالسر وبالقول وبالعمل وبالعلم ، وكم من ذاكر لا يتأدب مع خالقه فيذكر ويعج بصوته وهو ملعون : لانه يعصى الله تعالى ويذكره ! فكم من ذاكر غافل ، وكم من صامت يذكر الله بجميع ذرات وجوده !

وما ذكره من لم يعرفه عز وجل : ومعرفته تعالى تقتضى معرفة تعلق الوجود خلقا وامرا بالاسماء الحسنى وصفاته العليا ، فالعالم وما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها ومن المحال تعطيل اسمائه عن اوصافها ومعانيها ، وتعطيل الاوصاف عما تقتضيه من أفعال وتعطيل الافعال عن المفعولات ، كما يستحيل تعطيل المفعولات عن الافعال ، والافعال عن الصفات والصفات عن الاسماء وتعطيل اسمائه وصفاته عن ذاته المقدسة . كما ان فرض تعطيل كمالاته عن موجباتها مستحيل .

ويترتب على ذلك ويستلزم هذا ان المعرفة الصحيحة لله عز وجل غير ممكنة الان الا عن طريق واحد هو الوحى القرآنى كما بينه خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه . فمن عرف الله عز وجل المعرفة القرآنية فقد ذكره الذكر الدائم الذى لا يزول .

يقول رضى الله تعالى عنه (يجب على الفقير ان يطهر اعضاءه وقلبه من الغفلات عن ذكر الله تعالى كما يجب ان يطهرها عن المعاصى الظاهرية من باب حسنات الابرار سيئات المقربين) (١) (من قام بالاسحار ولازم فيها كشف له عن الانوار وسقى من دن الدنو وخمر الخمار وطلعت فى قلبه شموس المعانى والاقمار ، فاعمل يا ولدى بما اقول تنال القبول) (٢) .

ويصف المحبين فى اجتهادهم بقوله :

[اذا جن عليهم الليل باتوا قائمين فاذا هب عليهم نسيم السحر مالوا مستغفرين فلما رجعوا عند الفجر بالاجر نادى منادى الهجر يا خيبة النائمين)

---

(١) الطبقات الوسطى ١١٠/ب .
(٢) طبقات البقاعى ١١٦/أ .

(فياهذا لو رأيت القوم وقت نسمات الاسحار وتجلى الانوار لرأيتهم كأنهم الكواكب والبدور تتلألأ وجوههم بالنور : « كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور » : جنات عدن مفتحة لهم ابوابها قطوفها دانية وقصورها عالية وفيها مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) (١) ٠

٣ ــ الصبر والصدق والعزم الذى لا يلين فى سبيل اللل عز وجل .

وهذه الاخلاق تميز الكاذب من الصادق ، والمدعى من المخلص ، والمؤمن من المنافق والصبر هنا يقصد به الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصية الله ، والصبر على الجهاد فى سبيل الله تعالى يجمع ابواب الصبر ٠

وحقيقة الصبر ان يكون بالله (واصبر وما صبرك الا بالله) ٠

والصبر لله والباعث عليه حب الله تعالى لا لغرض نفسى كاظهار القوة ، او التحبب الى الخلق .

والصبر مع الله ، وهو دوران العبد مع الشريعة لا ينفك عنها فى جميع شئونه ، قد جعل نفسه وفق اوامره عز وجل ٠ قال الجنيد (هجران الخلق فى جنب الله شديد ، والمسير من النفس الى الله صعب شديد ٠ والصبر مع الله اشد) وهو درجات قال يحيى بن معاذ : صبر المحبين اشد من صبر الزاهدين ٠ واعجبا ! كيف يصبرون ؟ وانشد :

والصـــبر يجمل فى المواطن كلهـــا الا عليـــك فانه لا يجمــــــــل

ووقف رجل على الشبلى فقال : اى صبر اشد على الصابرين ! فقال : الصبر فى الله ٠

قال السائل : لا ٠ فقال : الصبر لله : فقال لا ٠ فقال الصبر مع الله فقا : لا . قال اشبلى : فايش هو ؟ قال : الصبر عن الله فصرخ الشبلى صرخـــة كادت روحه تتلف ٠

والعامة تظن ان الصبر هو الصبر على الظلم والاستعباد والمعصية وهذا يكاد ان يكون كفرا لمخالفته الصريحة لنصوص الشريعة ٠

فهو من الكبائر التى يعاقب عليها الانسان ويذم عليها ، فجعل العوام المذمة محمدة ، والسيئة حسنة نعوذ بالله تعالى من الضلال وفساد العقائد ٠

---

(١) الجوهرة ص ٤٣ ٠

يقول رضى الله تعالى عنه (علامة المريد الصادق ان يكون سائرا فى الطريق ليلا ونهارا غدوا وابكارا ، لا مقيل له ولا هدوء ، جواده قد فرغ من اللحم [١] . وامتلأ من الشجاعة والعزم ، وقد شقت مطيته السرى ،واسقمها البرى ، لا يفند همته مفند (٢) ، ولا يهو له مهلك ، ولا ترده ضربات الصوارم ، ولا يفتله (٣) شيطان غوى ، ولا مارد جنى كل من خاصمه فى محبوبه عاد مخصوما لا يهدأ ولا ينام ولا يصحو بل الدهر كله عنده سواء حتى يدخل خيام ليلى ويضع خده على اطناب خيامها ، ويسمع خطابها بالترحيب ، وهناك يتنفس ويطيب ، ويسمع القائل يقول [٤] « استرح يا طول ما قطعتبرارى وقفارا ، وجبالا وبحارا ، وظلاما نارا : يا طول ما تعبت وتعنيت ، يا طول ما رجع غيرك من الطريق وجئت فأكرم الله مثواك ولا خيب مسعاك ، انت اليوم نزيلنا وضيفنا ، وضيافتك لا تنقضى » [٥] .

وجاء مرة فقير يطلب منه ان يلبسه الخرقة : فنظر اليه وقال : يا ولدى التلبيس فى الامور ما هو جيد : لا يصلح للبس الخرقة الا من درسته الايام وقطعته الطريق بجهدها ، واخلص فى معاملته وقرأ معانى رموز الطريق ، ونظر فى اخبار اهلها وعرف مقاصدهم فى حركاتهم وسكناتهم واسفارهم واخلاقهم ، فان كنت يا ولدى تعقد التوبة فى هذا الوقت فلا تكن مجونيا ولا لعابا ولا صبى العقل ، فما الامر بقول العبد تبت الى الله باللفظ دون القلب ولا بكتابة الورق والدرج وانما التوبة ان يتوب العبد عن ان يلحظ الكون بعينى قلبه او يراعى غير مولاه ، فاذا صح للفقير هذا الامر « هناك ترجى له صحة التوبة »(٦) .

« صف اقدامك فى حندس الليل ولا تكن ممن يشتغل بالبطالة ويزعم انه من اهل الطريق فان من استهزأ بالطريق استهزأ به » .

---

(١) يشير الى الجوع الذى يقصد منه تقوية الهمة والروح .

(٢) وفى نسخة « لا يقيد همه مقيد » .

(٣) لا يرده .

(٤) فى الطبقات الكبرى بدلا من العبارة التى بين علامتى التنصيص (أنت اليوم ضيف عندنا ، ويومنا لا انقضاء له أبد الابدين ودهر الداهرين) .

(٥) الطبقات الوسطى ١/١٠٧ .

(٦) الطبقات الوسطى ١/١٠٨ — وفى الكبرى بدلا من العبارة التى بين علامتى التنصيص (فهناك يصلح للرقى فى مقامات الرجال) .

وكان يقول : « قوت المريد الجوع وافطاره الدموع ، وفطره الرجوع ، يصوم حتى يرق ويلين وتدخل الرقة قلبه وتتفتح مسامع لبة ويزول الوقر من سمعه فيسمع حينئذ القرآن ومواعظه بقلب حاضر فينتفع واما من اكل ونام ولغا فى الكلام وترخص وقال ، ما على فاعل ذلك ملام فانه لا يجىء منه شىء والسلام»

فطالب الحق عز وجل لا يعرف فى الوجود غير خالقه : وجوده فى خلوته مع مولاه ، لا لذة له فى الحياة ولا يطيب له عيش الا اذا اجتلاه بجميع ذرات وجوده « خلوة الفقير سجادته وخلوته سره وسريرته ، والخلوة المشار اليها هى الخلوة الكبرى وهى عدم دخول شىء بين العار فوبين الحق عز وجل ، وهذه لا يهم فيها وجد مع الناس ام كان وحده . اما الخلوة المكانية بمعنى الجلوس فى مكان لا يصل اليه فيه احد فقد تكون اشر من المخالطة .

وهذه الخلوة الكبرى لا يطيقها الا عامل بالشريعة مقتد بآثار سيد الوجهاء والاصفياء صلوات وسلامه الله عليه ، اذ لا تتم الا على اساس العلم والنور القرآنى .

ومن صدق فى الطلب انفعلت له الاشياء « عليكم يا اولادى بالصدق مع الله ، فمن صدق مع ربه واخلص لا يلمس احدا فى نوم او يقظة الا برىء من الامراض ونبعت من قلبه الحكمة ، وحصل عنده الزهد فى هذه الدار ، فان الدنيا كحلقة بين اعين أهل التمكين لا يلتفنون اليها لحقارتها(١) يا أولادى لا احب منكم الا من كان يترقى فى كل ساعة من مقام الى مقام ، وهناك تقر عينى به . يا ولدى ان اردت ان يسمع الحق تعالى دعاك فاحفظ لسانك عن الكلام فى الناس وبطنك عن تناول الشبهات « يا ولدى ان شككت فى قولى فافعل ما اقول لك وجرب نفسك شيئا بعد شىء تعرف صدق قولى ، فمن ثبت ثبت ، ومن اطاع اطيع ، فاذا اطعت مولاك اطاع لك الماء والنار والهواء والخطوة والانس والجن » (٢)

ومن علامات الصدق فى الطلب :

المبادرة بالاعمال قبل فوات الاوان . يقول فى ذلك : ؟ يا اولادى عمركم فى انتهاب ، واجلكم فى اقتراب ، وقد طويت الدنيا ، وجثا اولها عند آخرها :

(١) الدنيا هى كل ما حجبك عن الله تعالى — وعرفها الامام الشعرانى بأنها ما زاد على الحاجة الشرعية .

(٢) الكواكب الدرية والطبقات الوسطى ١٠٩/أ وما بين التنصيصتين من الكبرى .

فالسعادة كل السعادة لمن طوى منكم صحيفته كل يوم مضمخة معنبرة ممسكة معطرة بأعماله الزكية وشيمته المرضية : والشقاوة كل الشقاوة لمن طوى منكم صحيفته كل يوم على زلات وقبائح ·· يا اولادى كانكم بالساهرة وقد مدت وبالجبال وقد دكت وبالحجارة وقد صاخت وبالحصا وهو يقطر دما ، فبادروا واعملوا ولا تسرفوا تندموا : هذه وصيتى لكم وهديتى اليكم ! ·

« سألتكم بالله يا أولادى أن تكونوا خائفين من الله تعالى ، فانكم غنم السكين وكباش الفناء ، وخراف العلف : يا من تنور شواهم قد وهج ·

ويا من السكين لهم تحد وتجذب قوا أنفسكم وأهليكم نارا »[1] ومن علامات الصدق الاخذ بالعزائم فى كل أمر « طريقتنا هذه ما هى طريقة تمليق بل هى طريقة تحقيق وصدق وتصديق ، وموت وكد وجهد وسهد وكرم وكسر نفس من غير دعوى ، ومن لم يكن عنده خضوع وذل نفس(٢) لا يجىء منه شىء ، فيا أولادى ان عملتم بموعظتى هذه واشاراتى كانت اجازتى لكم صحيحة مطهرة من الشوائب « مكملة بالسر والمعنى فان المقامات ما هى محجوبة عنكم الا بكم »(٣) ·

النـــار منك وبالافعـــال توقـــدها	كمـــا بصالح الأعمـــال تطفيها(٤)
فأنت بالطبع منهـــا هارب أبـــدا	وأنت فى كل حال فيك تشبيهـــــا
أما لنفسـك عقـــل فى تصرفهـــــا	وقد أتيت اليها اليوم تشقيهـــا ؟ !

ويقول : « يا ولد قلبى تجرد من قالبك الى قلبك والزم الصمت عن الاشتغال بما لا فائدة فيه من الجدل وزخرف القول وصمم العزم ، واركب جواد الطريق » (٤) ·

ولا يرضى لمريده الا مقام الجمع أو الفرق فيقول : « ولا تشرب الا شرابا فيه صحو أو سكر » ·

---

(١) الطبقات الوسطى ١٠٣/ب ـ يشير رضى الله تعالى عنه الى أن كل مخلوق مآله الموت فى الدنيا فاذا كان الامر كذلك فعلام عبادة الدنيا والام الاعراض عن الله عز وجل !

(٢) لله عز وجل لا لمخلوق وان شئت فتأمل قوله تعالى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وكل من تذلل لمخلوق لم يزده الله تعالى الا ذلا ·

(٣) الطبقات الوسطى ١٠٨/ب وما بين علامتى التنصيص من الكبرى ·

(٤) نشر محاسن الملوك على تائية السلوك : شرح تائية العارف الشرنوبى للعلامة على بن عامر الاتبابى المالكى البرهانى ـ ١/٢٣٤ · مخطوط بمكتبة الازهر ·

(٥) طبقات الابرار للبقاعى ق ١١٦/أ ·

« يا ولدى صحح عزمات عزمك واترك تخيلات وهمك ، ولج بحر الحقائق وسلم الامر لله ، واقتد واقتف أوامر شيخك ، وألق عصاك ، ولا تطلب خبر نفسك من غيرك بل اعمل حتى تنكشف لك حقائقك : من عرف نفسه عرف ربه » ٠

« يا اولاد قلبى ، ان اردتم ان تنادوا يوم المنة : ياايتها النفس المطمئنة فليكن طعامكم الذكر وقولكم الفكر ، وخلوتكم الانس ، واشتغالكم بالله تعالى لا خوف عقاب ولا رجاء ثواب ، ولابد لكل من معلم ، ونحن ننتظر من فيض ما افاض الله علينا ولا نعرف غير طريق ربنا ، وثم علم مكسوب من الكتب ، وعلم موهوب من قبل ربنا » ٠

« من أحب أن يكون من أولادى حقا ، فليقم قياما دائما ، وليجاهد نفسه جهادا ملازما ، ولا يمل ولا يولى ولا يرخص لنفسه فى ترك الاشتغال بالعبادة بحجة خوف الملل ، فان الناقد بصير والنفس من شأنها التلبيس على صاحبها ٠

٤ ــ الفرار من كل ما يقطع عن الله عز وجل :

لايمكن لمخلوق ان يذوق معرفة الخالق المعرفة الصحيحة مالم يتخلص من حجبه النفسية التى تشمل تعلقه بكل ماسواه عز وجل ، ويكون الحجاب كثيفا او رقيقا تبعا لشدة التعلق أو ضعفه ، وتتعدد الحجب بتعدد المتعلقات ، ولا يتيسر قطع مقامات النفوس ــ وهى اشد شىء على المريد ــ الا لمن صحت عقيدته ، واهتدى بهدى امام الهداة صلوات الله وسلامه عليه فأصبح ايمانه بالله عز وجل هو مصدر كل شىء فى وجوده ، المنظم لعلاقاته بالموجودات وحينئذ يكون رحمة لكل من عرفه ، هذا هو المراد من الفرار من السوى ، وليس الامر كما يظنه الجهلة من ان المقصود منه هو العزلة والانقطاع الحسى عن الخلق ! فهذا مستحيل ، وقد يكون أحد الرهبان فى صومعته أشد تعلقا بالاشياء ممن يتصرف فى الاشياء ، فالمسألة اذن مسألة وجود الشىء بالنسبة لك : هل يحجبك عن خالقك ؟ وما شدة هذا الحجاب ؟

واذا قطع المريد مقامات النفس كان تعلقه بالموجودات مصدره تعلقه بمولاه فيصح له ان يقول مًا رأيت شيئا الا رأيت الله قبله او بعده ، ولايغيب فى رؤيته عن المعية الالهية والاحاطة القدسية بوجوده ووجود المخلوقات ، هذا وأمثاله

يتصرف فى الاشياء بالله لا بشهوة نفسه وحينئذ يكون تصرفه خاليا من الانحراف أو النزعات والاهواء الشخصية التى تفسد كل عمل . وهذا هو المقصود من قوله :

« أحب من أولادى من كان متنسكا لا يفتر ولا يحيد ، خاشعا خاضعا حمالا للاذى ، سكران من حب مولاه لا التفات له الى زوجة ولا الى ولد ولا اخ ولا صاحب ولا وظيفة دنيوية ، اهتماما بمولاه حتى صار لا يلتفت لسواه » . ثم يعطى المريد ميزانا يزن به حاله فيقول :

«كيف يطلب احدكم ليلى وهو ليلا ونهارا مع عذالها ولوامها والمنكرين على أهل حضراتها والمعترضين عليهم ، والخائضين فى أعراضهم ، والخائنين لعهودهم ! .. انما تبرز ليلى لمن تهتك فيها ولم يقبل عذل عذالها ، فان ليلى لا تحب من يكره أهل حضرتها أو يحب سواها ، وانما تحب من كان بشرابها ثملا ولهان ذهلان غرقان نشوان هيمان ، حتى لو اجتمع الثقلان على أن يلووا قلبه عنها أو يحلوا عقدة عهدها معه ما استطاعوا ، فانظروا أحوالكم يا أولادى » .

ومما ينسب اليه رضى الله تعالى عنه :

اذا لم يكن معنى حديثك لى يروى ... فلامهجتى تشفى ولا كبدى تروى
نظرت فلم انظر سواك احبه ... ولولاك ما طاب الهوى للذى يهوى
ولما حلا لى الذكر فى خلوة الرضا ... وغبت فقال الناس ضلت بك الاهوا
لعمرك ما ضل المحب وما غوى ... ولكنهم لما عمموا اخطأوا الفتوى
ولو شهدوا معنى جمالك مثلما ... شهدت بعين القلب ما اخطأوا الدعوى
خلعت عذارى فى هواك ومن يكن ... خليع عذار فى الهوى سره نجوى
ومزقت أثواب الوقار تهتكا ... عليك وطابت فى محبتك الدعوى
فما فى الهوى شكوى ولو مزق الحشا ... وعار على العشاق فى حبك الشكوى
وما علموا للحب داء سوى الهوى ... وعندى اسباب الهوى كلها أدوا
وقد كنت من خوف الهوى اتقى الهوى ... ولكن اذا اشتد الهوى غلب التقى

وينسب اليه قوله ،

يا من حلا الصبر فى هواهم ... بعزة الوصل والدلال
والله ما لى منى سواكم ... بالله رفقا بضعف حالى
وافيت فى حبكم وفاتى ... مالى وللحياة ومالى
حبى دعانى الى التدانى ... لبيك يا داعى الجمال

ومن لوازم ذلك الخروج الخظوظ النفسية :

وكل من خالف الشريعة فهو حظ نفس بصرف عن الله تعالى ، ولا يزال المرء يرعى فى المخالفات حتى تنقطع صلته بالشريعة فلا يستعذب الا مخالفتها :

وخالف النفس والشيطان واعصهما	وان هما محضـــاك النصح فاتهم
والنفس كالطفل ان تهمله شب على	حب الرضاع ، وان تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليـــــه	ان الهوى ما تولى يصـــم أو يصم
وراعها وهى فى الاعمال ســــائمة	وان هى استحلت المرعى فلا تسم

واذا وصل المرء الى التلذذ بمخالفة الشريعة فقد تردى فى هوة الشقاء اللا نهائية ولا خلاص له منها ، ويكون قد باع ايمانه بالله تعالى وصلته بخالقه بلذات وهمية كلما قضى منها لذة تطلبت أخرى وهكذا ، ولذا نجد أن المعرضين عن الخالق عز وجل لا يشبعون من الدنيا لان نفوسهم قد نسيت الطريق المستقيم وسلكت سبل الهوى ، ولا يغرنك تنعمهم بما هم فيه ، فهو من قبيل تنعم اهل الشقاء بالشقاء اذا ما اعتادوه فهى لذة تعود ، فالجاهل يتنعم بالجهل ولو نقلته الى نعيم العلم لانقلب عليه جحيما ، وهذا هو السر فى مطاردة العلماء والتضييق عليهم ، ومن استمرأ اللذات الصارفة عن الهدى المحمدى يخشى عليه سوء الخاتمة لانه بحكم العادة لا يتلذذ الا بما يصرفه عن خلقه ولو كان كفرا .

يقول رضى الله تعالى عنه :

« من أحب أن يكون ولدى فليحبس نفسه فى قمقم الشريعة وليختم عليها بخاتم الحقيقة ، ليقتلها بسيف المجاهدة وتجرع المرارات »

« اول الطريق الخروج عن النفس والحظ والرضا بالضيق والتلف ، فان الفلاح « والنجاح والارباح » لا يصح الا لمن ترك الحظ وقابل الاذى بالاحتمال ، والشر بالخير ووسع خلقه » .

« والفقير لايكون له يد ولا لسان ولا كلام ولا تصرف ولا شطح ولا فعل ردىء ولا يصرفه عن محبوبه صارف ولا ترده السيوف والمتالف .

« من لم ينخلع عن طوره ويخرج عن نفسه ويأتى بلا هو لا يجد عند ذلك هو ، وقد بالغت لكم جهدى فى النصح فان اتبعتم أفلحتم » .

ومن لوازم الخلاص من كل ما يقطع عن الله عز وجل :

الانشغال بما هو ضرورى لعلاج الدين والدنيا :

فمن أحكم الشريعة دخلت دنياه بحكم الضرورة فى دائرة دينه ، وكان دينه محيطا بدنياه وغيرها من مستلزمات وجوده ومقتضياته .

وهناك أمور تبدو فى ظاهرها مستحسنة مطلوبة لازمة وهى غير ضرورية بل قد تكون فاتحة هلاك للشخص : كمن يطلب الرياسة لنفع الناس فاذا ما وصلها أهلكهم ، وكمن يطلب العلم لا للتعلم ولكن للتوصل به الى أغراضه النفسية ، وهنا تباع الصكوك والفتاوى والاحكام والاستنتاجات ، ومن هذا الباب ولج كل خسيس دنىء رحبة العلم الطاهرة فما نال الا ما ناسب حقارة نفسه .

يقول فى ذلك : « يجب على المريد ان يأخذ من العلم ما يجب عليه فى تأدية فرضه ونفله ولا يشتغل بالفصاحة والبلاغة فان ذلك يشغله عن مراده » .

ويقول : « لا يجب على المريد من العلم الا بقدر ما يعرف أنه يعمل به ، ثم يشتغل بالفحص عن اخلاق الصالحين ويعمل بها » .

اما بعد فراغه من استكمال نفسه فله ان يتبحر فيما شاء ، ذلك ان الجرى وراء ما هو ليس بضرورى يشغل عن تحصيل الضرورى ، وهو ما تكمل به النفس ، وكثير من ادعياء الصوفية يحصرون همهم فى قراءة كتب الصوفية والسؤال عن مقامات هم أبعد الناس عن العلم بها فضلا عن ذوقها ، وهم يظنون ان هذا هو التصوف الخالص وليس ذلك منه فى شىء .

« أهل هذا الزمان ما بقى عندهم الا المناقشة ، فاما يسألون عن معنى الصفات أو معنى الاسماء أو معنى مقطعات الحروف ، وهذا لا يليق بالمبتدىء السؤال عنه ، وأما المتمكن فله أن يلوح بذلك لمن يستحقه فان علمها طريقه الكشف لا غير .

« واما من اشتغل بحفظ كلام الناس او جمع الحقائق ولسان المتكلمين فى الطرق والطريقة ، فمتى يعيش عمرا آخر حتى يفرغ من عمر الفناء الى عمر البقاء ! فان القوم كانوا محبين وكل منهم يتكلم بلسان محبته وذوقه فهو كلام لا يحصر وبحر غرق فيه خلق كثير ، ولا وصل أحد الى قعره ولا الى ساحله ، وانما يذكر العارف كلام غيره تسترا على نفسه او تنفيسا لما يجده من ضيق الكتمان آه ، آه ، آه ..

« ولقد شهد الله العظيم انى ما اتكلم قط او اخط فى قرطاسى الا وأتوخى ان يكون ذلك بيانا لمعنى غامض على الناس لا غير ، فان الصدق قد ذهب من أكثر الناس » .

بل قد يوجد من يضع رسالة فى ترجمة عارف من كبار العارفين العلماء بالله عز وجل ، فاذا به يهرف بما لا يعرف ويخلص الى نتائج لاتمت الى المعرفة بل ولا الى العلم بصلة ، ولو سلمنا له أباطيله لهبط بمن يترجمه الى مرتبته هو لانه لايتحدث الا عن نفسه لا عن العارف فى كل ماتصف بالنفس وشئونها ، ذلك لان جميع العارفين علومهم ذوقية لا دخل للمحابر والطروس فى اكتسابها ، ولذا رفض كثير من كبار الكمل أن يكتبوا شيئا من علومهم ، وكانوا كلما طلب منهم ذلك يقولون « كتبنا صدور الرجال » اذ ان كلامهم ينكره كل محجوب عن ذوقهم ومشربهم ومن هؤلاء الامام أبى الحسن الشاذلى ، فانه لم يؤلف ، وكذا تلميذه العارف المرسى وكثير من كمل العارفين .

٥ ـ التحلى بمكارم الاخلاق والتخلى عن سفاسفها

ومن عزل الاخلاق عن الطريق فما جاء بشىء ، وسئل بعضهم عن التصوف ، فقال هو الخلق الحسن ، ودنىء الاخلاق وسفيهها وخسيسها لا يصلح لا لدين ولا لدنيا .

على الاخلاق هدوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن

وقد فصلت الشريعة جميع المراتب البشرية الممكنة من أدناها الى أعلاها ، وبين الانسان الكامل صلوات الله وسلامه عليه كل طريق يقرب الى الكمال ، وفصل كل طريق يقرب من الشر والنقص وحذر من سلوكه أو الاقتراب منه ، فمن تأدب بآداب الشريعة فقد حاز الخير كله ، وملك نواصى الفضل ، فجميع المقامات والمراتب والدرجات مندرجة فى آداب الشريعة السمحة ، وكل أدب شرعى يؤدى الى كمالات لا تخطر على بال بشر ، وهذا من الاعجاز الاحاطى المختص بالشريعة المحمدية .

ومن توجيهاته الخلقية رضى الله تعالى عنه وكل كلامه فيه هذه التوجيهات لشدة اهتمامه بالعلاقات الاجتماعية السليمة :

« من كظم غيظه وعفا عمن ظلمه وآذاه ، رقاه الله الى مراقى الرجال »·

« لا يكمل الفقير حتى يكون محبا لجميع الناس مشفقا عليهم ساترا لعوراتهم ، فان ادعى الفقر وهو بضد ذلك فهو غير صادق » ·

وفى الحديث المتفق عليه : « لايؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » ·

« من شأن الصادق من أولادى ألا يكون عنده حسد ولا غيبة ولا بغى ولا مخادعة ولا مكابرة ولا مماراة ولا مماقتة ولا مكاذبة ولا كبر ولا عجب ولا افتخار ولاشطح عن ظاهر الشريعة ، ولاتصدر فى مجلس ولا جدال ولا انتقاص ولا سوء ظن بأحد من اهل الطريق ولا بمن تزيا بالزيق » ، والزيق يعنى زى الصوفية ·

ويحذر المريدين من داء الغيبة بقوله : « يااولادى اذا طلبتم ان تغتابوا احدا فاغتابوا والديكم فانهما أحق بحسناتكم من غيرهما ! » .

« الغيبة فاكهة القراء وضيافة الفساق ، وبستان الملوك ، ومراتع النسوان ومزابل الاتقياء » ولا غيبة لفاسق ·

ويجب أن ينزه المريد نفسه عن حب الرياسة والتعالى على الغير فان ذلك يورث فساد الباطن ويتبعه فساد العلاقات بالغير ، فلا تحرك هذه العلاقات : سوى الاغراض والاهواء ، ويتبدد نشاط المجتمع فى الضرر أكثر من النفع ، اذ ينصرف هم كل فرد الى الوقيعة بالاخرين فينقطع مايجب ان يوصل ، وتحل الكراهية محل الحب والوفاق ·

فمن شرط الفقير « ألا يكون عنده التفات الى مراعاة المخلوقين له فى الحرمة والجاه والقيام والقعود والقبول والاعراض وغير ذلك من الاحوال الظاهرة وليرع الله وحده فانه هو سيده ورازقه ومحييه ومميته » ·

٦ ــ مجالسة أهل الحق سبحانه :

يستعين السالك أثناء سيره فى الطريق بأكبر سبب يساعده على تمام السير ، ألا وهو مجالسة أهل الحق عز وجل ، ويؤكد أهل الطريق أهمية هذا

الركن فى ارشاداتهم ومؤلفاتهم ومجالسهم ويعدونه بعد الاستاذ فى الاهمية ، ذلك لان الارتباط فى الله تعالى بين السالكين يحصل به من اشعال جذوة السلوك ما يحصل المربى تقريبا ، ومدى الارتباط مع الغير فى الله عز وجل هو الذى يبين لك مدى صدقك فى دعواك فى حب الله تعالى ٠

فاذا كان المريد صادقا فى دعواه ، اهتم بهم وتفقد أحوالهم وساعد ضعيفهم وواسى فقيرهم ، وبادر الى خدمتهم وكف أذاه عنهم وآثر المحتاج منهم ، وأقال عثرة من ذل ، وعفا عن المسىء .

اما الكاذب فى دعواه فانه : ينصرف عن الاهتمام بهم ولا يكترث بأحوالهم ، ويبادر الى الخلاف كلما ظن أنهم أساؤا اليه ويحاول أن يستغلهم لاغراضه الدنيوية مستغلا طيبتهم وصلاحهم ، ويجتهد فى أن يؤثر نفسه بالخير دونهم ٠

والمحبة الروحية بين المتحابين بمثابة الاسلاك الكهربائية يسرى فيها التيار بحسب جودتها وطاقتها وجهدها فتسطع الانوار والاسرار من أحدهم على أخيه فيزداد نوره ويقوى غذاء روحه ٠

وعلى الضد من ذلك ، مجالسة اهل الباطل او المنصرفين عن الله تعالى لا تزيد صحبتهم الا الخسران والنقص فى كل خير :

« يا اولاد قلبى ، لا تجالسوا ارباب المحال وزخرف الاقوال ولقلقة اللسان ، وجالسوا المقبلين على ربهم الذين اخذت منهم الطريق ، ودقهم التمزيق وتفرق عنهم كل صديق ، حتى عادوا كالخلال ، وذابت اجسامهم من تجرع المرارات والسموم فهو انفع لكم » ٠

أحب من الاخـــــوان من سره	أصفى من اليــاقوت والجــــوهر
ومن اذا سرك أودعتـــــــــه	لم يظهــــر السر الى المحشــر
ومن اذا أذنبت ذنبـــــــا أتى	معتــــذرا عنــك ولم يصـــبر
ومن اذا غبت عـــن عينـــه	اقلقـــه الوجـــد ولـم يـــذكر

٧ ـ تعظيم جانب الحق عز وجل :

وعلامته شهود التقصير الذاتى فى جناب الله تعالى وفى ذلك يقول :

« العارف يرى حسناته ذنوبا ، ولو آخذه الله تعالى بتقصيره فيها لكان عدلا » ·

ومن علاماته الخشوع : « والله لو خشع قلب احدكم فى صلاته مثلا لاختلط عقله وذهب لبه ، ولم يقدر على قراءة سورة واحدة من كتاب الله فى تلك الحضرة ، فان موسى عليه السلام خر صعقا متخبطا كالطير المذبوح ، مع كونه ما تجلى له من عظمة الحق تعالى ، كما قيل ، الا مقدار جزء واحد من تسعة وتسعين جزءا من سم الخياط ، فاذا كان هذا حال اولى العزم من الرسل فكيف بأمثالنا الغارقين فى شهوة بطونهم وفروجهم ، وهذا التجلى واقع لكل مصل لو عقل عقل موسى ، فالحمد لله على كل حال »(١) .

---

(١) الطبقات الوسطى : ١٠٩/ب .

(الافات النفسية والخلقية القاطعة عن الطريق المستقيم)

القاطع الجامع هو عدم القيام بآداب الشريعة ، وخيانة العهد « من ادعى الطريق وخالف قواعدها وآدابها رفضته كرها عليه » ٠

« جعلنى الله خصم من شهر نفسه بطريقتنا ولم يقم بحقها واستهزأ بنا » ٠

« من احدث فى طريق القوم ما ليس منها فليس هو منا ولا فينا ٠ قال الله تعالى « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** » .

« من خان لا كان ٠ ومن لم يتعظ بكلامنا فلا يمش فى ركابنا ولا يلم بنا » ٠

وقد ادعى الطريق كل جاهل بل كل منافق عليم اللسان ، كما ان العلم سخره الأدنياء لخدمة الحظوظ والاغراض ، وساعف هؤلاء السفلة انتشار الجهل وغربة الدين فزج فى الدين ما الدين منه براء ، وافتى كل مدع بما سولت له نفسه وقال هاكم القول الفصل فى دين الله ولو سئل ما معنى الدين ما راح ولا جاء ولا عرف الصحيح من المريض ، وما نكب الاسلام نكبة بمثل من ادعاه ولم يحفل بالعمل به ، بل ذهب يتمطى ويخوض ويلعب ويفسر الاسلام بما شاءت له الشياطين ، ورحم الله المقدسى اذ يقول :

ذهب الرجال وجال مثـل مجالهم ... زمـــر من الاوبـاش والانـــذال

زعمـــوا بأنهم عـلى آثـارهم ... سـاروا ولـكن سـيرة البطال

لبسوا الدلوق مرقعـا وتقشـفوا ... كتقشـف الابطـــال والابـــدال

قطعـوا طريق السالكين واظلموا ... سبل الهدى بجهـالة وضـــلال

عمروا ظواهرهم بأثـواب التقى ... وحشـوا بواطنهم من الادغـــال

ان قلت قـال الله قال رســـوله ... همزوك همـز المنكر المغتـــال

عن حضرتى عن فكرتى عن خلوتى ... عن جلوتى عن شاهدى عن حالى

عن صفو وقتى عن حقيقة حكمتى ... عن ذات ذاتى عن صـفات فعالى

دعوى اذا حققتهـــا ألفيتهـــا ... القـاب زور لفقت بمحـــال

تركوا الحقائق والشرائع واقتدوا ... بطـرائق الجهـــال والضــلال

جعلوا المرا فتحا والفاظ الخطا شطحا وصالوا صولة الادلال
وترصدوا أكل الحرام تخادعا كتخادع المتلصص المحتال

الى آخر القصيدة

وصفهم الشيخ عبد الكريم (١) الجيلى رضى الله تعالى عنه فى كتابه سر الخلوة فى اوائله من الوصايا حيث قال : « يا اخى رحمك الله ، قد سافرت الى اقصى البلاد وعاشرت اصناف العباد ، فلارأت عينى ولا سمعت اذنى اشر ولا اقبح ولا ابعد عن جناب الحق من طائفة تدعى انها من كمل الصوفية وتنسب نفسها الى الكمل وتظهر بصورتهم ، ومع هذا لا تؤمن بالله ورسله ولا باليوم الاخر ، ولا تتقيد بالتكاليف الشرعية وتقرر احوال الرسل وما جاؤوا به على وجه لا يرتضيه من فى قلبه مثقال ذرة من الايمان » (٢) ٠

فالتصوف ليس بالدعوى ولكنه علم بالشريعة وعمل بها ، ولا ذنب للتصوف ان يدعيه جاهل او ضال مضل او محتال كما انه لا ذنب للعلم لو ادعاه امثال هؤلاء ٠

ومن القواطع :

الاحتجاب بالسوى عن الله عز وجل :

فكل شيء وقفت معه من دون الله تعالى شرك سترك وحجبك عن الحق بقدر تعلقك به ، سواء كان ذلك فى الحس او المعنى ٠

وفى ذلك يقول : « لا يكمل الرجل فى مقام العرفان حتى يفر من قلبه وسره وعمله ووهمه وفكره وعن كل ما يخطر بباله غير ربه ، فآه ، آه ، لو كشف الحجاب عن الاثواب ، وابصر الاعمى الحرف الذى ليس بحرف ولا ظرف ، وفك المعمى وفتح الاقفال ، فواشوقاه لصاحب تلك الحضرات » [١] ٠

فما وقف الواقف الا لعيب طرأ عليه او آفة اقعدته عن قطع مقامات النفس ٠

---

(١) الامام الصوفى الشهير عبد الكريم بن ابراهيم الجيلى (٧٠٧ — ٨٢٦ هـ) وهو من ذرية القطب الشهير السيد عبد القادر الجيلانى أو الجيلى أو الكيلانى فكلها بمعنى واحد ٠
(٢) العلامة أحمد الطاهر الحامدى : الكشف الربانى عن المورد الرحمانى ص ١٦٧ ٠
(٣) الطبقات الوسطى ١٠٥/ب ٠

وكيف يقف ولسان حاله يقول :

أخـــــاطر فى محبتكم بروحى   واركب بحـــــركم اما واما
وأسلك كل فج فى هـــــواكم   واشرب كأسكم لو كان سـما
ولا أصغى الى من قد نهانى   ولى اذن عن العذال صـما
أخاطر بالخــواطر فى هواكم   واترك فى رضـــاكم أبا وأما

بل قد تكون المقامات نفسها من اشد القواطع وامضاها ، فان للمقامات آفات ادركها أهل العلم بالله تعالى ويمكن حصرها فى ثلاثة(١) :

الافة الاولى ، هى آفة التطلع اليها ، اذ ان التطلع لاى مقام يتنافى مع الاخلاص لله تعالى ، وهو تمسك بالحظوظ النفسية الصادرة عن الجهل بمعرفة الله تعالى : وكيف يتطلع الى اى مقام من علم انه لا غاية للعبد يقف معها دون معرفة مولاه اذ الكمالات الالهية لاتتناهى وترقى العبد فى معرفتها لانهاية له .

الافة الثانية : هى آفة الوقوف مع المقامات فمن وقف مع العطية دون المعطى فقد عبد العطية ، والعبد المتحرز من ملكية الاشياء له لا حكم لشىء أو مقام عليه .

الافة الثالثة : هى شهود المرء فى نفسه بأنه من اهل المقامات ، وهذه المشاهدة تخرجه من كمال العبودية لله تعالى وتدل على غلبة الحظوظ النفسية عليه .

يقول القطب الدسوقى «كل مقام وقفت فيه حجبك عن مولاك وكل ما دون الله تعالى وكتابه العزيز ورسوله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين فهو باطل ، وذلك لان الاعراض تورث الاعراض» والاعراض الاولى يعنى اشياء ، والثانية يعنى الانقطاع والانصراف .

ومن اشد القواطع العجب بالنفس :

وهذا الداء العضال من اشد الامراض النفسية فتكا بالبشر ، وهو ما يطلق عليه علماء النفس مرض التركزحول الذات فاذا اشتد تحول الى النرجسية ،

---

(١) راجع مكانة التصوف والصوفية للعارف محمد عيد الشافعى صفحات ٩٥ : ١٠٠ .

او عشق الذات بل ان حب الذات ـ وهو مصدر هذا الداء ـ قد جعله معظم علماء النفس اساسا لتفسير السلوك الانسانى : فكل الافعال والاقوال والحركات مصدرها حب الذات ٠

وكثير من النظريات التى تفسر السلوك الانسانى سواء فى ذلك المادية او الاجتماعية انما ترجع الى نظرية الذات فى الاصل ٠

ونقول ان هذا التفسير صحيح اذا ما أنقطع عن الذات حب الله عز وجل ٠

واعجاب المرء بنفسه وبما يصدر عنها يؤدى الى تدمير نفسه والمحيط الذى يتاثر به ويؤثر فيه : اذ من مستلزمات هذه الافة فرض السيطرة على الاخرين والاستعلاء عليهم ، وعدم المبالاة باحوالهم ، بل تحقيرهم ليظهر هو بمظهر العالى عليهم فى كل امر ، ومن ثم يعطى لنفسه الحق فى الاعتداء على الحقوق ، واهدار الدماء واستباحة الاعراض والاموال ، وصاحب هذه العلة قد تلازمه حالة من الحالات المرضية مثل جنون العظمة او السادية او البخل او جنون الاصلاح (Reformism) فيعتبر نفسه صاحب دعوة يجب على كل من عداه ان ينقاد اليها بلا معارضة ٠

والعاصى التائب المقر بذنبه خير من ملء الارض من مطيع مثل هذا ، ولذا يقول ابن عطاء الله السكندرى (١) فى الحكم « رب معصية اورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة اورثت عزا واستكبارا » ، اذ ان المدار فى كل شأن مبنى على الرجوع الى الحق عز وجل ٠

يقول القطب الدسوقى : « من نظر الى اقواله وافعاله بعين العجب فهو محجوب عن مقام التوحيد ، ولا يزف الولى الى ربه حتى يترك الوقوف مع كل ما سواه من مقام او حال » ٠

---

(١) الامام العارف الشاذلى أحمد بن عطاء الله السكندرى توفى ٧٠٩ : كان أعجوبة عصره فى العلوم ، ولو لم يؤلف سوى كتابه (الحكم) لكفى فى الدلالة على علو شأنه ، وهو كتاب فريد فى بابه لم يؤلف مثله حتى الآن ، وكل حكمة من حكمه يعجز كبار الفلاسفة عن اللحاق بمعانيها وقد عنى العلماء بكتابه الحكم ووضعوا له الشروح منها المخطوط مثل شرح الجلال الكركى والمطبوع مثل ابن عجيبة وشرح ابن عباد ..

ويقول (اياك ان تقول انا فعلت ، انا وليت ، انا عزلت ، فانه تعالى يعجز كل مدع ، ولو كان على عبادة الثقلين هبط . او صاحب منزلة سقط) .

ويحذر من الالتفات الى الطاعات فيقول (من لم يزعم ان هلكته فى طاعته فهو هالك ، فان طاعتنا من جملة فضله ، ومالنا فى الوسط شىء) .

وهذا دأب الكمل من العارفين وهذا هو عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وما أدراك ما عمر ، يتوجه فى الليل وقد هجعت العيون الى منزل حذيفة بن اليمان ، ويقرع الباب ، حتى ينزل حذيفة وقد راعه مجىء امير المؤمنين فى هذه الساعة ، خشية وقوع أمر جلل ، فيهدىء روعه ويقسم ان يخبره هل عده رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن عدهم من المنافقين ، وكان حذيفة امين السر فى هذا الشأن ، فيقسم حذيفة انه ليس منهم . فيقول : انك عندى لصادق ولكن افعالى تشبه افعالهم ويعود ادراجه ، ويمكث فى الفراش اياما يعودونه ، وما به من مرض ولكنه الحياء والخشية من الله عز وجل : فهو يخشى أن يكون قد انحرف عما كان عليه قبل وفاته صلوات الله وسلامه عليه .

والاعجاب بالطاعات من الامراض الخفية الهدامة التى قلما يسلم منها احد الا من تجرد من حظوظ النفس وكان مخلصا لله عز وجل فى احواله كلها ، وانى له ان يحكم بهذا ! اذ لا يستطيع انسان ان يكون الخصم والحكم فى آن واحد ويدعى ان حكمه مجرد عن الهوى . ولذا يقول الصديق الاكبر رضى الله تعالى عنه لو كانت يمينى داخل الجنة ويسراى خارجها ما آمنت مكر الله تعالى . والعدالة الالهية لو اقيمت على اى عمل لطاشت جميع الاعمال ولكن رحمته عز وجل وسعت كل شىء . فالثواب كله مرجعه لا الى الاستحقاق ولكن الى محض الفضل الالهى . فحضرة الحق عز وجل حضرة عزيزة منيعة ولو أقام الله تعالى علينا ميزان العدل لما نجا منا أحد اذ الافعال كلها تنقلب الى تقصير فى جانب عظمته تعالى .

وفى ذلك يقول (من رأى ان له عملا يقبل فقد سقط من عين رعاية الحق تعالى) . ويقول (احذر يا ولدى ان تدعى ان لك معاملة خالصة مع الله . واعلم انك ان صمت فهو الذى صومك . وان قمت فهو الذى قومك . وأن اتقيت فهو الذى وقاك ، وليس لك فى الوسط شىء ، وانما الشأن ان ترى انك عبد عاص

ليس لك حسنة واحدة وهو صحيح • فمن اين لك حسنة وهو الذى احسن اليك • وان شاء قبلك وان شاء ردك) •

ويقول [يا ولدى ان كنت تصوم الدهر وتقوم الليل وتدعى ان لك سريرة ظاهرة ومعاملة خالصة ، فلا تدعى قط انك شممت لطريق القوم رائحة ولا تشهد نفسك الا عاص مقلس من جميع الاعمال الصالحة ، واحذر نفسك فكم تلف من غرورها وزورها فقير) •

٣ ـ الدعوى والادعاء :

الادعاء الكاذب من اسوأ الامراض التى يقود اليها الاعجاب بالنفس •

واصحاب الدعاوى شرهم مستطير فهم لا يخلصون لاحد فى عمل ، بل استمرأوا البراعة فى الضحك على الذقون ليصلوا الى اغراضهم كائنةما كانت وهم كالحرباء يتلونون بكل لون ويتشكلون بكل شكل : نسوا الله فانساهم انفسهم فكيف يدعون الاخلاص لله تعالى !

ومما يفضح المدعى انه لا يطيق اعمال المخلصين الصادقين ولا يصبر على صحبتهم ، بل يحقد عليهم لشعوره بتفوقهم عليه ، فيهاجمهم كلما واتته فرصة ليغطى مركب النقص فيه ، وليوهم الناس انه على الحق وانهم على الباطل ، فينقلب مدافعا عن كل زور وبهتان ، ويوغل فى العمى والضلال عن بينة . اذ أن صرخة مارد النفاق تدوى فىباطنه : اتقن التمويه والتزوير مااستطعت خشية أن يفطن الى خداعك أحد ، البس مسوح الرهبان كى يعتقد الناس أنك صالح !

ومن السالكين من يقلد العارفين فى اخلاصهم دون سلوك مناهجهم والتأدب بآدابهم ويظن ان هذا هو الحال السليم . فيقوده ذلك الى الدعوى والطمع الكاذب وقلة المبالاة ، وترك الادب ومجاوزة الحدود والوقوع فى اسر الشيطان وغلبة النفس والهوى ، فمثل هؤلاء كمثل من سمع بوصف الجوهرة النفيسة ولما وقعت فى يده خرزة من الزجاج اعجبته استدارتها وجذبه صفاؤها ووقع فى نفسه انها جوهرة غالية ، فلما حملها الى من يعرف الجواهر وعرفه قيمتها الحقيقة ، لم يصدقه واحتفظ بهـا وظن أنه قـد غشه . فهؤلاء كل يوم فى ضلالتهم يخسرون وفى طغيانهم يعمهون •

يقول القطب الدسوقى (اياكم والدعوات الكاذبة فانها تسود الوجه وتعمى البصيرة] [كيف يدعى أحدكم أنه مريد طريق الله عز وجل وهو ينام وقت الغنائم (١) ووقت فتح الخزائن ، ووقت نشر العلوم واظهار المكتوم ، وتجلى الحى القيوم · فياكذابون اما تستحيون · هممكم راكدة ، وعزائمكم خامدة ما هكذا درج اهل الطريق) ، بل قد يدعى الانسان الطريق وهو ابعد الناس عنها لانغماسه فى المحارم والمنهيات (اياكم ان يدعى احدكم انه من الصالحين وهو يقع فى الافعال الردية ، ويأكل طعام المكاسين واهل الرشا والربا والظلمة واعوانهم ؛ وكيف يدعى انه من الصالحين وهو يقع فى الكذب والغيبة والوقيعة فى الناس وفى أعراضهم ! وكيف يطلب أن يكون عند الله صادقا وهو يقع فى شىء من المناهى « ولعمرى هذا الذى لم يتب كيف يدعى الطريق او يتوب غيره » (٢) ·

ويقول (اياك أن تدعى المشيخة ثم تعصى ربك بعد ذلك ، فانه يقول لك أما تستحى ؟ أين دعواك القرب منى ؟ أين غسلك أثوابك المدنسة لمجالستى ؟ كم تعى فى بطنك من الحرام ، وكم تنقل أقدامك الى الاثام تنام وأحبابى قد صففوا الاقدام ؟ أنت مدع كذاب والسلام) ·

واذا استمرأ الادعاء والاعجاب بالنفس انقلب الى منافق يهدم بنيان المجتمع هدما يفوق فى شدته ما يفعله ألد الاعداء بكثير · اذ ينطلق المصابون بهذا الداء المدمر كالكلاب المسعورة التى يدفعها سعارها الى نهش كل ما صادفها : فيأكلون أموال الناس بالباطل ، ويستبيحون دماءهم ، ويهتكون أعراضهم ويستذلونهم ، كل ذلك وهم آمنين مطمئنين لان أحدا لا يراهم ولا يعرفهم · وهذا الخلق يورث الضعة والذلة والجبن والخسة وصاحبه وان طال به الامد لابد من أن يفتضح فيظهر للناس ما كان حريصا على اخفائه ·

ويحذر من ذلك بقوله (ان طلبتم أن تكونوا أولادى حقا · فلا يسر أحد منكم سريرة سيئة · فان الله سيظهر ما كان العبد يكتمه ويخفيه ويستره ، وينادى

---

(١) أى وقت السحر وأوقات الاستجابة .
(٢) الطبقات الوسطى ١١١ — أ

عليه فى عرصات ـ مواقف ـ القيامة بالصريح والتوبيخ فلان عمل كذا وكذا ، وكان يستتر من الناس ولا يستتر من الله فلان كان يرتكب المحارم والفضائح ويظهر للناس الصلاح زورا وبهتانا ، فلان كان ينظر الى النساء قصدا ويدعى أنها نظرة فجأة ، ويعطف طرفه ويميل كأنه لص سارق . فيا فضيحة من تزيا بزى الفقراء وخالف طريقتهم ، فيا أولادى جميعكم : لا ترموا من كلامى شيئا فانما هو تذكير وتحذير وتأديب لمن يتأدب) .

وهذا الذى يستمرىء الدعوى ويتفنن فى الغش والغواية ، ويعتقد أن أعظم المكاسب هو خداع الغير والمكر بالناس ، يترك ما لا غنى لوجوده عنه وما هو ضرورى لصلاحه ويشغل نفسه بما لا جدوى منه سوى جلب حظ أو نفع أو شهرة لانه يعتقد أن هذا له ثمرة ، أما الصلاح فلا ثمرة له سوى التعب · فعلام التمسك بالفضائل وثمرة الرذائل أشهى وأعجل ! هذا هو منطق كل فاسد ، هذا هو تفكير كل أعمى البصيرة لا دين له سوى ما يراه هو ، ولا طاقة له فى التفكير وراء ذلك .

ومن دسائس النفس القاطعة عن الطريق ، أنها اذا رأت صاحبها جادا فى السلوك دعته الى ما لا يشك أحد فى أنه خير كطلب الزيادة أو التبحر فى العلم · وما بها من صدق فى الدعوى ولكنها عملية من عمليات الهروب تتقنها النفس وطريقة من طرق التبرير تخفى على السالك ، تريد من هذا ان ينقطع السالك عن الطريق الذى يجردها من حظوظها ، ويسلك بها الطريق التى تقترحه هى ، وحينئذ تسوقه من حيث لا يشعر الى مكامن الداء الخفى فى أعماقها · فيطلب بالعلم الاستعلاء ، والشهرة والرياسة ، وحينئذ تفوز النفس فى المعركة وينقطع صاحبها عن سلوك طريق التربية ويعيش فى ظلمات النفس يفسد ويفسد غيره ·

ولذا يقول القطب الدسوقى [اذا اشتغل المريد بالفصاحة والبلاغة فقد تودع منه فى الطريق وما اشتغل احد بذلك الا وقطع به ، وأما حكايات الصالحين وصفاتهم فمطالعتها للمريد جند من أجناد الله تعالى ما لم يحفظها دون التخلق بها] .

ولا يلتبس الامر على أحد فيفهم أنها دعوة الى انقطاع العلم فهذا خارج عن

المقصود • بل هى دعوة الى العلم لله لا الى غرض ، ثم أن الكلام هنا لا يعم كل شخص ، بل ينصب على المريدين الذين يطلبون التجرد من أوساخ النفوس وظلماتها كى تنجلى مرائى وجودهم لاستقبال أنوار الحق فيعيشون لله بالله لا يخشون لومة لائم ، ومن الكبائر أن يدعى أحد هذه الدعوى ثم ينشغل بضدها من الافات النفسية ، فيلهث وراء الشهرة ولو عن طريق العلم • وله بعد أن يفتح الله تعالى عليه أن يشتغل بما شاء من العلوم ، فان جميع افعاله تكون على بصيرة وهدى ، وتكون خيرا يعم من حوله •

ومن القواطع أن يسلك الانسان طريق المعرفة وهو جاهل بالشريعة ، وهى أصل كل معرفة صحيحة • وقد أكد العارفون هذه القاعدة ولفظوا من خالفها • قال ابو القاسم القشيرى فى الرسالة، اذا أحكم المريد عقد الارادة بيّنه وبين الله عز وجل ، فيجب عليه أن يحصل من علم الشريعة ما يؤدى به فرضه ، فان اختلفت عليه فتاوى الفقهاء أخذ بالاحوط ، ويقصد أبدا الخروج من الخلاف •

وفى الوصايا القدسية : أن المريد يجب أن يحصل من العلم الشرعى ما يصح به اعتقاده على مذهب أهل السنة والجماعة ، وما يتحرز به عن شبه المبتدعة ، ويحصل ايضا ما يصح به عمله وفق الشريعة المطهرة .

والجهل بالشريعة درجات وأشدها الجهل بأصولها ، فهذا قد يؤدى الى المروق من الدين أو الالحاد والكفر . كمن يخلط بين أوصاف الحق وأوصاف الخلق ، فيقع فى الحلول أو التشبيه أو التجسيم ، أو كمن يصف الحق بما تسول له نفسه لا كما وصف به الحق نفسه فيضل ولا يهتدى أبدا •

وطائفة من الادعياء يظنون أنهم وصلوا الى عين الجمع فلم يضيفوا الى الخلق ما أضافه اليهم الحق ، ولم يفرقوا بين الجمع ولا الفرق ، فأضافوا الى الاصل ما هو مضاف الى الفرع وأضافوا الى الجمع ما هو مضاف الى التفرقة ، وظنوا أن ذلك منهم احترازا حتى لا يكون مع الله شىء سوى الله عز وجل فلم يحسنوا وضع الاشياء فى مواضعها وأداهم ذلك الى الخروج من الملة وترك حدود الشريعة •

وهؤلاء حرموا الوصول لتضييعهم الاصول ·

ومنهم من جهل الفروع فتخبط فى سره وغلبت عليه الحيرة وتشعبت أموره وتشتتت اهدافه فلم يدر صحيحه منسقيمة ، فطائفة توهمت انها وصلت الى درجة من الدنو والقرب ، فأعماهم هذا الوهم عن مراعاة آداب الشريعة وانبسطوا الى المخالفات وظنوها مؤانسات وتجاوزوا الحدود وارتكبوا المحرمات ، مع أن مقام القرب يلزم التمسك بالاداب ويتنافى مع المخالفات ·

ومن الجهل بآداب الطريق فسخ العزائم بالرخص :

يسلك البعض الطريق فيظن أنه يصل الى ماوصل اليه العارفون بالمجاهدات والرياضات والتعمق فى العبادات فاذا ما طال عليهم الامد ولم يصلوا الى شىء من أحوال الكمل ، توانوا عن المجاهدة وأخلدوا الى الراحة والكسل وقالوا نحن فى مقام الرخص · والواقع أنهم قد غلطوا حين قلدوا العارفين الذين جذبهم الحق تعالى اليه فعبدوه دون فتور أو كسل وكلما جاهدوا فى سبيل الله تعالى كلما قويت أنوارهم واشتد شوقهم · ولو صدق هؤلاء صدق العارفين لما دب اليهم الكسل ولما نكصوا على أعقابهم بحجة اتيان الرخص ·

والواقع أن الانسان يقوم بعملية نفسية تسمى عملية التبرير (Rationalisation) ليترخص فى سلوكه وانفعالاته ، فمثلا : قد يكره الانسان ويعلل ذلك بأنه شخص مغرور أو أنانى مع أن السبب الحقيقى للكراهية هو تفوق هذا الشخص على من يبغضه ·

(فكأن وظيفة التبرير ايصال (الانا) الى حالة ارتياح عن طريق خداعها والتمويه عليها) (١) ·

فالرخص مطلوبة محبوبة ما فى ذلك من شك ، ولكنها اذا اتخذت وسيلة للوقوع فى المحظور لم تعد رخصة بل تصبح وسيلة لبلوغ الاغراض : كمن يتصدق على رجل بمبلغ من المال فى ملأ من الناس ويبرر هذا بأن الرجل محتاج مثلا .

---

(١) د· عبد العزيز القوصى : أسس الصحة النفسية راجع من ١٣٤ — ١٣٥ ·

والواقع أنه يقصد أن يقال أنه كريم ٠ ومن عامل الحق باخلاص نزه نفسه عن هذه الالاعيب التى يمثلها فان الله تعالى محيط به ، مطلع على سريرته ٠

يقول القطب الدسوقى (اياك أن تقبل فتوى ابليس لك فى الرخص فتعمل بها بعد عملك بالعزائم ، فانه انما يأمرك بالغى والبغى بحجة رخصة الشرع ، فينقلك من رخص الشريعة الى فعل معاصيها ، ثم يقول لك : هذا مقدر عليك قبل أن تخلق ، وأين كنت أنت تملك ، فلا يزال بك حتى يدخلك النار) ٠

ومن أخس القواطع الدخول فى الطريق للتكسب بها ومنها :

وأى خسة وحقارة أشد ممن يسعى الى الاستهزاء بالله عز وجل فيحاول أن يبيع الشريعة بالمال ، والدين بالدنيا ٠ يبيع الحكمة والموعظة وهو متجرد من كل حكمة ، يبيع الصدق والفضيلة وهو موصوف بكل رذيلة ، يروج الغش والتزوير بالحلف بالله ، ويشهد الله تعالى على نفسه انه لصادق والله يعلم أنه ليس من الصادقين ٠

ولتطلع النفس الى المال وشدة تعلقها به نجد أن القطب الدسوقى يكرر التحذير تلو التحذير ويتبرأ ممن دنس طريقته فتطلع الى كسب دانق من ورائها فيقول ٠

(اعلموا يا جميع أولادى ان من استحسن درهما أو لقمة فى طريقى حين لعب به هواه، وسولت له نفسه، فقد خرج عن طريق الاشياخ، فان أوساخ الدنيا تسود القلب ، وتوقف عن المطلب ، وتكتسب بها الذنوب وانى غير راض عمن أخذ فى أجازته فلسا واحدا ، فان من أخذ الدنيا بالباس الفقراء الخرقة ، مقته الله ، ولو أنه عمل له حرفة وكفى نفسه كان خيرا له ، وانى أبرأ الى الله ممن يأخذ على الطريق عوضا من الدنيا ويتلف طريقى من بعدى ، ويخالف ما كنت عليه أنا وأصحابى : اللهم أن كان أحد من أصحابى يفعل خلاف طريقى فلا تهلكنى بذنوبهم ٠ فان الله يبغض الفقير الذى يبيع أخلاق أهل الطريق بلقمة ، وطريقى انما هى طريق تحقيق وتدقيق) ٠

يقول الجلال الكركى : قال استاذنا فى حقائقه أثناء موعظة :

(فان كنت ولدى حقا وتبعى صدقا فاخلص لله رقا ، واجعل جميع مواعظك

فى قلبك ، وكن عمالا (١) ، ولا تلمس لاحد درهما ، فان هذه طريقى ، من أحبنى يسلك تحقيقى : فالفقير يطعم ولا يطعم ، ويعطى ولا يأخذ ولا يلمس الدنيا ولا عوضها) .

(يا أولادى : ان شيخكم قد بايع الله ألا يأخذ فلسا ولا درهما ، انما أمره بالله لا لغرض دنيوى ، وليس ذلك دعوى انما أريد سلامة الذمة .

« وأعلموا يا جميع أولادى ، أن من استحسن فى طريقى وأخذ شيئا أو لعب به هواه ، وسولت له نفسه مناه بزهوها فقد خرج عن طريق شيخه .

« فيا جميع أولادى اعلموا : ان أوساخ الناس تسود القلوب وتوقف عن المطلوب ، وتكتب بها الذنوب ، ويمقت العبد بذلك علام الغيوب .

« فانى غير راض عمن أخذ فى أجازة فلسا واحدا . فان هؤلاء طالبون للدنيا بالتلبيس ، وعمل ما ليس فى طريقتى ، ولو تركوا الدنيا لكان خيرا لهم ، وانما طريقى التحقيق والتصديق والتمزيق والتدقيق فى الطريق .

« اللهم ان كان أصحاب طريقتى يعملون خلفى ما لا أشتهيه ويلتمسونه ، فلا تهلكنى بهم . فانى برىء اليك ممن يداجى أو يأخذ أو يتلف طريقى أو يخالف أو يأكل الدنيا بالدين . ان الله لا يحب من يبيع سره أو يأكل عليه شيئا . فالصادقون قد خرجوا عنها وكثير منهم ينفق من الغيب فما رضى وخرج عن ذلك .

« فيا أولادى أن كنتم أولادى وخالفتمونى فأنتم كاذبون) .

قال الكركى : ثم حكى أستاذنا عن ابراهيم بن أدهم أنه تصدق على طفلة بصدقة . فقالت : يا ابراهيم ، اننا لا ننفق شيئا تلمسه السماء والارض فكيف ننفق شيئا دخل السوق ، وضربت يدها فى الهواء فرمت بدينارين .

ولا شك أن السلامة فى الدين تقتضى ترك الطمع فى المخلوقين ، ورفع الهمة عنهم ، ورفع الهمة انما ينشأ عن صدق الثقة فى الله تعالى ، وتمحيص الثقة انما ينشأ عن الايمان بالله تعالى ايمان المحسنين والاحسان أن تعبد الله كأنك

---

(١) أى صاحب حرفة وعمل .

تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . وهذا هو الايمان الذى يوجب لصاحبه الاعتزاز بالله تعالى . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . وهو الذى يوجب النصر « **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** » والنجاة من المهلكات القاطعة عن الله تعالى « **كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين** » .

فعز المؤمن فى ثقته بمولاه : وهذا هو سبيل النصر على الهوى والنفس ، وشعار أهل الارادة ودثارهم : الرغبة فى الله تعالى والانقطاع اليه واخلاص النية له ورفع الهمة عما سواه وصيانة ملابس الايمان من دنس الميل الى الاكوان وأوحال الطمع فى غير الملك الديان ٠

فواعجباه ممن يدعى الايمان ولا يثق فى الله تعالى أن يرزقه ! واعجباه ممن يدعى الايمان ويثق فى المخلوق أشد من ثقته فى الله تعالى ٠ واعجباه ممن يدعى الايمان ولو أحلته على الحق عز وجل ليئس ، ولو أحلته على مخلوق لهش وبش ٠

ومما ينسب الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه :

أتطلب رزق الله من عند غـيره　　وتصبح من خوف العواقب آمنـا
وترضى بصراف وان كان مشركـا　　ضمينا ولا ترضى بربك ضامنـا

ما آمن وان ادعى الايمان : من خشى الناس ولم يخش الله ٠ ومن وثق فى الناس ولم يثق فى الله ، من اتكل على جاه المخلوق ، ولم تكفه عظمة الله ٠ من استخفى من الناس ولم يستخف من الله ، وكيف يستقر نور الايمان فى قلب لا يقبل نور الله تعالى !

ومن القواطع ٠
الاستغناء بالكتب عن العارفين بالله عز وجل :

لما قرأ الناس كتب التصوف ظن أكثرهم أن الخوض فى علوم التصوف ومسائلة مسألة صناعة ، واتقان بضاعة ، فخاضوا البحر وهم لا يعرفون السباحة ، واندسوا بين القوم وهم دخلاء ليسوا منهم ، وكل رأس مالهم بعض الاصطلاحات ؟ ولما اعتادوا ذلك توهموا أنهم منهم ٠ بل انعكس الوضع فاعتقد البعض أنهم هم الصوفية حقا ، وأن أئمة الصوفية هم الدخلاء ، وهذه المسألة

قديمة بدليل أن أبا نصر السراج أسهب فى وصفها فى كتابه اللمع ، ومما قاله :

(واعلم أن فى زمننا هذا قد كثر الخائضون فى علوم هذه الطائفة ، وقد كثر أيضا المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون اليها والمجيبون عنها وعن مسائلها ، وكل واحد منهم يضيف الى نفسه كتابا قد زخرفه وكلاما ألفه وليس بمستحسن منهم ذلك ، لانالاوائل والمشايخ الذين تكلموا فىهذه المسائل واشاروا الى هذه الاشارات ونطقوا بهذه الحكم انما تكلموا بعد قطع العلائق واماتة النفوس بالمجاهدات والرياضات والمنازلات ، والوجد والاحزان والمبادرة والاشتياق الى قطع كل علاقة قطعتهم عن الله عز وجل طرفة عين ، وقاموا بشرط العلم ثم عملوا به ثم تحققوا فى العمل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل) ٠

(وكل من أخذ من كلام المتقدمين الذين وصفناهم معنى من معانيهم التى هى أحوالهم ووجدهم ومستنبطاتهم وحلاها من عنده بحلية غير ذلك وكساها عبارة أخرىأو اضافها الىنفسه حتىيشار اليه بذلك أو يطلب بذلكجاها عند العامة أو يريد أن يصرف بذلك وجوه الناس اليه لجر منفعة أو لدفع مضرة فانه عز وجل خصمه بذلك وهو حسيبه لانه قد ترك الامانة وعمل بالخيانة وهذه أعظم وأكبر من الخيانة التى فى أسباب الدنيا (١) « **وان الله لا يهدى كيد الخائنين**) ــ من الاية ٥٢ من سورة يوسف عليه السلام ٠

فالطريق كلها ذوق ومن طلبها من الكتب لم يشم رائحتها .

وفى ذلك يقول « ومقصودى لجميع أولادى أن يكونوا ذائقين لا واصفين ، وأن يأخذوا العلوم من معادنها الربانية لا من الصدور والطروس وما تكلم القوم الا على شيء ذا قوة ، وقلوبهم كانت ملانة بعطاء الله تعالى ومواهبه ، ففاضت منها قطرات من الحياة التى فيها فانفجرت علومهم عن عين عين عين عين حاصل ماء الحياة ، وأما الوصاف فانما هو حاك عن حاك عن غيره ، وعند التخلق والفائدة لا يجد نقطة ولا ذرة من ذوق القوم ، وينادى عليه هذا الذى

---

(١) اللمع ص ١٩ ــ ٢٠ ٠

قنع بالقشور فى دار الغرور· ولقد أدركنا رجالا وأحدهم يستحى ان يذكر مقاما لم يصل اليه ولو نشر بالمناشير ما وصفه] .

ويقول (اذا كان المقتدى بالشرائع والكتاب واقفا بين الامر والنهى كان فتحه حقيقيا حتى يفك به كل مشكل ويحل به كل طلسم ويعرف به كل مبهم ، وأما اذا كان فتحه حفظ كلام ، وترتيب ووصف مقامات · فذلك ليس بفتح انما هو حجاب له عن ادراك الادراك ، وعن مشاهدة علوم الحق ، وليس من وصف كمن عرف ونطق بلسان العرفان ، وكم من حملته العناية حتى شاهد ذلك ، ولو سئل عن وصف المقامات ما وصفها) ·

(آه · آه · من مريدى هذا الزمان وكثرة التفاتهم الى الحظوظ النفسية وحفظ كلام الصوفية من غير تخلق به ، فكل من سمعهم ظن أنهم من القوم) ·

وهو رضى الله تعالى عنه يسد بذلك ذريعة قد تؤدى الى التحول بالطريق الى مجرد شقشقة كلامية فتفسد ويفسد طلابها ، ويلتبس الامر على الناس فلا يدرون الصادق من المزيف ويؤديهم ذلك الى هجر الطريق والاعراض عنها .

ومن القواطع الاعتماد على ورقة الاجازة (الشهادات) :

يلجأ البعض الى التلصص فى الدخول الى زمرة الصوفية عن طريق الحصول على اجازة من شيخ معتمد فى الطريق ، وهذه الاجازة تصرح له بتربية المريدين فى هذه الطريقة ، وما أن يحصل عليها حتى يسخرها فى سبيل أهوائه ومطامعه ، فيبيع دينه بدنياه ابتغاء عرض زائل ، وحياة تافهة حقيرة كلها غش وخداع وتضليل وكذب وافك ، وامثال هؤلاء من السفلة كانوا سببا فى تشويه معالم الطريق ، وانصراف الناس عنها · فالذى هاجم الصوفية انما هاجم هؤلاء الادعياء الادنياء وظن أنهم يمثلون كل الصوفية ، والصوفية من هؤلاء براء · ولو طبقنا عليهم شروط المربى أو شروط المريد لما صح فيهم شرط ، ولما انطبقت عليهم سوى شروط الفسق والفجور والاثم والعدوان ، ولا يضير الصوفية وجود أدعياء ففى كل فن وعلم وجد الادعياء ، ومع ذلك لم يقل أحد أن وجودهم يستلزم الغاء العلوم والفنون · الا أن مهاجمة الادعياء واجبة لاننا بازالة القناع عنهم ، ورفع الستار عن وجوههم انما نساهم فى بناء مجتمع سليم · ولكن اطلاق الهجوم على الادعياء وعلى المخلصين هو الخطأ · ومعايير

النقد ومقاييس التقييم التى تكشف لنا المخلص من الزيف قد وضحها لنا امام الهداة جميعا صلوات الله وسلامه عليه ·

وفى هذا يقول القطب الدسوقى [يا ولدى عليك بالتخلق بأخلاق الاولياء لتنال السعادة ، وأما اذا أخذت ورقة الاجازة وصرت كل من نازعك تقول هذه أجازتى بالمشيخة دون التخلق فأنت لا شىء ، وأنت غارق فى حظ نفسك]

ويقول : [ليس من تزيا بزى القوم ينفعه زيه أو درجه أو خرقته ، فانهذه الامور ظاهرة ، والقوم انما عملهم جوانى ، اذ بذلك يرقون الى مراقى درجة الرجال ، وما رأينا أحدا لبس جبة أو كتب له اجازة فبلغ مبلغ الرجال بذلك قط . بل فعل ذلك يوقف المريد عن طلب المزيد ، والامر ليس له قرار) .

(لا تقنع بورقة الاجازة فربما غيرت وبدلت بعد ذلك ، انما اجازتك حسن سيرتك واخلاص سريرتك ، ومن شرط المجاز أن يكون أبعد الناس على الاثام : كثير الصيام والقيام مواظبا على ذكر الله تعالى على الدوام ، فليست الاجازة الحقيقية الا لمن يزداد اقبالا على ربه فى كل نفس من الانفاس حتى يموت) ·

ومن أشد القواطع :

الجهل بقواعد وأصول التربية فى الطريق :

الطريق أدب كلها ، فمن لم يحسن الادب لفظته ولم يأت بشىء مهما فعل فليست المسألة مسألة تشبه أو تقليد فى الاعمال ، فقد يحرص المريد على تقليد كبار العارفين ولا يصل الى شىء مما وصلوا اليه .

يقول القطب الدسوقى : (ما كل من خدم يعرف أداب الخدمة ولذلك كثرت ردة المرتدين عن الطريق) ·

(ما كل من وقف يعرف لذة الوقوف ، ولا كل من خدم يعرف آداب الخدمة وحفظ الحرمة ولذلك قطع بكثير من الناس مع شدة اجتهادهم)

ومن أخطاء المريدين أو السالكين فى هذا الصدد .

طلب الحق بترك الطعام والشراب :

يسمع المريد المبتدىء أن النفس لا يؤمن شرها الا بالتدريب على مخالفتها ،

فيظن أن أسرع الطرق لكبح جماحها ،والسيطرة عليها ، هو طريق التقلل من المطعم والمشرب ، فيتدرب على ذلك : ويواصل الليالى والايام . حتى يضعف جسمه وتنحل قواه ويقع فريسة الوسوسة أو الغيبوبة ، فيظن أن هذا هو الفناء الذى تحدث عنه القوم ولا يدرى أنه فتح على نفسح أبوابا من الفتنة والبلاء لا يمكنه أن يتخلص منها ، وأقلها أن بعضهم قد يعجز عن أداء الفرائض لشدة ضعفه ، وبعضهم قد يرتد فاسقا كرد فعل نفشله المبكى ·

وفات هؤلاء أن الفناء الذى قصده القوم انما هو الفناء عن رؤية الاعمال والطاعات · لا الفناء بترك الطعام والشراب ·

ثم أن العارف اذا قلل طعامه وشرابه انما يفعل ذلك لغلبة الحال عليه ، لا أنه يفعله لذاته أو يقصده ليكون من الواصلين ·

وكان الواجب على هؤلاء ألا يطرقوا سبيلا من سبل التربية فى الطريق الا بارشاد عارف ، لان مخالفة النفوس من العلوم التى لا يفهمها سوى أهلها ·

وطائفة من المترسمين بالتصوف : ظنوا أن طريق السلامة من غوائل النفس وشرورها مؤكد فى العزلة عن الناس ، وان هذا الانفراد هو الطريق الوحيد الموصل الى مقامات العارفين · واذا بهم لا يجنون من عزلتهم سوى التعمق فى الخطأ والانحراف عن الصراط المستقيم ·

وغلطوا فى تشبههم بائمة الصوفية الذين لم يعتزلوا بقصد العزلة نفسها والا لكانت حظا نفسانيا يحجب عن الحق شأنه شأن أى حجاب آخر ، ولكنهم لم يعتزلوا الا لغلبة الوارد وقوة الحال ولو خرج من هذه حالته عن العزلة لتكلف مالا يطيق ولدخل عيه الضرر والاذى ، فيلازم العزلة ما لازمه هذا الحال حتى ينتقل عنه .

ومنهم من تشبه بالمتوكلين فهام فى البرارى والقفار وظن أنه قد دخل الطريق من باب التوكل ، فلم يجن من تصرفه سوى العذاب والالام · وفاته ان المتوكلين قد غلب عليهم مقامهم وحالهم فاستوى عندهم وجود الاسباب وفقدها ·

وجماعة لبسوا الصوف واتخذوا المرقعات وحملوا الركاء ووضعوا الشارات وظنوا انهم أصبحوا من القوم ، ولم يعلموا أن المظهر لا دخل له فى تحصيل الحقائق ·

وجماعة ظنوا أن التصوف هو السماع والرقص والتكلف للاجتماعات على الطعام والتواجد عند سماع القصائد ، والطرب من الالحان والنغمات وأشعار الغزل وقصائده وظنوا أنهم يتشبهون بأحوال القوم ، ولم يعلموا أن كل قلب ممتلىء بحب الدنيا ، وكل نفس شيمتها الغفلة والبطالة ، فسماعه ووجده وطربه معلول وحركاته متكلفة ·

ومنهم من يطلب الطريق بالفقر أو بالغنى · فيكون واهما ·

فالغنى الذى يقصده القوم هو الغنى بالله تعالى · والفقر هو الافتقار الى الله عز وجل ·

فيظن البعض أن الغنى بالاعراض حالة محمودة أو مقام من مقامات الاخرة فأحبوا الاعراض وركنوا اليها ، وساعفتهم أنفسهم فى السعى وراءها لان حب الملكية ملائم للطبع غريزة فى النفس فتعلقوا بها وخسروا أنفسهم ·

وآخرون ظنوا أن الفقر هو الحالة المحمودة لا الغنى ، وتوهموا أن المراد منه هو عدم الملكية لا البراءة منها ، فاشتغلوا بذلك وتعلقوا بالتقلل والتقشف واعتادوا الدون من اللباس والقليل من القوت · وظنوا أن الرفق بالنفس أو الترخيص لها بالمباحات أو السماح لها بالطيبات كل ذلك علة وسقوط من المنزلة ، وان كل حالة غير ماهم عليه زلة · فجلسوا معتمدين على حالهم مستشرفين الى من يتفقدهم ويتصدق عليهم مع ضعف يقينهم وغلبة طبعهم وطمعهم واهمالهم آداب الطريق وانتهوا الى رؤية الفقر ومساكنته والاعجاب به · فهؤلاء عبدوا الفقر ولم يعبدوا الله الغنى الحميد ·

فالعلة قد تكون فى التقلل كما قد تكون فى الترفع والترفه وكل من قام فى حالة واعجب بها أو استحلى ملاحظة الخلق له فيها ، ولم يعمل على الخروج منها والاقلاع عنها يكون هالكا لا محالة ·

فيجب على المريد الا يسلك دربا من دروب الطريق الا باذن من عارف قد اكتملت فيه شروط المربى ·

ومن القواطع :

الغفلة عن محاسبة النفس :

ومن لم يخصص وقتا يحاسب فيه نفسه انقلب الى حيوان شرس ضرره أكثر

من نفعه ، فيتحتم على كل عاقل أن يختم يومه بمحاسبة نفسه على ما فعله فى ذلك اليوم فيستغفر لذنبه ، ويعقد العزم على رد المظالم الى أصحابها ، والى أرباب الحقوق عليه ، ويحاول أن يصفح عن المسىء ويقرر الاعتذار الى من أساء اليه ، ومن أهمل هذا الباب : لا تزال نفسه تملى له بالشر والسوء ولا يزال فى ازدياد فى العمى والضلال حتى يتردى فى أسفل سافلين ٠

وفى ذلك يقول (من غفل عن مناقشة نفسه تلف ، وان لم يسارع الى المناقشة كشف) ٠ ويقول (يجب على المريد أن يطهر أعضاءه من الغفلات والفتور عن ذكر الله كما يجب تطهيرها عن المعاصى من باب حسنات الابرار سيئات المقربين) ٠

معاشرة الذين لا يبالون بدينهم :

لان الاخلاق تسرى بالانتشار ولابد ٠ فمن عاشر الفساق شرب من مشربهم لا مفر من ذلك ، ومن عاشر الفضلاء ذاق من كريم شيمهم وحسن سيرتهم ، بل من معجزات الشريعة المحمدية الخالدة : فرض الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على الامة ، لان السكوت على المنكر يؤدى الى انتشاره وتسلطه على الناس ، والامر بالمعروف والحث عليه يؤدى الى تمكينه وتثبيته فى المعاملات فتزداد روابط المحبة والعطف والاخوة ٠

ومن قواعد الطريق البعد عن كل من يقطعك عنه :

وفى ذلك يقول : (معاشرة أهل الادناس تورث ظلمة البصر والبصيرة)

[يا ولد قلبى ، اجتنب معاشرة أولى المقال والجدال ، والذين لم يتخلقوا بأخلاق الصالحين والعلماء العاملين ، ولا تتخذ أحدا منهم صاحبا ٠ وجالس من جمع بين الشريعة والحقيقة فانه أعون لك على مقصودك] .

ويقول (ياولدى انقش على صحيفة صفحة تلوح خدك توراة درسك ، وانجيل فهمك ، ومزامير ذكرك ، وزابور صفائك ، وفرقان فرقك ، ومجموع جمعك ، واشتغل بأفنان حضورك ، ومراقبة رقيبك عن الخلق ، واشتغل بنفسك عن القيل والقال ، ولا تلتفت قط الى صحبة من يتكرم بضياع أوقاته او أنفاسه فى الغفلات ، فان صحبته هلاك لك) ٠

ومن القواطع : السخط عند البلاء :

السخط لا يجر الا الى ما هو أسوأ اذ تنهار أسباب الصحة النفسية من استقرار وطمأنينة ورضا ، لتفسح المجال لعلل القلق والوهم والخوف : والاولى من ذلك أن يأخذ الانسان فى أسباب التخلص مما هو فيه ، ولذا يظهر الرجل عند الابتلاء . فاما أن يتحطم كالاطفال وأما أن يصمد كرجل مجرب .

يقول : (ما ابتلى الله عز وجل الفقير بأمر الا وهو يريد أن يرقيه الى منازل الرجال فان صبر وكظم الغيظ وحلم وعفا وتكرم رقاه الى الدرجات والا أوقفه وطرده) .

ومنها ارتكاب المحرمات :

يقول : (**أكل الحرام وقول الحرام يفسد العمل ويوهن الدين**) .

(مادام لسانك يذوق الحرام فلا تطمع أن تذوق من الحكم والمعارف شيئا .

وارتكاب المحرمات يؤدى الى التطبع بطباع الفسقة الذين يهددون سلامة المجتمع ووجوده .

(كيف يدعى فقير الطريق وهو لا يغض بصره ولا يطهر فرجة ولا لسانه من الاثام) .

ويقول :

: (اياكم ومؤاخاة النساء واطلاق البصر فى رؤيتهن والقول بالشاهد والمشى مع الاحداث فى الطرقات فان هذا كله نفوس وشهوات) .

ويقول : (كيف تطلبون من الله تعالى أن ينبت لكم الزرع أو يدر لكم الضرع وأنتم تسلون السيوف على أحد من هذه الامة المحمدية وتلطخون الحراب من دمائهـــم) .

ومنها القســـوة :

(من لم تكن عنده شفقة أو رحمة على خلق الله لا يرقى مراقى أهل الله .
وقد ورد أن موسى عليه السلام لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منها بعصاه انما كان يهش بها فقط ، وكذلك كان لا يجوعها ولا يؤذيها ببطش . وجاء مرة الى نهر ليسقيها فوجد منها شاة عرجاء لا تقدر على الوصول الى الماء فحملها

ونزل بها فسقاها • فلما رأى الحق تعالى منه قوة شفقته بعثه الله نبيا وكليما راعيا لبنى اسرائيل وناجاه بالتوراة وغيرها فمن رحم رعيته وأشفق عليهم اصطفاه الله من بين الخلق والسلام) (١) •

ومنها التقصير فى أوراد الطريق :

يعنى الشيوخ بتربية المريدين وتلقينهم آداب الذكر ويأمرونهم بالاجتماع فى أوقات مخصوصة لتلاوة أوراد يعينها لهم مربيهم ، كى تعتاد النفس على ذكر الله تعالى وتتذوق حلاوته مع تقوية الهمم وجمعها على الله عز وجل ، فمن تهاون فى ورده انما يتهاون فى مورد أنواره •

وفى ذلك يقول : (ما قطع مريد ورده يوما الا قطع الله عنه الامداد ذلك اليوم) فيشعر بثقل فى النفس والجسم وكأنه مريض وليس به سوى التهاون فى أوراده ، لما يترتب على ذلك من الاثار المتبادلة النفسجسمية ، وهى آثار معلومة فى علم النفس الحديث ••

وقد أدى الجهل بحقيقة الطريق والاستخفاف بشأنها الى أن البعض قد جعل مجالس الذكر وسيلة يتوصل بها الى الطرب بنغمات المنشدين ، وترويح النفس بسماع ترانيمهم ، والادهى من ذلك أن مجالس الذكر أصبحت وسيلة للكسب واحياء الافراح والليالى الملاح ، وترخص المنشدون بكلام (٢) (ظاهره استمداد من صاحب الغيرة العظمى على هذه الطريق صلى الله عليه وسلم ، وباطنه أذية لحضرته وتقطيع لاوصال محجته ، وينادون بأقوال ظاهرها الحث على محبة الله تعالى وباطنها محاربة لجنابه المقدس واهانة لذكره جل شأنه بجعله آلة لتحصيل أقذار الدنيا وأوساخها ، وصار الذاكرون يظنون أنفسهم مقبلين على الله سبحانه وتعالى مع أنهم واقفون فى صفوف المحاربين لحضرته العلية) •

ومنها سوء الخلق وقبح السريرة وهما يفسدان كل عمل :

وأعمال من كان هذا شأنه لا وزن لها ولا قيمة ، بل هى فى الصورة أعمال

---

(١) الطبقات الوسطى ١٠٧/ب •
(٢) مصباح الارواح ص ٢٣ •

محمودة وفى الواقع أنها أشرالاعمال ، والقطب الدسوقى لا يتردد فى حكمه على أمثال هؤلاء اذ يقول :

(كما أن أهل الشريعة يبطلون الصلاة باللحن الفاحش فكذلك أهل الحقيقة يبطلون الصلاة بالخلق الفاحش . فاذا كان فى باطنه حقد أو جسد أو سوء ظن بأحد من المسلمين أو نحو ذلك فصلاته باطلة عندهم . ويجمع ذلك كله حب الدنيا لان من أحبها حجب عن حضرة الله وطرد عن دخولها ولا تصح مناجاة الحق تعالى كما ينبغى الا لمن دخل حضرته وعرف قدر عظمته تعالى ، فاذا منع من دخول حضرته فكأنه ما صلى لان أهل هذه الاخلاق فى حجاب عن شهود عظمة الله تعالى فى الصلاة ، ومن كان قلبه محجوبا فما صلى لان الصلاة صلة بالله) .

فكم أساء الى الطريق من ادعاها وظن أنه من خاصة أهلها ! وفى ذلك يقول أستاذ العارفين السيد أبو الوفاء أحمد الشرقاوى (فكم سطت جنود الباطل على هذه الطريق واعتدت . وكم صالت عليها جيوش الفساد واحتشدت . وكم فرط المنتسبون اليها حتى استضعفها الناس واستذلوها وكم أفسد المنتمون اليها حتى ذلت فى عيون الخلق واستهانوها . وكم كثر الجهال فيها وأكثروا فيها الفساد . وكم حرمت ممن يمد لها حبل الصفاء والوداد . قد أصبحت منكسة الاعلام بعد أنكانت مرفوعة . وامست مهدومة الحصون بعد أنكانت عزيزة ممنوعة . **فانا لله وانا اليه راجعون** . قد اشتروا والله بذكر ربهم ثمنا قليلا ، وابتعدوا عن طريق الصواب وضلوا سبيلا) .

من أسباب أساءة الادب مع العارفين

أشد القواطع هى الوقيعة فى أحباب الله عز وجل بالانكار أو التعدى وقد أفردناها بعنوان لاهميتها ، كيف لا وقد آذن الله تعالى بالحرب أصنافا من المجرمين من بينهم الذين يؤذون أولياءه · ويحذر القطب الدسوقى أتباعه من الوقوع فى هذه الكبيرة فيقول :

(اذا لم يحسن أحدكم أن يتبع القوم فى مجاهداتهم فلا يقع فى أحوالهم فان الفقراء تارة يتكلمون بلسان التفريق،وتارة بلسان التحقيق بحسب الحضرات التى يدخلونها » وأنت ياولدى لم تذق حالهم ولا تمزقت ولا دخلت حضراتهم ، فمن أين لك ان تقول انهم على الضلال ! أفتعوم يا ولدى البحر وأنت لست بعوام ! ثم اذا غرقت فقد مت ميتة جاهلية لانك ألقيت نفسك للمهالك والحق قد حرم عليك ذلك بل الواجب عليك يا ولدى أن تطلب دعاء القوم وتلتمس بركاتهم ما لم تقدر على اتباعهم ، فاذا اتبعتهم سعدت] .

(واعلم ياولدى أن أسرار القوم اذا دخلوا الحضرات منها ماهو أعجمى فلا يفهم ومنها ما هو عربى فيفهم ، وكذلك من أحوالهم ما يعبر عنه ومنها ما لا يعبر عنه ، وكذلك من أسرارهم ما لا يصل الى فهمه مؤول ولا معبر ولا مفسر · لان أسرارهم مكنون سر الله ، وقد عجز القوم عن معرفة أسرار الله تعالى فى نفوسهم فكيف بأسراره فى غيره ؟ فعليك ياولدى بحسن الظن فى القوم فانى لك ناصح ، فان من رمى أحباب الله بالبهتان والزور أبغضه الله ومقته فى الدنيا والاخرة) ·

واساءة الادب مع العارفين ترجع الى أمور منها :

الجهل بعلومهم وأحوالهم :

لانها كلها علوم ذوقية لا يفهمها الا من عنده استعداد خاص ، وصلاحية لقبولها . أما من هو ليس بأهل لها فيبادر الى انكارها والى معاداة أهلها . فيحرم نفسه من أنوار العارفين بل ويتمادى حتى يصبح على شفا جرف هار

فاما أن يدرك ما جهل بعد عشرات السنين واما أن يهوى الى أسفل سافلين والاسلم حسن الظن فى كل مخلص صادق عالم عارف قد وقف وجوده على الله عز وجل وجمع الخلق على الله تعالى ٠

يقول القطب الدسوقى [عليكم بتصديق القوم فى كل ما يدعون فقد أفلح المصدقون وخاب المستهزئون فان الله تعالى قذف فى سر خواص عباده ما لا يطلع عليه ملك مقرب ولا بدل ولا صديق ولا ولى ٠ ما أنا قلت هذا من عندى انما هو كلام أهل العلم بالله تعالى ، فما للعاقل الا التسليم ، والا فاتوه وفاتهم وحرم فوائدهم وخسر الدارين) ٠

ولكن التصوف ابتلى بمن يكتب فيه على غير علم ٠ فكتب فيه الدخيل كما كتب فيه من لا يؤمن بالله ولا باليوم الاخر ، وتكلم على مقامات الصديقين كل عربيد فاسق أو ضال مضل ، وكل منافق عليم اللسان ٠ وفصل مقامات الولاية كل جاهل لا يعرف سوى هواه ٠

وانى لاتساءل :

أيستطيع هؤلاء أن يكتبوا فى أى علم من العلوم الطبيعية بنفس الجرأة ؟

الجواب ٠ لا ٠ لانهم لم يتخصصوا فيها ٠

وحينئذ نتساءل مرة أخرى :

أنتم لم تخصصوا فى التصوف بدليل أنكم تنكرونه كعلم ٠ فلماذا تتحدثون والفهم فى هذا الشأن . فلماذا لا يكون الامر نفسه فى علوم التصوف ؟

لا خلاف أن من أشكل عليه الامر فى أى علم أو فن ، يرجع الى أولى الدراية والفهم فى هذا الشأن . فلماذا لا يكون الأمر نفسه فى علوم التصوف ؟ .

فمن أشكل عليه أمر فى أى فرع منه : سواء فى معاملات القلوب أو مواريث الاسرار ، أو علل الاعمال ، أفليس من العقل أن يرجع اليهم فى علومهم ٠ وأن يطلب حكمهم فى الاحوال والمنازل التى مارسوها وبسطوا دقائقها ٠ فمن يفعل غير ذلك فقد أخطأ ٠ وليس لاحد أن يبسط لسانه بالوقيعة فى قوم لا يعرف حالهم ولا يعلم علمهم ولا يقف على مقاصدهم ٠ ولو فعل لما صح لاحد أن يلتفت اليه أو أن يقيم وزنا لما يقول ٠

يقول الامام السراج :

(وينبغى للعاقل فى عصرنا أن يعرف شيئا من أصول هذه العصابة ـ يعنى الصوفية ـ وقصودهم وطريقة أهل الصحة والفضل منهم حتى يميز بينهم وبين المتشبهين بهم والمتلبسين بلبسهم والمتسمين باسمهم حتى لا يغلط ولا يأثم لان هذه العصابة هم أمناء الله عز وجل فى أرضه وخزنة أسراره وعلمه وصفوته من خلقه · فهم عباده المخلصون وأولياؤه المتقون ، وأحباؤه الصادقون الصالحون · منهم الاخيار والسابقون والابرار والمقربون والبدلاء والصديقون) ·

وها هو سفيان الثورى الامام الجليل المشهود له بالعلم والاجتهاد المطلق فى العلوم الشرعية يقول (لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء) ·

ومع ذلك كتب فى التصوف المنافق وكتب فيه من لا يدرى شروط صحة الاسلام وكل فريق وصف التصوف طبقا لوهمه وخيالاته وفهمه المعوج ، وأخضعه لموازينه ومقاييسه ·

فبعضهم وصفه بالسلبية ، وأنه هروب من الحياة الواقعية ، ووصفه آخرون بأنه سبيل كل فاشل ، وقال آخرون انه عملية تعويض أو عملية تسام بالغرائز .

وقال آخرون : انه عمليات دجل ونصب واحتيال ·

وتبرع آخرون بوصف الصوفية بما يليق بمقام من صدر الوصف عنهم ·

وقد يمضى أحدهم العمر متخصصا فى دراسة شخصية صوفية بعينها ثم يخرج لنا برسائل وكتب عن ذلك الامام تصوره بأنه يعتقد فى وحدة الوجود أو أنه مارق الخ ·· وكل دخيل على التصوف انما كتب لنا مفاهيمه هو وما وصلت اليه قريحته المقيدة بأبعاد عقيدته ، وكى يستر نفسه ويحمى جهله يحيط نفسه بسياج من الهجوم المقذع على الصوفية وهى حيلة من حيل الدفاع عن النفس يقصد بها :

أن يشار اليه بالبنان كعالم لا يعجبه علم أى عالم آخر ! ويظن أنه بسلاطته وتطاوله يصد كل من تسول له نفسه الرد عليه ·

ودعونا نسمع اماما صوفيا جليلا وهو القطب الدسوقى اذ يقول :

(ليس لأحد من القوم مبتدعا انما هم متبعون فى الادب لسيد الامم وقد قال الله تعالى (**ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا**) فلقد كان احدهم بعد نزولها اذا وقف يقول نعم ثلاث مرات فان أذن له والا رجع من حيث أتى] ٠

واستمع اليه وهو يحث مريديه على الازدياد من طلب العلم فيقول :

(يا أولادى اطلبوا العلم ولا تقفوا ولا تسأموا فان الله تعالى قال لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم (**وقل رب زدنى علما**) فكيف بنا ونحن مساكين فى اضعف حال وآخر زمان ٠ وسبب طلب الزيادة من العلم انما هى للادب الالهى ٠ يعنى اطلب الزيادة من العلم لتزداد معى أدبا على أدبك « **وما قدروا الله حق قدره** ») ٠

ويقول (قلة معرفة اخلاق القوم من الحرمان لان خرق سياج الادب معهم يؤدى الى العطب ، والباب مفتوح ما غلق ، الا أن القوم واقفون بباب الله والجواب منادمات فى الغيب بالغيب) ٠

ويخطىء من يضع فى ذهنه معايير ومقاييس من عندياته يميز بها العارف من غيره : اذ ان هذه المقاييس لم توضع الا لامثاله من المحجوبين ولا تنطبق الا على مرتبة من وضعها ، والا فان المخابر والتجارب والمعايير قد عجزت حتى الان عن قياس الشخصيات العادية ٠

والمعيار الذى لا يخطىء هو المعيار الذى يطبقه كل عارف بالله تعالى : ألا وهو معيار الشريعة والاقتداء بسيد الوجهاء صلوات الله وسلامه عليه فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ٠

ومن أهم أسباب الانكار على الصوفية :

ــ أن علوم التصوف وهبية ذوقية ٠

علوم التصوف وهبية : وحينما دخلها أناس من الباب الخلفى وفى يدهم المنطق والبرهان (وكان أوضح مثل لذلك دراسات المستشرقين ومن لف لفهم من الشرقيين أفسد ذلك التصوف لانه حول النبع المتدفق الى ركود آسن ٠ وحول

السنا المتلالىء الى ظلمة حالكة ، وارجع فضل الله ونعمته الى مرض من الامراض يعالج بالمادة ويشفى بالعقاقير) ·

والواقع أن هؤلاء قد تسللوا الى التصوف من الباب الخلفى فدخلهمن هب ودب · لاعتقاد هؤلاء أنه علم نظرى · وفاتهم أنه من العلوم الذوقية ، وأنه من العلوم الوهبية وأنه من العلوم التطبيقية الذاتية والموضوعية فهو تطبيق للشريعة فى جميع شئون الانسان ·

فلا يصح أن يتكلم على التجليات والمقامات والمنازل وأحوال النفس ودرجاتها من لم يذق ذلك أو يجربه ، ولا يمكن أن يتكلم فى ذلك من لم يطبق الشريعة ويعمل بها ·

ثم ان العلوم الذوقية لا يمكن الوصول اليها بعبارة ، بل انك لو سألت عن وصف المحسوسات لما وجدت جوابا عن كثير منها كالسؤال عن المشمومات والمسموعات الخ ، هذا فى الماديات .

فما بالك بذوق المعانى أو العواطف السامية كالحب فى الله تعالى والاخلاص لله عز وجل · وكيف يبارز أحد قوما لا يعرفون سوى الله عز وجل فى جميع شئونهم ؟

ومادة التصوف كلها انما هى لا يقصد بها سوى وجه الله تعالى سواء فى الاخلاق أم السلوك أم المعرفة أم المشاهدات أم المناجاة أم التجليات الخ ·

قال فى التعرف :

[علوم الخواطر وعلوم المشاهدات والمكاشفات وهى التى تختص بعلم الاشارة وهو العلم الذى تفردت به الصوفية بعد جمعها سائر العلوم التى وصفناها ·

وانما قيل علم الاشارة لان مشاهدات القلوب ومكاشفات الاسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق ، بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ولا يعرفها الامن نازل تلك الاحوال وحل تلك المقامات) ·

قال أبو الحسن بن أبى ذر فى كتابه « منهاج الدين » أنشدونا للشبلى :

علم التصوف علم لا نفـاد لـه ... علم سـنى سـماوى ربوبى
فيه الفـوائد للارباب يعرفهـا ... أهل الجـزالة والصنع الخصوصى

(ثم لكل مقام بدء ونهاية وبينهما أحوال متفاوتة ولكل مقام علم ، والى كل حال اشارة ، ومع كل مقام اثبات ونفى ، وليس بكل ما نفى فى مقام كان منفيا فيما قبله ولا كل ما أثبت فيه كان مثبتا فيما دونه) (١) ٠

يقول القطب الدسوقى :

(لا تقنعوا من الطريق بالوصف دون الذوق وما تكلم القوم الا على شىء ذاقوه فبالله عليكم يا أولادى اذا سألكم أحد عن شىء من مقامات الطريق فلا تجيبوه الا أن كنتم متحققين به] ٠

(فيا جميع أولادى اذا سألكم أحد عن التصوف مثلا أو عن المعرفة والمحبة فلا تجيبوه قط بلسان قالكم حتى يبرز لكم من صدق معاملتكم ما برز للقوم ، فيكون كلامكم عن حاصل وعن محصول ،فاذاقام أحدكم بالاوامر الدينية وصدق فى العمل يترجم لسانه بالفوائد التى أثمرت من صدقه ، وكل من ادعى الصدق والاخلاص ولم يحصل عنده ثمرة الادب والتواضع فهو كاذب وعمله رياء وسمعة لا يثمر له الا الكبر والعجب والنفاق وسوء الاخلاق شاء أم أبى) ٠

ولصعوبة التصوف قل من نراه مشتغلا بهذا العلم لان هذا علم الخصوص الممزوج بالمرارة والغصص وليس للنفس فى منازلته حظ لانه منوط بمخالفة النفوس وتدريبها وتكملتها وتصفيتها فمن أجل ذلك عزف الناس عن هذا العلم واشتغلوا بالعلوم التى تخف عليهم مؤونتها ، وتفتح لهم أبواب الحظوظ والمكاسب الدنيوية وهذه العلوم أقرب الى الغرائز وأخف على النفوس التى جبلت على متابعة الحظوظ ٠

وأين من الناس ممن يشغل نفسه بالتخلص من دقائق الرياء أو قطع أسباب الشرك الخفى ، وأين من الناس من يطلب الخلاص من الحقد والحسد والغل والكذب والنفاق والظلم ؟ وأين من الناس من يخلص نفسه من غرائز التعالى على الاخرين والسيطرة عليهم ؟ وأين من الناس من يعمل على تطويع نفسه ليوافق هواه كل جزء من جزئيات الشريعة ؟ وأين من الناس ممن يفضل أن يمزق

---

(١) التعرف — ص ٨٨ ٠

اربا عن مخالفته لسنة من السنن المحمدية ؟ وأين من الناس من يتهم نفسه فى كل عمل بالتقصير فى جانب الله تعالى ؟

ان أئمة الصوفية جمعوا فى علومهم بين التفسير والحديث والفقه ، ثم طبقوا العلم على العمل فأخضعوا النفس لاحكام الشريعة ، وتفردوا عن غيرهم بعلوم التربية والنفس وعلاجها وتزكيتها ، ومقامات السالكين وأحوالهم وآداب المنازل والمقامات . والمعاملات القلبية لاتقل أهمية عن المعاملات الظاهرية بل ان الاخيرة بعضها لا يقع الا مرة فى العمر والاولى تقع مئات المرات يوميا ٠ قيل للحسن البصرى فلان فقيه ٠ فقال : ان الفقيه هو الزاهد فى الدنيا الراغب فى الاخرة البصير بأمر دينه ٠

ــ ومن أسباب اساءة الادب مع العارفين : الانكار على المظهر :

من مطعم أو مأكل أو مشرب أو ملبس أو ضحك أو بكاء وغير ذلك من الاحوال الحسية والنفسية الظاهرة للعيان ٠

وهذه أحكام نسبية لا دخل لها بالمعرفة وعدمها ٠ وما ذنب العارف فى أن البعض يرى أن الصوفى يلبس ويأكل الخشن ،والبعض يرى أن الصوفى يجب أن يظهر نعمة الله تعالى عليه فيلبس الرقيق ويترفه فى مأكله ، ولا دخل لهذا بالطريق ولا بالمعرفة ٠

وفى ذلك يقول (لا تنكروا على فقير حاله ، ولا لباسه ولا طعامه ولا على أى حال كان ، ولا على أى ثوب يلبس ، ولا انكار على أحد الا أن ارتكب محظورا صرحت به الشريعة ذلك لان الانكار يورث الوحشة ، والوحشة سبب لانقطاع العبد عن ربه عز وجل) ٠

وقد يلبس بعض العارفين أرق الثياب وأغلاها لانه لا يطيق لبس الخشن لشدة نظافته ، وكما قلنا أن الجسم يتأثر بأحوال النفس ٠ وكان القطب الكبير الامام الشاذلى وتلميذه أبو العباس المرسى يلبسان أرق الثياب وأفخرها ٠

وفى ذلك يقول : (اذا قويت فى القلب الانوار لم يطق صاحبه حمل ثوب رقيق ولا ازار ، فان تهتك هذا فلا يلام ٠ وان صاح أو باح فقد حل عنه الملام ، وان رش عليه الماء فى ليالى الاربعينيات فلا يزيد الا ضراما ، وكل شيء نزل

بباطنه من الطعام والماء نار واستنار · فيا أولادى : الفقراء كلهم عندى ملاح فليكونوا عندكم كذلك فاحذروا الانكار) ·

(وقد ينكر المنكر على الصوفية تواجدهم : قيل للجنيدى : ان قوما يتواجدون ويتمايلون · فقال : دعوهم مع الله يفرحون ولا تنكروا الا على العصيان المصرح به فى الشريعة ، أما هؤلاء القوم فقد قطعت الطريق أكبادهم ومزق النصب (التعب) فؤادهم ، وضاقوا ذرعا ، فلا حرج عليهم اذا تنفسوا مداواة لحالهم ، وكذلك يا أخى لو ذقت مذاقهم لعذرتهم فى صياحهم وشق ثيابهم · وقد يعلم العارف أو المريد أن الناس سينفضون من حوله لو تعاطى ما يتعاطونه من مزاح أو عمل مباح فيفعله بغرض صرفهم عنه :

عبـــد دعـــاه لبـــابه مولاه   فأجاب لمـــا أن اليه دعـــاه
ويود لو كانت حشاشة روحه   طوعا لمزقهـــا لاجـــل يراه

وفى ذلك يقول (اذا ضحك الفقير فاحذروه ولا تخالطوه الا بأدب فانه ربما مزح كالناس لانه يفعل ذلك تنفيرا لهم لئلا يعتقد فيشتغل عن ربه عز وجل) ·

ــ ومنها الانكار عليهم لقصور الهمم عن العمل بالشريعة :

فقد بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء،أى العاملين بالشريعة ، فانهم يصبحون غرباء وسط المنصرفين عن العمل بقواعدها ، كيف لا والعمل بالبدعة يصبح فرضا ،والعمل بالسنة يصبح بدعة ،والصدق جفاء ، والكذب ظرفا ، والخيانة كياسة ، والكياسة حماقة . وقس على هذا واذا تكالب الناس على الدنيا من كل حدب وصوب فأصبحت شغلهم الشاغل فقد تودع منهم .

وفى ذلك يقول (عليك بالوحدة فانك فى القرن السابع الذى أكثرهم يجعل الحقيقة مخالفة للشريعة ، ويقولون باب العطا أغلق حين رأوا باب العطا أغلق دونهم ، وما علموا أن لله عبادا أفاض عليهم من جوده ما لا عين رأت من علوم ومعارف وأسرار) ·

ــ ومنها الانكار بسبب عقدة النقص :

اما من خلل فى الدين أو ضعف فى الايمان أو نقص فى العلم فيهاجم هؤلاء كل من تلوح عليه مظاهر الكمال فى شىء حرموا من تحصيله : وهذا أشبه

بالعداوة التى نلمسها أحيانا فى الغبى للذكى ، والفاشل للناجح ، والعاجز فى الصنعة للماهر فيها ٠

وينبه على هذا الداء بقوله (اذا صدق العبد فى الاقبال على الله أحبه المؤمنون فلا يبغضه الا كافر أو منافق) ٠

والخلق الكريم يقتضى الا ينتقص الانسان أحدا لحظ نفسانى (ولا يقدح فى صاحب خرقة الا ان خالف صريح الكتاب والسنة اختيارا) .

وعلى المنكر أن يرينا موازينه التى يزن بها أفعال العارفين ، وعليه أن يثبت أنه يملك جميع الصنج التى يزن بها أفعال العباد كما يوزن الذهب حتى يصح له الانكار ٠ فان لم يفعل ولن يفعل فعليه أولا بمجاهدة نفسه الهالكة قبل أن يحاسب غيره على كمالات لا تطرأ على باله ٠

بل ان أحق الناس بمراعاة أرفع الاداب معهم هم أهل الله تعالى ٠ وفى ذلك يقول : (الفقير أحق بالهيبة من السلطان لانه جليس الحق وربما لا يكون السلطان ممن يصلح لمجالسة الحق لكونه أخذ المرتبة بالسيف أو يكون مبتدعا أو غير ذلك) ٠

لكل ولى حجاب :

قال الامام أبو الحسن الشاذلى : لكل ولى حجاب وحجابى الاسباب ٠

وقال الجلال الكركى (١) فى بيان حُجب الاولياء :

فمنهم من حجابه ظهوره بالسطوة والعزة ٠ وسبب ظهور ذلك الولى بذلك ، هو تجلى الحق عليه ، فاذا تجلى بصفة ظهر بها ، فاذا غلبت عليه شهودا غلبت عليه ظهورا ، فلا يقدر على صحبته والثبات معه الا من محا الله نفسه وهواه .

ومن هذا الصنف كان أستاذنا رحمة الله عليه مع ملوك الدنيا ورؤسائها لا يجلس واحد منهم بين يديه الا والرعب قد ملك قلبه ٠٠٠ فأى ملك أعظم من هذا الملك ! هذا ملك أعوز الملوك وجوده ، ألا ترى أنه لم يزل فى كل قطر وعصر أولياء تذل لهم ملوك الزمان ، ويعاملونهم بالطاعة والاذعان : كعارف هذا

---

(١) لسان التعريف ٥٣ ـ ب وما بعدها ٠

الزمان أبى السعود[1] أدام النفع به فى الوجود ، وعين الابدال عبد القادر الدشطوطى ، قال بعض العارفين :

ويا صاحبى قف لى مع الحق وقفة ... أموت بها وجدا وأحيا بها وجدا
وقل للملوك الارض تجهد جهدها ... فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

خصوصا ياذا العقل المتين ما قيل فى شأن الملوك والسلاطين :

ان الملوك بلاء أينما حلوا ... فلا يكن لك فى أبوابهم ظل
ماذا تؤمل من قوم اذا غضبوا ... جاروا عليك وان أرضيتهم ملوا
وان مدحتهم ظنوك تخدعهم ... واستثقلوك كما يستثقل الكل
فاستغن بالله عن أبوابهم كرما ... ان الوقوف على أبوابهم ذل

ويقصد بالملوك هنا : الحكام أينما كانوا ماداموا جائرين ·

ومنهم من يكون حجابه كثرة التردد على الملوك والاكابر فى حوائج العباد فيقول قصير الادراك : لو كان هذا وليا ما تردد على أبناء الدنيا · وهذا جور من قائله ، بل ينظر تردده اليهم : ان كان لاجل عباد الله وكشف الضر عنهم وتوصيل مالايستطيعون توصيلهاليهم مع الزهد عما فىأيديهم ، والتعزز بعز الايمان وقت مجالستهم ، وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، فلا حرج على من هذا شأنه لانه من المحسنين وقد قال سبحانه (ما على المحسنين من سبيل) ومن هذا الصنف كان الشاذلى كما مرت الاشارة اليه[2] ·

ومنهم من حجابه بكثرة الغنى وانبساط الدنيا عليه كما قيل : كان بالغرب رجل زاهد فى الدنيا عيشه مما يصيده من البحر يأكل البعض ويتصدق

---

(1) هو أبو السعود الجارحى ومقامه مشهور بمصر القديمة وكان يقول (من حين جلست تسخا فى مصر لى سبع وثلاثون سنة ما جاء لى قط احد يطلب الطريق الى الله) انما يجيء الذى يقول : امراتى تناكدنى جاريتى هربت جارى يؤذينى شريكى خاننى ، وكلت نفسى من ذلك وحنت الى الوحدة وما كان لى خيرة الا فيها فياليتنى لم أعرف أحدا ولم يعرفنى أحدا) توفى ٩٣٢ هـ ·

(2) تكلم فى ق ٥٢ — ب عن سعى الامام الشاذلى لخدمة الناس لدى الحكام حتى قال فيه الامام تقى الدين محمد بن على القشيرى (جهل ولاة الامور بقدر الشيخ ابن الحسن الشاذلى لكثرة تردداده اليهم فى الشفاعات) · ويؤثر عنه أنه استدعى يهوديا كحالا ليداوى بعض من عنده فقال اليهودى للشيخ : لا استطيع ان اعالج فانه جاء مرسوم من القاهرة أن لا يداوى احد من الاطباء الا باذن من مشارف الطب (يشبه وزير الصحة) بالقاهرة · فلما خرج ذلك اليهودى · قال الشيخ ابو الحسن لخدامه هيئوا آلة السفر · وسافر لوقته الى القاهرة · واخذ لهذا الطبيب اذنا ، وعاد ، ولم يبت بها ليلة واحدة · ثم جاء الى الاسكندرية فأرسل الى ذلك الطبيب ، فأعتذر له بما امتذر له أولا · فأخرج له الشيخ مكتوبا باذن · فأكثر اليهودى التعجب من هذا الخلق الكريم ·

وهذا الخلق لا يقوى عليه الا عبد تخلق بالاخلاق المحمدية فبذل كل وجوده فى مرضاة الله تعالى برحمة عباده ·

بالبعض . فأراد بعض أصحابه السفر . فقال له اذا دخلت بلدة كذا فأقرىء فلانا منى السلام ، واطلب لى منه الدعاء فانه من الاولياء . قال فسألت عن ذلك الرجل فدللت على دار لا تصلح الا للملوك . فتعجبت من ذلك وطلبته فقيل هو عند السلطان . فازداد تعجبى . فبعد ساعة واذا هو قد أتى فى أفخر ملبوس ومركب كانما هو ملك فى موكبه ، فازداد تعجبى أكثر من الاول ، فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت لا يمكننى مخالفة الشيخ . فاستأذنت فاذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد والخدم والاشياء الحسنة . فقلت له : أخوك فلان يسلم عليك . قال : جئت من عنده ؟ قلت : نعم . قال: اذا رجعت اليه قل له : الى كم الاشتغال بالدنيا ، والى كم الاقبال عليها ، والى متى لا تنقطع رغبتك . فقلت فى نفسى : هذا والله أعجب .

فلما رجعت الى الشيخ ، قال : اجتمعت بأخى فلان ؟ قلت : نعم . قال : فما الذى قال لك : قلت : لا شىء . قال : لابد أن تقول . فأعدت عليه ما قال : فبكى طويلا . وقال : صدق أخى فلان . وهو والله غسل قلبه من الدنيا وجعلها فى يده ، وعلى ظاهره ، وانما أخذها من يدى وعندى اليها بقايا التطلع .

وعلامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجود ، ووجود الراحة منها عند الفقد . ومن هذا الصنف كان محمد بن الحسن (١) صاحب أبى حنيفة . لما دخل الشافعى (٢) داره بالكوفة . رأى أثوابا عراقية ودهاليز سقوفها منقوشة . فذكر ضيق مالك وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى فبكى . فقال له محمد : لايرعك مارايت يا أبا عبد الله فما هو الا مال مكتسب وأنا أخرج زكاته كل عام فأسر به الصديق ، واكبت به العدو . وقصة الامام الشافعى معه شهيرة . وكذا مع الامام مالك (٣) رضى الله عنه لما رجع من العراق واجتمع به فى حال غنائه ، فبكى الشافعى حين رأى الدنيا قد أقبلت على الامام مالك . فقال له : أخفت يا أبا عبد الله أنى بعت الاخرة بالدنيا .

---

(١) الامام الكبير محمد بن الحسن الشيبانى (١٣١ — ١٨٩ هـ) وفى غزارة علمه يقول الامام الشافعى (لقد حملت من علم محمد بن الحسن وقر بعير) وله مؤلفات كثيرة .

(٢) الامام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى ونسبه الى جـده شافع بن السائب الصحابى رضى الله تعالى عنه ولد ١٥٠ هـ وتوفى ٢٠٤ هـ . واستدعاء الرشيد الى بغداد للعزل فشفع فيه محمد بن الحسن فعفى عنه ، ويسر له الامام محمد بن الحسن العيش فى بغداد وكان ينتقل ما بينها وبين مكة حتى سنه ١٩٨ هـ وفيها خرج الى مصر وبها توفى .

(٣) هو مؤسس المذهب المالكى الامام مالك بن أنس الاصبحى (٩٩ — ١٧٩ هـ) وكان مع غزارة علمه مهيبا جليلا لا يخشى فى الحق لومه لائم وكان الخليفة فمن دونه يجلس بين يديه مطرقا من مهابته .

قال : هو والله ذاك · قال طب نفسا وقر عينا · فان هذه هدايا خراسان ومصر وسائر الدنيا · وان لى ثلاثمائة حلة من دق خراسان ، وقباطى مصر ، وعندى عبيد مثلها ، وهى هدية منى اليك · وفى صناديقى تلك خمسة آلاف دينار أخرج زكاتها كل حول فلك نصفها هدية ·· الى آخر القصة ·

ومنهم من يحجب بالقبول من الخلق فاذا قبل ما يعطى منهم صغر فى أعينهم اذ لا يكبر عندهم الا من لا يعبأ بدنياهم ، وربما فعل شخص ذلك استجلابا لقلوب الناس ليتوجهوا اليه بالتعظيم ولتنطق الالسنة بالثناء عليه · وفى هذا يقول الامام الشاذلى : من طلب الحمد من الناس بترك الاخذ منهم فانما يعبد نفسه وهواه وليس من الله فى شىء ·

وقد يكون مرادهم بأخذهم مخالفة نفوسهم ·

ومنهم من يحجب بشهود المماثلة وهو أشد الحجب عن معرفتهم لانه سبحانه حجب به الأولين . قال تعالى حكاية عنهم (ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) (١) وقال مخبرا عنهم (أبشرا منا واحدا نتبعه)(٢) . وقال سبحانه (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق) (٣) ·

فاذا أراد الله أن يعرفك بولى طوى عنك شهود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته . وبالجملة فالعارف قل من يعرفه ، ومن ثم جهلت أحوال الاكابر أرباب المقامات ، واشتهر أهل الاحوال لظهور آثار المواهب عليهم لضعفهم عن كتمانها ولضيقهم عن وسعها · والعارف له اتساع المعرفة فاذا ورد الوارد عليه غرق فى وسع رحمته ، وهل رأيت بحرا فاض من مطر ؟ ولذا قيل للجنيد : ما لنا نرى المشايخ يتحركون فى السماع وأنت لا تتحرك ! ؟ فقال (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) · فربما كان صاحب الحال أحظى باقبال الخلق من صاحب المقام وبينهما كما بين السماء والارض · وكلما تمكن العارف فى العلوم الالهية والمعارف الربانية استغرب فى هذا العالم ، فيقل من يعرفه ويفقد من يحيط به فيصفه ·

---

(١) سورة (المؤمنون) من الآية ٣٣ .
(٢) سورة القمر من الآية ٢٤ .
(٣) سورة الفرقان من الآية ٧ .

شكواه من أهل زمانه

تعرض العالم الاسلامى لاشد أنواع المحن والبلايا فى القرن السابع (١) الهجرى ودخل فى ليال داجية كاد يطمس معالم الحضارة الاسلامية ظلامها الدامس ٠

فقد وقع العالم الاسلامى بين شقى الرحا التتار فى الشرق والصليبيون فى الغرب ، ولم يكن هذا بالسبب الرئيسى لما حل بالمسلمين من كوارث تضيق الصفحات عن تسطيرها ، بل كان السبب الاكبر هو قصور الهمم عن العمل بالشريعة والابتعاد التدريجى عن مواقع الوحى والانصراف عن كلام الله عز وجل ٠ وانعكس هذا الوضع على جميع مظاهر الحياة ٠

فالحياة السياسية استبداد مطلق ، وقواعد الحكم بعيدة كل البعد عن تحقيق العدالة الشرعية ، فمن احتكار للوظائف ، الى استغلال السلطة ، الى تعال بالجاه والمولد ٠ وانعكس هذا الموقف على الادب والثقافة ، وعلى التصوف ٠

فالادب انحطت أغراضه فهو اما استجداء للحاكم أو تأليه له أو نفاق وتصفيق وتسبيح بحمده ٠ وانحدرت أهدافه الاجتماعية الى الرثاء أو الشكوى والضجر من جور الزمان ، وظلم الايام والليالى ، وأصبحت الحظوظ توزع على أساس القواعد العكسية ، فالعلم اقترن بالفقر ، والذكاء اقترن بالحقد والرزايا ، وسعد كل منافق عليم اللسان ٠

والثقافة أخذت تتجمد لان المجتمع لا يبغى حراكا ، بل ولا يحسن السكون انه مجتمع الكف عن العمل المثمر المتجه الى اعلاء الحق ، مجتمع الكف الذى لا يبحث الا عن السلامة فى التقوقع على نفسه وهيهات أن يجدها لانها أشبه بسلامة النعامة التى تدفن رأسها والصياد فى أثرها ٠

والتصوف : أصبح حرفة يقتات منها من ضاقت به سبل العيش فلجأ الى

---

(١) سنذكر آخر الباب صورة سريعة لحالة العالم اسلامى فى ذلك الوقت ٠

ارتداء الزى الصوفى وحفظ بعض عبارات يوهم بها الناس أنه من كبار رجال الطريق ، فأساء الى نفسه والى مجتمعه ٠

ولذا نجد أن القطب الدسوقى يشكو مر الشكوى من قلة المخلصين فى الطريق فيقول (والله يا أولادى لو وجدنا الى الخلوة سبيلا أو وجدنا الى الانقطاع فى بيوتنا عن أعين الناس من سبيل لفعلنا ٠ فان القلب فى هذا الزمان متعب ، والكبد كل وقت يذوب ، فأين الملجأ ؟ وأين المفر ؟ من أهل هذا الزمان ، زمان كثر فيه القال والقيل (١) ولكن الذى بلانا بأهله يدبرنا ويعيننا بحوله وقوته) ٠

ثم يخاطب مريديه فيقول :

(يا أولادى ، كم غرور ! كم لهو ! كل لعب ! كم غى ! كم هوى ! كم افتراء ! كم نكد ! كم غدر ! كم سهو ! كم نسيان ! كم غفلة ! كم ذلة ! كم اجرام » كم زور ! كم فتور ! كم أعظكم ولا تسمعون ! ما أنتم الا أموات !)

وكان يرى أن الوحدة اذا ما فسد الجليس أسلم (٢) حتى يكمل المريد فاذا كمل فلا عليه من المخالطة فيقول :

[كان السلف الصالح يخافون من آفات الاجتماع فلذلك آثروا العزلة الا فى أوقات الجماعات ومجالس العلم التى لارياء فيها ولاجدال ولاعجب ولامداراة والسلامة من هذه الامور فى زماننا هذا قل أن توجد ٠ فعليك بالوحدة بعد معرفة ما أوجب الله تعالى عليك فانك يا ولدى فى القرن السابع الذين أكثرهم يجعلون الحقيقة مخالفة للشريعة ، وحقيقة المحبة بدعا فى الطريق ، كأنهم ماعلموا قط بعطاء الله ومواهب الله وخوارق عجائبه .بل رأوا من سوء حالهم أن باب العطاء قد أغلق ٠ فمن اعتقد ذلك فانما هو معترض على الله تعالى فى فعله ونعوذ بالله من التعرض ، فانه لابد لاهل حضرته تعالى من التمييز عن المعرضين ليشتاق المعرضون اليها حيث يرون الخوارق تقع على يد أوليائه ،

---

(١) وفى الكواكب الدرية (زمان كثر فيه القال بلا حال لكن من ابلانا بأهله يدبرنا معهم) ق ٣٣٠ ــ ب ٠

(٢) ليس هذا من قبيل ما يسمى « حالات الهروب النفسى » وانما هو من قبيل العلاج للوصول الى الاتزان النفسى ٠ أما فى حالات الهروب فان الحالة تزداد سوءا ٠

فما أجهل من جهل قدر الفقراء وما أعماه · ايش (أى شىء) يقال فى قوم كلهم طالبون الله تعالى ، أينكر عليهم مسلم ! كلا والله) ·

ويقول :

[واغوثاه من أهل الزمان والله لو كان فى العمر مهلة لسكنت أطم الجبال وبطون الاودية بين الوحوش حتى أموت · فان الرجل الان بين هؤلاء الناس فى أشد جهاد · قلوب شاردة ، وأحوال مائلة ، وشهوات غالبة ، قد عدموا الصدق فى الاحوال ، وكيف يقدر الضعيف على صون نفسه حال عشرتهم ! وغض بصره عن رؤية أفعالهم الردية ليلا ونهارا ، ويصبر معهم على كل فتنة وشهوة وأذى من غير أن يقابلهم بمثله · هذا لا يطيقه الا الصالحون) ·

ويقول (يا ولدى ان كنت ولد قلبى حقا فكن على حذر من الدخلاء السوء ، وان عاينت من أخيك عنفا أو حسدا فعاشره بالمعروف واحفظ نفسك عنه · وأما صديقك فان صدقك فاحفظه · وما للمرء يا ولدى الا أن يكون على حذر من جميع البشر فانا فى آخر زمان وقد قل النصح فيه من الاخوان حتى لا تكاد تنظر ناصحا يعينك . وعاد من توليه سرورا يوليك نكدا وشرورا ومن ترفعه يريد ان يضعك ، ومن لم تحسن اليه يسىء اليك بل ثم من تحسن اليه يسىء اليك ، ومن تشفق عليه يود أنه لو رماك على الشوك واسنة الرماح ومن تنفعه يضرك ومن توليه معروفا يوليك جفاء ، ومن تصله يقطعك . ومن تطعمه يحرمك ، ومن تقدمه ان استطاع اخرك ومن تربيه يقول انا الذى ربيتك . ومن تخلص له يغشك ، ومن تهش له يكشر لك ، فوا عجبا للدنيا ولأهلها) .

(واذا كان مالك بن دينار (١) يقول فى زمانه لو نبتت للمنافقين أذناب فى هذا الزمان لما وجد المؤمن مكانا يمشى فيه) ·

(واذا كان النفاق داخلا فى أيام الانبياء عليهم الصلاة والسلام فكيف يخلو من القرن السابع · فان استطعتم يا أولادى أن تستعملوا الوحدة عن أهل

---

(١) من كبار العلماء العارفين توفى سنة ١٣١ هـ وكان يقول (ما بقى لاحد رفيق يساعده على عمل الآخرة انما هم يفسدون على المرء قلبه) ويقول فى قوله تعالى (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض ولا يصلحون) فكم اليوم فى كل مدينة ممن يفسد ولا يصلح : يعنى أن ما عدا التسعة كانوا كلهم يصلحون ولا يفسدون . وهؤلاء انما يتكلمون بحكم مريبتهم ، وكلما علت المريبة كلما اشتد الابتلاء .

السوء فافعلوا • وان استطعت ألا تصحب من تتعب فى صحبته فافعل • فانك ان صحبته ندمت على صحبته • وقد نصحتك ياولدى) •

(ولا تتشبهوا بأهل التمكين ، فان أهل التمكين قد تركوا أخلاق الاراذل من الناس وغفروا لهم أفعالهم وغضوا أبصارهم • وصموا آذانهم عن سماع أقوالهم • وتركوا الكل لله تعالى ، وطلبوا من الله تعالى لاهل هذا الزمان عفوا شاملا وقابلوا سيئاتهم بالحسنات ومضراتهم بالمسرات والمبرات) •

ويقول (ما بنيت طريقتنا هذه الا على النار والبحر الهدار والجوع والاصفرار ماهى بالشدقة ولا بالفشار ، دعونا من هذه البطالات فما وجدنا من أولادنا الى هذا الوقت أحدا اقتفى آثار الرجال ولا صلح أن يكون محلا للاسرار فآه ، آه . والله أننا كلنا مساكين فى أضعف حال وآخر(١) زمان) .

وكل هذا صادر عنه لشدة غيرته من أن يرى الناس تتعلق بالدنيا أشد من التعلق بالاخرة ، ولشدة حبه للخير للناس فهو يتمنى أن يتجهوا الى اصلاح قوابلهم لتلقى الفيوضات الالهية ليسعدوا السعادة التى ليس بعدها شقاء وينعموا فى الدارين بالرضوان الاكبر •

هذه هى القواعد الراسخة التى أسس عليها هذا القطب الشهير بنيان مدرسة صوفية جديدة هى الطريقة البرهامية التى لم تلبث حتى ذاع صيتها فى جميع أنحاء العالم الاسلامى •

---

(١) يعنى أن الامة المحمدية هى آخر الامم .

صورة سريعة لحالة العالم الاسلامى
فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى

كى يمكننا تقدير المدرسة الصوفية البرهامية من جهة ، وكى نتمكن من ربطها بالحياة فى ذلك الوقت من جهة أخرى ، لابد من عرض صورة سريعة للحالة فى العالم الاسلامى عامة ، والعالم العربى بوجه خاص ، فىهذه الفترة : فترة النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ٠

تعرض العالم الاسلامى فى هذه الفترة الى خطرين داهمين لكنهما ليسا بالجديدين عليه ٠ وهما الخطر التترى والخطر الصليبى ٠

أما الخطر التترى فقد بدا أن خلفاء جنكيز خان أخذوا يفكرون فى تكملة غزو العالم القديم بعد أن أخضعوا معظم القارة الاسيوية لحكمهم وهددت أطرافهم أوربا الشرقية بالدمار ٠

وفى عهد هولاكو بن فولى بن جنكيز خان اتجه الاعصار البشرى المدمر نحو عاصمة الخلافة الاسلامية ــ بغداد ــ ٦٥٦ هـ فحولها الى أكوام من الهدم ، وبركة من الدماء غارقة فى الاحزان ، تشهد على أن التفريط عاقبته أوخم العواقب ، فقد أسفرت المذبحة الهائلة عن اراقة دماء أكثر من مليون قتيل ، لو قتلوا فى المعركة لكان خيرا لهم من مطاردة رماح التتار وسيوفهم فى حفلة الموت الاخيرة ٠ يقول المؤرخ سيد أمير على (لم يفلت من يد المغول الا نفر قليل من السلالة العباسية ، وأما بغداد مهد الحضارة ومقر العلم والنور وعين العالم الاسلامى وقلبه النابض فقد خربها المغول ولم يبق من سكانها سوى نصف مليون بعد أن كانوا نحو مليونين من الانفس) ٠

وراحت بغداد ومعها العراق ، والسر فى ضياعها : الصراع المذهبى بين الشيعة وأهل السنة ، والعصبية العرقية بين الأتراك والعرب ! وأهم من هذا وذاك انحطاط النفوس عن مراتب الحياة التى حددتها الشريعة الخالدة لتكريم الانسان .

ووجه البرابرة الى الاسلام ضربة ثقافية أشد فقد ألقوا بكتب المكتبات الاسلامية فى نهر دجلة ليعبروه عليها . وما أرخص العلم لدى البرابرة الذين يجهلون معانى الحياة ولا يفهمون الا منطق السفاحين .

ودمروا شمال سوريا وحلب سنة ٦٥٨ هـ .

ولولا صيحة النصر المشهورة التى أطلقهـا السلطان الملك المظفر قطـز مدوية (وا اسلاماه) فى قلب المعركة ، فبعث الحياة وقوة الايمان من جديد فى قلوب الجيش الاسلامى فدحر البرابرة فى عين جالوت ٦٥٨ هـ ، لولا هذا لوقعت مصر وأفريقيا تحت سنابك خيولهم .

وتوفى هولاكو سنة ٦٦٣ هـ ولم يستطع الانتقام ليمسح ما لحقه من عار فى عين جالوت ، واستقر التتار فى العراق ، ولم يزل خطرهم الا حين اعتنق خانهم الاسلام فى أواخر القرن السابع الهجرى ، هذا فضلا عن انشغالهم فى مشاكل أبناء عمومتهم فى آسيا .

والغريب أن هذا الوباء التترى كان معاصراً للخطر الصليبى فى الغرب فكان الوطن العربى محصورا بين شقى الرحا الصليبيون فى الغرب والتتار فى الشرق ، وكأن هناك اتفاق بين الطرفين أوجدته وحدة الهدف وهو القضاء على العالم العربى ، وقد بلغ هذا الخطر أوجه حين تزوج هولاكو من مسيحية نسطورية ، وكان فى الامكان أن يستغل الصليبيون هذه المصاهرة لصالحهم ، ولكنهم ترددوا فى السير الى آخر الشوط مع حليف وثنى هائل اعتنق بعض رعاياه المسيحية على مذهب يخالف مذهبهم ، ومن يدرى فلربما فعل بهم ما فعل بالمسلمين فتكون نهاية الحلف نهاية بغدادية ! لذا وقفوا موقفا سلبيا .

وكان هذا التردد سببا فى انتصار المسلمين على الصليبيين فى الشام فقد دمر السلطان الملك الاشرف خليل آخر حصونهم (عكا) ٦٩٣ هـ وهى المدينة التى دفن نابليون الاول فيما بعد آماله تحت انقاض أسوارها ، وبسقوطها تحرر الشام نهائيا من الغزو الاوربى المستتر تحت اسم الصليب مدة طويلة .

ولكن حظ العرب فى الاندلس كان سيئا . فمنذ دق البابا الناقوس الصليبى سنة ٦٠٩ هـ والحرب لا تهدأ لطرد المسلمين من الاندلس (أسبانيا) وكان هذا

ايذانا ببدء ملحمة تاريخية كتبت بالدم على صفحات الوطن الاندلسى. وكان ما كان من أهوال سجلها الاديب الكبير صالح بن شريف الرندى فى نونيته المشهورة (١) .

ويا ليت هذه المآسى قد دفعت العرب الى تصفية ما بينهم من خلافات بل ومما زاد الطين بلة والحالة سوءا انهم قد ابتلوا فى كل بقعة بالخلافات التى لا تنتهى حتى أصبح الخلاف قضية من لوازمها الدور والتسلسل .

أما من ناحية الاحوال الداخلية :

فمن الناحية السياسية سادت نظرية الحكم المطلق ، وبذا ابتعد الحكام المسلمون عن عمد عن النظام العملى للدولة فى الاسلام ، بتحويلهم الحكم الى سلطان استبدادى ، بحيث يصبح الحاكم هو الدولة والدولة هى الحاكم كما قال لويس الرابع عشر فى فرنسا .

وهذا هو السر الذى يفسر لنا كثرة حوادث الاغتيال والقتل وقلب الحكم فى ذلك العهد وما تلاه من العهود اذ من شأن المستبد ألا يتغير حكمه الا بالقوة لا بالطريق السلمى . حتى أن الملك المظفر قطز قتله قواده عقب انتصاره الخالد فى وقعة عين جالوت . وهذا هو الاحتفال بالنصر !

واشتد التناطح على مراكز القوة الى درجة فاقت حدود التصور ، وهذا الصراع ثمرة طبيعية لنظـام الحكم . فلو كان الحكم تكليفا وواجبات لكان هروب الانسان منه أكثر من طلبه له ، أما وأنه غنم لا غرم فيه ، وكسب وجاه وسيطرة ، فلا غرو اذا كان التسابق عليه كالتسابق على الكراسى الموسيقية ، وياويل المصلحة العامة ، وياويل الرعية .

ومما جرى مجرى الأمثال فى هذا الصدد أن رقعة مساحتها لا تزيد على الثلاثين فرسخا مربعا فى الاندلس تولى حكمها أربعة كلهم يحمل ألقاب الخلافة وهم : الموفق والمؤيد والمهدى ، والمستعلى مع خراطيش التجلة والاحترام التى تسبقها ، وهو من مركب النقص ، كمن يخلع على الغزلان صورة الاسود كى يخيف بها من حوله ، وقد استهزأ ابن شرف القيروانى من ذلك بقوله المشهور ،

---

(١) راجع القصيدة فى الحلل الاندلسية — الامير شكيب أرسلان — ج ٢ ص ٥٤٦ — ٥٤٧ ط القاهرة ١٩٣٩ .

مـــا يزهدنى فى أرض أنـــدلس القـــاب معتصـــم فيهـــا ومعتضد
القـــاب مملكة غـــير موضــــعها كالهر يحكى انتفاخا صورة الاسد

اما من النواحى الاقتصادية والاجتماعية :

فقد سادت اقتصاديات الاقطاع العسكرى فى الدول الخاضعة لحكم المماليك ٠ بمعنى أن الدولة تقسم الى اقطاعيات سلطانية وعسكرية مما كان له أسوأ الاثار فى النظام الاجتماعى الذى تحول بداهة من نظام أفقى الى نظام رأسى صارم : طبقة ممتازة وتشمل السلطان والحاشية والامراء العسكريين وبيد هؤلاء كل سلطان الدولة والطبقة المتوسطة : وتشمل التجار والمثقفين ٠ وعامة الشعب : وهم أجراء ٠

فالطبقية التى سادت المجتمع فى ذلك العصر من النوع الذى لا وجود له فى الاسلام : وهو سيطرة طبقة معينة لها مصالح مشتركة ، وعن طريق هذه السيطرة تسخر الدولة لتحقيق مصالحها .

وهكذا أخذت تزول من البلدان الاسلامية أهم أصول الحكم الاسلامى المبنى على الاخوة والعدالة والمساواة وتكافؤ الفرص وانعدام التكوين الطبقى الاستغلالى . وبدا ان الحكام يتهربون من السياج الدستورى الصارم المحكم المنيع الذى أقامه الاسلام حول الحقوق والواجبات والضمانات الفردية والاجتماعية وتحديد مسئولية الراعى والرعية امام اى خرق لحرمة هذا السياج ٠ هذه الاحوال لابد أن تقترن بظاهرتين :

١ ــ تدنى مستوى المعيشة الى الحد الحديدى للحياة وحدوث مجاعات كلما قل المطر أو الفيضان ٠

٢ ــ حدوث الاوبئة .

وتقول المصادر ان مصر تعرضت لموجات من المجاعات فى القرن السابع الهجرى نذكر منها القحط الذى حدث سنة ٦٩٥ هـ أى فى أواخر حياة القطب الدسوقى :

يقول ابن الفرات (١) فى حوادث سنة ٦٩٥ هـ :

وفى هذه السنة اشتد الغلاء وكثر الوباء بالديار المصرية .

فأما الغلاء فان سعر القمح انتهى الى مائة درهم وسبعة وستين درهما عن كل أردب بالمصرى ، وقيل أنه بلغ مائة وثمانين درهما ، والشعير زاد على المائة درهم .

عن كل أردب والفول من ثمانين الى تسعين درهما عن كل أردب والترمس عن كل أردب ستين درهما بعد أن كان يباع كل أردب بخمسة دراهم .

وبلغ ثمن كل فروج (دجاجة) عشرين درهما بعد أن كان بثلاثة دراهم ، وبيعت البطيخة الخضراء الصيفية بمائة درهم ... وبيع كل رطل لحم بسبعة دراهم نقرة ، وكل سبع بيضات من بيض الدجاج بدرهم نقرة (٢) .

ومات كثير من الدواب لعدم العلف وعدمت دواب الكرى حتى ما بقى يوجد من يسترزق منها ، كذلك هلكت الكلاب والسنانير من الجوع ، وتزايد الحال والضيق بسبب الغلاء الى حد النهاية وصار المحتسب فى كل يوم يعزر جماعة من الطباخين واللحامين بسبب بيع اللحوم المستقذرة والمحرمة شرعا.وتزايد الحال الى أن أكل بعض الناس الميتة من المواشى والكلاب ... الخ .

هذا ماكان من أمر الغلاء ، وأما الوباء فانه تزايد ووقع بالقاهرة وظواهرها فناء عظيم حتى كان يحصى من يخرج من باب من أبواب المدينة من الاموات فى اليوم الواحد ما يزيد على سبعمائة نفس أو نحوها هذا من داخل المدينة من أحد أبوابها والقاهرة بالنسبة الى ظواهرها [ضواحيها] كالشارع الاعظم [وكانوا يحملون الاموات فى شباك على الجمال] الخ .

---

(١) تاريخ الدول والملوك ــ تصوير ــ الجزء السادس عشر : من اللوحة ٦١ الى اللوحة ٦٣ .

(٢) نقرة على وزن حفرة وهى دراهم عيارها ٢ : ١ فضة : نحاس ــ صبح الاعشى ج : ٣ ص ١١٣ وما بعدها .

حكام مصر والبلدان العربية والاسلامية
فى ذلك الوقت (٦٥٠ ــ ٧٠٠ هـ)

مصر :

حكامها من المماليك البحرية :

المعز أيبك التركمانى ٦٤٨ ــ ٦٥٥ هــ ٠

المنصور نور الدين على بن ايبك ٦٥٥ ــ ٦٥٧ هــ ٠

المظفر سيف الدين قطز ٦٥٧ ــ ٦٥٨ هــ ٠

الظاهر بيبرس ٦٥٨ ــ ٦٧٦ هــ ٠

السعيد بركة بن بيبرس ٦٧٦ ــ ٦٧٨ هــ ٠

العادل سلامش بن بيبرس ٦٧٨ هــ ٠

المنصور سيف الدين قلاوون ٦٧٨ ــ ٦٨٩ هــ ٠

الاشرف خليل بن قلاوون ٦٨٩ ــ ٦٩٣ هــ ٠

الناصر محمد بن قلاوون (المرة الاولى) ٦٩٣ ــ ٦٩٤ هــ ٠

العادل زين الدين كتبغا ٦٩٤ ــ ٦٩٦ هــ ٠

المنصور حسام الدين لاجين ٦٩٦ ــ ٦٩٨ هــ ٠

الناصر محمد بن قلاوون (١) (ثانية) ٦٩٨ ــ ٧٠٨ هــ ٠

الخلفاء العباسيون فى مصر :

اقام الظاهر بيبرس الخلافة العباسية فى مصر بعد زوالها فى بغداد ، الا انها كانت خلافة شكلية ، والخلفاء العباسيون فى هذه الفترة هم ،

ابو القاسم أحمد المستنصر بن الظاهر ٦٥٩ ــ ٦٦٠ هــ ٠

ابو العباس أحمد الحاكم بأمر الله ٦٦٠ ــ ٧٠٦ هــ ٠

حكام الدول الاسلامية فى آسيا :

حكم التتار العراق وخراسان ٠

---

(١) خلع ثم عاد مرة ثالثة فحكم من ٧٠٩ ــ ٧٤١ هـ ٠

وحكمت الدولة الارتقية فى ماردين ٠

والسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وكان بينهم وبين سلاطين المماليك خلاف حتى أن السلطان قلاوون استولى على قونية سنة ٦٧٥ هـ فى عهد سلطانهم غياث الدين كيخسرو الثالث [٦٦٣ — ٦٨١ هـ] .

وفى الهند كان سلاطين دلهى من الاتراك :

محمود شاه الأول ٦٤٤ — ٦٦٤ هـ .

ثم غياث الدين أولو غخان ٦٦٤ ـ ٦٨٦ هـ ٠

ثم فيروز شاه الثانى ٦٨٩ ـ ٦٩٤ هـ وتلاه ابراهيم شاه الاول ٦٩٤ وقتلهما محمد شاه الاول وتولى الحكم من ٦٩٥ ـ ٧١٥ هـ ٠

أما فى شبه الجزيرة العربية :

فقد كان الحاكم فى مكة المكرمة الشريف أبو نمى محمد الاول ٦٥٢ ـ ٧٠١ هـ ٠

وفى المدينة المنورة تولى الحكم آل مهنا الحسينيون .

وكان حكام اليمن من بنى عبد الرسول ٠

أما فى أفريقيا : فكان المغرب الاقصى تحت حكم بنى مرين والقائم منهم بالحكم ،

أبو بكر بن عبد الحق المرينى ٦٤٢ ـ ٦٥٦ هـ ٠

أبو حفص عمر بن أبى بكر ٦٥٦ ـ ٦٦٧ هـ ٠

يعقوب بن عبد الحق ٦٦٧ — ٦٨٥ هـ .

يوسف بن يعقوب ٦٨٥ ـ ٧٠٦ هـ ٠

وحكم الموحدون فى المغرب الاوسط والقائم بالحكم منهم :

أبو حفص عمر المرتضى ٦٤٦ ـ ٦٦٥ هـ ٠

ثم تلاه ادريس الواثق حتى استولى بنو مرين على ملكه سنة ٦٦٨ هـ ٠

وكان بنو زيان يحكمون تلمسان والقائم منهم :

يغمر اسن بن زيان (٦٣٣ ـ ٦٨١ هـ) ثم ابنه عثمان الاول ٦٨١ ـ ٧٠٣ هـ ٠

وفى تونس بنو حفص والقائم بالحكم منهم :

محمد الاول المنتصر بن يحيى ٦٤٧ـ ٦٧٥ هـ ٠

وهو الذى لقب نفسه بلقب الخلافة بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ بتأييد من شريف مكة أبى نمى محمد الاول ٠

وتلاه ابنه أبو زكريا يحيى الثانى ٦٧٥ ـ ٦٧٨ هـ ٠

ثم ابراهيم الاول بن يحيى ٦٧٨ ـ ٦٨١ هـ ٠

ثم أبو فارس عبد العزيز بن ابراهيم ٦٨١ ـ ٦٨٢ هـ ٠

فأبو جعفر بن يحيى ٦٨٣ ـ ٦٩٤ هـ ثم محمد بن الواثق ٦٩٤ ـ ٧٠٩ هـ ٠

أما الاندلس :

فحكم بنو الاحمر غرناطة وما حولها ٠ وفقد العرب معظم الاندلس ، جزاء تقصيرهم وخلافاتهم ٠

الباب السادس

تحقيق

تاريخ مولـــده ووفاته



من المتفق عليه بين جميع المؤلفين الذين كتبوا عن القطب الدسوقى أن عمره رضى الله تعالى عنه كان ٤٣ عاما · ولم يشذ عن هذا الاجماع سوى الكاتب التركى خواجه زاده احمد حلمى فقال انه عاش اربعين عاما ، ولا يؤخذ بقوله لان العرب اضبط فى شئونهم من غيرهم اذا اعوز الدليل ·

وقد استغنى المؤلفون بذكر عمره عن تحديد مولده ووفاته معا واكتفى معظمهم بتسجيل تاريخ وفاته الى جانب عمره المبارك · وعلى كل فان التصريح بعمره رضى الله تعالى عنه الى جانب احد التاريخين ـ المولد او الوفاة ـ يعتبر تحديدا للتاريخ الاخر قطعا ، كما أن هناك اجماعا على أن مولده كان اول ليلة من شهر رمضان المكرم ·

وتنقسم المصادر من حيث ضبط تاريخ المولد والوفاة الى ثلاثة اقسام :

الاول : متفق على ان مولده سنة ٦٣٣ هـ ووفاته سنة ٦٧٦ هـ ·

الثانى : متفق على ان مولده سنة ٦٥٣ هـ ووفاته سنة ٦٩٦ هـ ·

الثالث : من خالف هذين القسمين وذكر تاريخا غيرهما .

ونبين فيما يلى مصادر كل قسم منها :

مصادر القسم الاول

نذكرها بحسب الترتيب الزمنى :

١ ـ الامام الشعرانى (ت ٩٧٢ هـ) قرر فى الطبقات الوسطى انه (مات رضى الله تعالى عنه سنة ست وسبعين وستمائة [٦٧٦ هـ] ودفن بدسوق على ساحل بحر النيل ومقامه بها ظاهر بزار يقصده الناس من سائر الافاق وكراماته كثيرة مشهورة) (١) ·

٢ ـ الامام الوترى : ضياء الدين احمد بن محمد الوترى الموصلى البغدادى المصرى وفاة الشافعى الرفاعى (ت ٩٨٠ هـ تقريبا) قال : مات سنة ٦٧٦ هـ وكراماته اشهر من ان تذكر (٢) ·

---

(١) لواقح الانوار القدسية مخطوط = ١/١١٢

(٢) روضة الناظرين · ط القاهرة ص ٥٠ ·

٣ ـ الامام عبد الرءوف المناوى (١) ت ١٠٣١ هـ ٠

٤ ـ المحقق السيد عبد القادر بن محمد الطبرى الحسينى المكى (٢) ٩٧٦ ـ ١٠٣٣ هـ ٠

٥ ـ المؤرخ الشهير ابن العماد الحنبلى (٣) ت ١٠٨٩ هـ ٠

٦ ـ الحافظ السيد محمد مرتضى الزبيدى الحسينى ت ١٢٠٥ هـ [٤] .

٧ ـ العارف الشهير السيد احمد الصاوى الخلوتى ت ١٢٤٠ هـ (٥) ٠

٨ ـ العارف العالم العامل الشيخ حسن العدوى الحمزاوى ١٢٢١ ـ ١٣٠٣ هـ (٦) .

٩ ـ العلامة على باشا مبارك [١٢٣٩ ـ ١٣١١ هـ] [٧] .

١٠ ـ السيد عبده حسن راشد المشهدى (٨) ٠

١١ ـ العلامة الكبير السيد يوسف بن اسماعيل النبهانى ت ١٣٥٠ (٩) ٠
وممن تابعهم على ذلك :

١٢ ـ المؤرخ الصوفى الحسن بن محمد الكوهن الشاذلى الفتحى (١٠) ٠
وممن تابعهم على ذلك :

المؤلفان الكبيران خير الدين الزركلى (١١) ٠ وعمر رضا كحالة (١٢) ٠ ودائرة المعارف الاسلامية (١٣) ٠

---

(١) الكواكب الدرية ـ مخطوط سنة ١٠١٨ هـ = ق ٢٣٢/أ .
(٢) كشف النقاب عن أنساب الاربعة الاقطاب . ط . القاهرة ص ١٤ .
(٣) شذرات الذهب ـ ج ٥ ص ٣٥٠ . ط القاهرة .
(٤) عقد الجوهر الثمين فى الذكر وطرق الالباس والتلقين خط سنة ١١٨١ هـ ص ٣٢ .
(٥) حاشية الامام الصاوى على شرح الخريدة فى التوحيد للقطب الدردير ط القاهرة ص ٧٩
(٦) مشارق الانوار ـ ط القاهرة ـ ص ١٣٤ .
(٧) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٨ .
(٨) الانوار الاحمدية فى المناقب العلية (هامش النفحات الاحمـــدية) ط ـ سنة ١٣٢١ ص ٢٥١ .
(٩) جامع كرامات الاولياء ط القاهرة ١٣٢٩ ـ ج ١ ص ٢٤٠ .
(١٠) طبقات الشاذلية ط القاهرة ١٣٤٧ ـ ص ٨١ .
(١١) قاموس الاعلام ـ الطبعة الثانية ج ١ ص ٥٤ .
(١٢) معجم المؤلفين ط دمشق ١٩٥٧ ـ ج ١ ص ٧٩ .
(١٣) مادة الدســـوقى .

مصادر القسم

وهى التى صرحت بأن مولده سنة ٦٥٣ هـ ووفاته سنة ٦٩٦ ونذكرها بحسب ترتيبها الزمنى :

١ ـ كتاب الجوهرة المنسوب الى القطب الدسوقى تضمن ترجمة له لا ندرى من وضعها والحقها بالكتاب وفيه ان الوفاة كانت سنة ٦٩٦ هـ وعمره ٤٣ سنة (١) ٠

٢ ـ العالم الصوفى البرهامى السيد جلال الدين الكركى ـ وهو اولى الناس بالكتابة عن القطب الدسوقى فى عصره ، لانه تولى مشيخة المسجد البرهامى مدة طويلة وكان خليفة السادة البرهامية ، وله اكثر من عشرة مؤلفات ٠

وقد أسهب فى تاريخ مولده سنة ٦٥٣ هـ فى بداية مؤلفه عن القطب الدسوقى) لسان التعريف) (٢) وقال بصدد وفاته فى اواخر نفس مؤلفه (٣) :

(ولما شعر بدنو اجله ارسل نقيبه الى اخيه السيد شرف الدين ابى العمران موسى ، وكان مدة حياة الاستاذ يقطن مصر بجامع الفيلة ، فأمره ان يبلغه السلام ، ويسأله ان يطهر باطنه قبل ظاهره ٠

[فاتفق أن النقيب وصل مصر ودخل المسجد على الشيخ شرف الدين وهو يقرأ على الطلاب كتاب الطهارة ٠ فأخبره النقيب برسالة اخيه القطب الدسوقى فلما سمعها ، طوى الكتاب وسافر من فوره الى دسوق فوجد الاستاذ قد قبض وهو ساجد سنة ست وتسعين وستمائة ودفن بدسوق محل مولده] أ هـ بنصه الحرفى .

٣ ـ العارف الشيخ حسن شمه الفوى [ت ١١٧٧ هـ] [٤] .

٤ ـ المؤرخ الفقيه محمد امين بن حبيب بن ابى بكر المذيلة لى المدنى (ت ١٢٤٠) (٥) :

---

(١) الجوهرة ـ ط ـ القاهرة ـ ص ١٠٨ .
(٢) ، (٣) لسان التعريف ـ مخطوط ـ ١١/ب ، ٦٤/ب على التوالى .
(٤) مسرة العينين بشرح حزب أبى العينين ط القاهرة ـ تاريخ مولده ص ٥ ووفاته ص ١١ .
(٥) طبقات الفقهاء والعباد والزهاد ـ مخطوط ـ ق ٧٨/ب .

قال (وعاش من العمر ٤٣ سنة ولم يغفل قط عن المجاهدة للنفس والهوى والشيطان حتى توفى سنة ٦٩٦ هـ) ٠

٥ ـ العلامة حسن بن حسين المصرى الحنفى القادرى : قال (ولد ليلة الثلاثين من شعبان سنة ٦٥٣ هـ وعاش ثلاثا واربعين سنة وتوفى سنة ٦٩٦ ست وتسعين وستمائة) (١) ٠

٦ ـ كمال الدين محمد الحريرى الحلبى (ت ١٩٢٧ هـ) (٢)٠

ناقش الرأيين ورجح القسم الثانى

القســم الثالــث

ويشمل مصادر انفردت بذكر تاريخ يخالف القسمين السابقين :

وهذه لم نأخذ بها لانفراد كل مصدر بمخالفة غيره ٠ وها هى :

١ ـ الامام المقريزى : ت ٨٤٥ هـ :

ذكر وفاة القطب الدسوقى فى كتابه السلوك فى وفيات سنة ٦٨٦ هـ ، ثم قال : (ومولده سنة ٦٤٤ هـ اربع واربعين وستمائة تخمينا وقبره احدى المزارات التى تحمل اليها النذور ويتبرك بها (٣) ٠

٢ ـ الامام البقاعى : على بن غانم بن احمد الخطيب البقاعى (٤) الشافعى ، قرر انه عاش ثلاثا واربعين سنة وتوفى سنة ٦٧٩ هـ فيكون مولده سنة ٦٣٦ هـ ٠

---

(١) منة الوهاب فى معرفة تواريخ ولادة الاربعة الائمة والاربعة الاقطاب مخطوط ١٢٨٨ هـ ـ ق ١٠/ب ٠

(٢) بيان وسائل الحقائق فى بيان سلاسل الطرائق ـ ميكروفيلم ـ تصوير معهد احياء المخطوطات العربية ـ الجزء الاول : مادة : البرهامية ٠

(٣) الامام تقى الدين أحمد بن على المقريزى ٠ وقد قام د٠ محمد مصطفى زيادة بالاشراف على نشر كتابه « السلوك » والتعليق عليه : راجع الجزء الاول ٠ القسم الثالث ط القاهرة سنة ١٩٣٩ ٠ ص ٧٣٩ ٠

(٤) طبقات الابرار ـ مخطوط ق ١١١/ب ٠

٣ ـ خواجه زاده احمد حلمى (١) ٠

وقد انفرد بتحديد عمره بأربعين عاما ، اذ قرر انه ولد سنة ٦٥٣ هـ وتوفى سنة ٦٩٣ هـ ٠

رأينا فى هذا الموضـوع

نأخذ برواية القسم الثانى التى تقرر انه عاش من ٦٥٣ ـ ٦٩٦ هـ ٠

ومما يؤيدها :

ما رواه الجلال الكركى وغيره من الوقائع بين القطب الدسوقى والسلطان الملك الاشرف خليل وتبشيره بالاستيلاء على حصن عكا وتحريره من يد الصليبيين وقد تم هذا سنة ٦٩٠ هـ ، وما تبع ذلك من وقف الجزيرة المواجهة لدسوق على الفقراء وقد ذكرنا ذلك فى موضعه (٢) ٠

ومما يؤيد ذلك ايضا :

ان ابا العمران موسى شقيق القطب الدسوقى ، قد تولى تربية المريدين بعد وفاة اخيه ٠

وكانت وفاة ابى العمران عام ٧٣٩ هـ وفى رواية ٧٢٩ هـ وكان عمره حوالى السبعين عاما ٠

ومعنى ذلك ان مولده يقع ما بين عام ٦٥٩ هـ وعام ٦٦٩ هـ ، ولا يصح ان يقوم بشأن الطريق بعد وفاة أخيه لانسنه بناء على هذا التقدير لاتصلح لذلك اذ ان عمره يكون ما بين ٧ : ١٧ عاما (٣) ٠ هذا اذا اخذنا بالرواية التى تقول بأن وفاته كانت سنة ٦٧٦ هـ ، وبذلك تبطل هذه الرواية وتثبت صحة الرواية التى تنص على ان الوفاة كانت عام ٦٩٦ هـ ٠

ويشبه هذا ان القطب سليمان السيونى اخذ عن القطب الدسوقى وقد عاش

---

(١) أحمد حلمى بن حافظ محمد خلوصى المعروف باشرف زاده الشروانى اليحياوى : حديقة الاولياء ط وزارة المعارف التركية ١٣١٨ هـ ٠

(٢) راجع ص ٨٦ : ٨٨ ٠

(٣) وكيف يصح أن يكون عمره عند وفاة اخيه ما بين ٧ : ١٧ عاما ، مع قيامه بتدريس العلوم الشرعية فى القاهرة ؟

الاول ما بين ٦٦٠ ـ ٧٣٥ ، وتوفى بمدينة بسيون بمسجده المشهور ومعنى ذلك ان عمره وقت وفاة القطب الدسوقى ٣٦ سنة ، فيكون الاخذ واضح ظاهر دون تكلف فى مطابقة التواريخ للوقائع .

والسر فى هذا اللبس : ان والد القطب الدسوقى وهو العارف الكبير السيد أبو المجد عبد العزيز بن على قريش كان مشهورا فى عصره وقد اجمعوا على أنه توفى حين بلغ القطب الدسوقى ٢٣ سنة من عمره وحددوا هذا التاريخ لخروجه من الخلوة .

فالذين توهموا انه توفى سنة ٦٧٦ هـ التبس الامر عليهم اذ جعلوا هذا التاريخ هو تاريخ وفاة القطب الدسوقى مع انه تاريخ وفاة والده .

ولا يؤخذ بما ذكره السيد عبد القادر الطبرى الحسينى (١) اذ يقول (وقد كان السيد ابراهيم صغيرا يوم وفاة ابيه فلما كبر اخذ الطريقة من العارف بالله نجم الدين الاصفهانى] .

اذ ان هذا الاخذ لم يثبت كما سبق ذكره فى شيوخ القطب الدسوقى .

الاحتفال بالعارف بعد وفاتـــه

اشد من الاحتفال به حال حياتـــه

وهذه قاعدة تكاد تكون عامة فى حياة الناس جميعا يستوى فى ذلك الرجل العادى او العالم او العبقرى .

يقول ابو العباس المرسى : يكون الرجل بين اظهرهم فلا يلقون اليه بالا ، حتى اذا مات : قالوا كان فلان .. وربما دخل فى طريق الرجل بعد وفاته اكثر مما دخل فيها فى حال حياته .

وللقطب الدسوقى ثلاثة موالد تقام كل عام تهرع اليه فيها الناس من كل جهة . يقول على باشا مبارك فى هذا الصدد [٢] **:**

---

(١) كشف النقاب ط القاهرة ١٣٠٩ ص ١٤ .
(٢) الخطط التوفيقية حـ ١١ ـ ص ٨ .

(احدها فى شهر برمودة وهو اقلها زو را ، وثانيها فى شهر طوبة وهو المسمى بالرجبى وهو أكثر منه واردا يجتمع فيه جملة من الزوار والتجار للبيع والشراء ويمكث ثمانية أيام وثالثها المولد الكبير فىشهر مسرى يأتىاليه دانى البلدان وقاصيها للزيارة والتجارة وتضرب فيهالخيام ويحضره مشاهير البلاد المجاورة بأنواع الاطعمة، ومشايخ الطرقوالسجادات بجميع الاشاير، وتدوم حركة البلاد ليلا ونهارا بالاذكار وتلاوة القرآن والبيع والشراء لجميع انواع البضائع ·· ويستمر ايضا ثمانية يام) ·

والزيارة الرجبية اصبحت تحدد بعد الرجبية الاحمدية بسبعة ايام ، وكذا المولد الكبير يقام بعد المولد الاحمدى بسبعة أيام ·



البَابُ السَّابع

خلفـــاؤه وفـــروع طريقته



تولى أمرالطريقة بعد وفاة مؤسسها شقيقه العارف الكبير شرف الدينأبو العمران موسى · وهو أصغر سنا من القطب الدسوقى ، وقد تلقى الطريقة عن والده ثم عن أخيه ولما كمل أذن له أخوه بالسفر الى مصر فأقام بها ينشر العلم ويربى السالكين فى حياة أخيه · قال العلامة ابن الملقن الشافعى اجتمعنا عليه قبل أن يحصل التمكين ولبسنا منه خرقة أخيه تبركا ·

وبعد وفاة أخيه تولى أمر الطريق وعاش متنقلا ما بين دسوق والثغر بالاسكندرية مجتهدا فى نشر العلم وتربية المريدين حتى أدركته الوفاة بالاسكندرية ٧٣٩ هـ أو سنة ٧٢٩ هـ طبقا لرواية الحافظ السيد مرتضى الزبيدى وكلام ابن الملقن (٧٢٣ـ٨٠٤ هـ) ـ صاحب الطبقات المشهورة فى تاريخ الصوفية ـ يؤكد صحة التاريخ الاول ·

قال الجلال الكركى (١) :

وكانت وفاة الشيخ موسى بالثغر الاسكندرى سنة سبعمائة وتسع وثلاثين (٧٣٩ هـ) بعد عشرة السبعين ، وحمل الىدسوق ودفن بقرب شقيقه سيدىأبراهيم منالجبهة القبلية تغمدهما الله برحمته ومتعهما بفسيحجناته العدنانية ولهما رحمة الله عليهما من الخوارق واللطائف مالا يكاد يحصر) ·

ومن كبار خلفائه المعاصرين للسيد موسى : السيد العارف الشهير سليمان البسيونى بنعثمان بنعلوان بنيعقوب الحسنى وجده يعقوبأول من قدممن بلاد المغرب الاقصى الى مصر سنة ٦٠٠ هـ وتوجه الى شبرا بسيون · والسيد سليمان عاصر السيد موسى ويكاد عمره يضاهى عمر السيد موسى والعصر الذيعاشه. فقد ولدسنة ٦٥٨هـ وتوفى حوالىسنة ٧٣٥هـ ،فيكونعمره حوالى ٧٧ سنة ودفن ببسيون موضع خلوته التى كان يتعبد فيها وعليها مسجد عامر بالشعائر · وله مولد يقام كل عام ·

وبعد وفاة السيد موسى تولى أمر الطريق :

١ ـ ابنه شمس الدين محمد بن أبى العمران موسى ويسمى أيضا بدر الدين محمد ·

---

(١) نور الحدق ـ مخطوط ق ١/٦٧ ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ـ ثم استخلف من بعده ولده لصلبه الورع الزاهد الشيخ جمال الدين عبد الله المتوفى عام نيف وثمانمائة · وله قصة مشهورة مع السلطان الملك الظاهر سيف الدين برقوق (٧٨٤ـ ٨٠١هـ) : قال عنه الكركى (وهذه القصة أشهر من أن تذكر) (١) ·

٣ ـ ثم استخلف من بعده ابن ابن عمه وهو العارف المربى أبو عبد الله شمس الدين محمد بن العارف ناصر الدين محمد بن أيوب بن أبى المجد وكانت وفاته سنة ٨٣٤هـ ·

٤ ـ السيد نور الدين على بن محمد بن على بن ذى الاسمين أيوب عثمان بن ذى الاسمين عبد العزيز عبد المجيد الشهير بأبى المجد بن محمد ابن عبد العزيز ابن قريش·وربما كنى بأكبر أولاده النجم فيقال ابونجم الدين الأبودرى نسبة لابى درة من اعمال البحيرة ، الدسوقى المالكى، ويعرف بسنان لسن كانت بارزة ، (وأيوب فى نسبه هو أخو الشيخ ابراهيم الدسوقى صاحب الاحوال) ولد سنة ٧٧٥ هـ بأبى درة وانتقل منها وهو صغير بعد وفاة والده وحفظ القرآن ثم ذكر السخاوى (٢) شيوخ المترجم ومنهم : الصلاح الزفتاوى وابن الشيخة والعراقى والهيثمى ، والابناسى والدجوى والمراغى والنور الهورينى والجمال الرشيدى والحلاوى الخ · ثم قال : (وكان يخبر انه أخذ الخرقة الدسوقية عن ابن عمه الجمال عبد الله بن محمد بن موسى المتوفى بدسوق فى سنة نيف وثمانمائة عن أبيه عن شقيقه الشيخ ابراهيم وقصد دسوق من سنة ٨١٢ هـ الى أن مات شيخ المقام الابراهيمى بها وهو ابن عمه الشمس محمد ابن ناصر الدين محمد بن أيوب سنة ٨٣٤ هـ ، فاستقر عوضه فى المشيخة ، فباشرها وصرف عنها مرارا وحج وزار بيت المقدس ودخل الاسكندرية مرارا، وحدث وسمع منه الفضلاء بالقاهرة ثم بدسوق · وكان خيرا ضابطا صدوقا نبتا ساكنا وقورا صبورا على الاستماع متواضعا ، سليم الفطرة توفى ليلة الجمعة حادى عشر من رمضان سنة ٨٥٩ هـ بدسوق على مشيختها ودفن عند الضريح البرهانى) ·

وقال الحافظ السخاوى فى كتاب التبر المسبوك فى وفيات سنة ٨٥٥ هـ

(١) لسان التعريف ـ ق ٤٢/أ ·
(٢) الحافظ المؤرخ صاحب الضوء اللامع حـ ٥ ص ٣١٩ ·

وفيها توفى الشيخ (عبد الغفار بن نفيس شيخ معمر من خلفاء المقام الابراهيمى بدسوق،ماتيوم الاربعاء رابع عشرمن المحرم ودفن بتربةابن جلبان، من القرافة الصغرى (١) والظاهر أنه تولى المشيخة خلال الفترة التى صرف عنها سابقة .

ويطلق على طريقته : البرهانية نسبة الى لقبه : برهان الدين ابراهيم ، والابراهيمية أوالبرهانية نسبة الى اسمه المبارك ، والدسوقية نسبة الى الشهرة المكانية .

وقد تشعبت الطريقة فيما بعد الى فروع ذكر منها الكمال الحريرى أربعة وهى : الشهاوية والشرنوبية والعاشورية والتازية .

وذكر خواجه زاده أحمد حلمى فى حديقة الاولياء نفس الفروع ما عدا الشهاوية التى استبدلها بالسيوطية ، ونحن نشك أن هذا من التحريف فى النقل اذ أن الفرع الشهاوى هو أهم فروعها :

الشهاوية البرهامية :

تنسب الى القطب الشهير السيد محمد الشهاوى الحسينى الشافعى ولد سنة ٨٧٥ بقرية نمرة البصل من أعمال المحلة الكبرى ، ونشأ على العلم والتقوى والمجاهدة ، وتخرج عليه كثيرون وشاع ذكره وقصده المريدون وراغبو العلم والناس للتبرك به ولم يزل قائما بحقوق الطريق حتى توفى سنة ٩٤٩ هـ ودفن بمقامه ومسجده المعروف ، بقرية نمرة البصل .

وهومن ذرية القطب أبى العمران موسى شقيق القطب الدسوقى، وقدتلقى الطريق عن العارف محمد الشربينى المتوفى سنة ٩٢٧ هـ عن نجم الدين الكبير عن محمد الديروطى عن عبد الله أبى المكارم عن العارف السيد جمال الدين عبد الله عن والده السيد شمس الدين محمد عن والده أبى العمران موسى عن أخيه القطب الدسوقى .

وقد وقعت له قصة مع القطب الدسوقى ساقها فى آخر كتاب الجوهرة

---

(١) الحافظ محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوى (٨٣١ — ٩٠٢ هـ) التبر المسبوك فى ذيل السلوك — ط بولاق — ص ٣٦٠ .

المخطوط ونذكر طنا مادونه بلفظه قال:كانت عندى النسخة المباركة المسماة بالجوهرة لسيدى الشريف سيدى ابراهيم رضى الله عنه ، فأخذتها يوما من الايام وتوجهت الى القاهرة المحروسة ، فأردت أن أحفظها ، فطالعتها ، فرأيت قد فقد منها ورقة ، فاغتممت لأجلها ، وحصل عندى ماحصل،فبينما انا كذلك فى الوقت والساعة اذا برجل قد أقبل على وبيده ورقة · فقال لى : اشتر منى هذه الورقة ، فأخذتها منه فرأيتها الورقة المفقودة بعينها فوضعتها فى محلها فاذا هى كما كانت ، والتفت الى الرجل فلم أجده ، ولا شك أن ذلك هو السيد ابراهيم ، وتعد هذه من كراماته ، ومناقبه كثيرة لا تكاد تحصى رضى الله عنه) · (١) ·

الطريقة الشرنوبية :

وهذه فى الواقع فرع من الشهاوية اذ أن مؤسسها من أكبر الذين تخرجوا على يد القطب الشهاوى ·

وصاحبها هو العارف المشهور صادق الانفاس أحمد عرب الشرنوبى بن عثمان بن أحمد سليل العارف على البرهانى صاحب المزار بشرنوب ، ويتصل نسبه بالسيد محمد قمر الدولة الحسينى بنفيا ، وأمه السيدة عايدة من ذرية العارف أبى بكر الراعى بمحلة مرحوم ·

ولد رضى الله تعالى عنه سنة ٩٣١ هـ فى شرنوب بالبحيرة وأخذ الطريق عن القطب الشهاوى ورحل الى القاهرة وظهرت عليه دلائل الفتح قال السيد ابراهيم اللقانى (شاهدت من سيدى أحمد عرب الشرنوبى الكرامات الخارقة عند اجتماعى به حال بدايتى فى مصر المحروسة بزاويته التى بالدرب الاحمر ورأيته متمسكا بالكتاب والسنة ورأيت جميع أتباعه مشتغلين فى الزاوية بالقرآن وطلب العلم وسمعت منه علوما لم اسمعها من غيره(٢) .

وأخذ عن كثير من العارفين : ذكر منهم رضى الله تعالى عنه : السيد على المتقى الهندى،وأمام أبى الحسن البكرى،والسيد سليمان الخضيرى،والسيد

---

(١) كتاب الجوهرة ـــ مخطوط بمكتبة الازهر : ١٧٦/أ ·

(٢) شرح تائية الساوك الى ملك الملوك للشيخ عبد المجيد الشرنوبى ط القاهرة ص ١٥٩ · وترجمته بتمامها من ١٥٦/١٦٤ ·

ابراهيم الذاكر والسيد زين بن بنت المرصفى ، وقد سافر الى القسطنطينية وأخذ عن عارف زمانه فى بلاد الترك الشيخ نور الدين زاده ٠

واشتهر رضى الله تعالى عنه بانه وزير القطب الدسوقى لانه كان على قدمه ومشربه : فهو فى هذه المرتبة من حيث الائتلاف الروحى وان لم يجتمع معه فى عالم الاشباح ٠

وقد تخرج عليه جماعة من كبار العارفين منهم :

السيد أبو النصر الدسوقى ، والعالم الشهير ابراهيم اللقانى صاحب الجوهرة فى علم التوحيد ، وقد الفها باشارة من شيخه ٠ والشيخ عبد ربه الابشيطى ومزاره بالمحلة الكبرى، والشيخ محمد البلقينى ببلقين، والعارف سليمان البرهامى بسنديون وكثير غيرهم ٠

وكان يقول : الشيخ يحفظ المريد الصادق فى قربه وبعده ٠

ومن تائيته فى وجوب طلب الاستاذ المربى :

ولابد من فكر وذكر ووجهـــة	على يد شيخ عارف بالطريقة
يضىء كضوء الشمس تبدو لناظر	له همة تبرى عليل الجبـــلة
حكيم يداوى الطالبين بطبــــه	خبير بداء القلوب فى كل لحظة
يرى بعيون القلب ما كان خافيا	ويدرك بالأبصـــــار حجب الاكنة

توفى رضى الله تعالى عنه سنة ٩٩٤ هـ فى أرجلى بأسيا الصغرى .

وهذا وتتصل معظم أسانيد الطرق الصوفية المشهورة بعد القرن السابع الهجرى بالقطب الدسوقى .

مثـــل الطريقة السنوسية ومؤسسها الامام محمد بن على(١) السنوسى الحسنى الادريسى .

وكثير من فروع الطريقة (٢) الشاذلية .

---

(١) ساق سنده فى الطريقة البرهامية فى كتابه السلسبيل المعين فى الطرائق الاربعين مخطوط بدار الكتب العامة ق ٣٥ ٠

(٢) راجع أسانيد الحافظ الصوفى السيد محمد مرتضي الزبيدى الى القطب الدســـوقى فى كتاب عقد الجوهر الثمين مخطوطات اليمورية ص ٣٣ : ٣٥ ٠

فالطرق الصوفية لافواصل بينها وهى وان تعددتفهدفها جميعا واحد .

الوان الخرق الصوفية

الوان الخرق والاعلام التى اتخذها الصوفية خمسة : —

الابيض والاخضر والاحمر والاصفر والاسود

يقول العلامة حسن بن حسين الحنفى القادرى(١) :

ان سيدى عبد القادر له الخرقة السوداء والعلم الاسود .

وان سيدى احمد الرفاعى له الخرقة السوداء والعلم الاسود .

وان سيدى احمد البدوى له الخرقة الحمراء والعلم الاحمر .

وان سيدى ابراهيم الدسوقى له الخرقة الصفراء والعلم الاصفر .

ثم تتبع من قال ان العلم البرهامى أخضر وان اللون الأخضر للعلم انما هو خاص بالامام الجيلانى وهو أسبق فى اتخاذه من القطب الدسوقى فلا ينسب العلم الاخضر الى البرهامية

ويقول السيد توفيق البكرى الاحمدية زيها الاحمر والبرهامية زيها(٢) الاخضر(٣) والرفاعية زيها الاسمر والابيض .

---

(١) منة الوهاب مخطوط ق ١٩ .
(٢) ، (٣) بيت الصديق ص ٣٨٣ ، ٣٨٧ على التوالى .

خاتمـــة

هذه هى حقيقة الطريقة البرهامية وهى صورة متألقة للطرق الصوفية الحقة ، فمن ادعاها طالبناه بشروط صاحبها ، فاذا أخل بشرط منها لفظته الطريق وافتضح فى دعواه ٠

يقول القطب الجيلانى (١) لا تدع حالة القوم ياصاحب الهوى، انت تعبد الهوى ، وهم عبيد المولى ٠ أنت رغبتك فى الدنيا ، ورغبة القوم فى العقبى ٠ أنت ترى الدنيا وهم يرون رب الارض والسما ، وانت أنسك بالخلق وأنس القوم بالحق ، أنت قلبك متعلق بمن فى الارض ، وقلوب القوم برب العرش ٠٠ فاز القوم وحصلت لهم النجاة ، وبقيت أنت مرتهنا بما تشتهى من الدنيا وتهواه)٠

وقد ابتلى التصوف بأرباب الزور والبهتان والمضللين الذين يجرون وراء المغانم عن طريق التلبيس على الخلق واتباع الاوهام والخيالات : حتى عدوا المنكرات من القربات التى يجب الحرص على أدائها ، والضلالات من الاصول التى يجب اعتقادها فكم من مدع يتزيا بزى أهل الله تعالى ، (ويتكلم بما يوهم الناس أنه منهم والحال أنه بطال يملا بطنه من الطعام سواء كان حلالا أو حراما ، وليله من المنام ، ويثب على الدنيا وثوب الاسد على الفريسة ، وربما جعل نفسه شيخا وله اتباع يصطادون له بشرك مشيخته قاذورات الحطام الفانى ويزعمون أنهم على شيء : أولئك هم الكاذبون ٠ وقد أشار لهم العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه بقوله :

رضـــوا بالأمانى وابتـــلوا بحظوظهم
وخاضــوا بحار الحب دعوى فمــا ابتــلوا
فهــم فى السرى لم يــبرحوا عن مـــكانهم
وما ظعنــوا فى الســـير عنــه وقــد كلوا

بل تأخروا ورجعوا القهقرى ، لانهم تبعوا هوى أنفسهم والشيطان يقودهم الى كل ما يحبه منهم كما قال :

---

(١) فتوح الغيب للامام الجيلانى بـ هامش قلائد الجواهر ص ٢٨/٢٧ ط. القاهرة ١٩٥٦ ٠

وعن مذهبى لما استحبوا العمى على الهدى حسدا من عند أنفسهم ضلوا يأكلون أموال الناس بالباطل ويدعون المراتب العلية ، وهم فى الدركات السفلية، وقد كثروا فىهذا الزمانحتى ملأوا طباق الارض فى كل قطر ومكان نعوذ بالله منهم ٠

قال أستاذنا البكرى فى الفية التصوف :

وقــد نمــا فى ذا الزمان شرهم حتى ســما فى الناس جدا ضرهم
ولم يــكن لهم هنـــا من يردع من أجل ذا الدين الحنيفى ودعــوا

ولما نظر أهل الله الى كثرتهم وكثرة فسادهم واختلال عقائدهم : غلقوا أبواب زوايا الارشاد ، وفوضوا الامر الى رب العباد ، واحتفوا فى الناس فلم يعرفهم الا من خصه الله بالانوار الالهية والسعادة السرمدية) (١)

يقول استاذ العارفين السيد أحمد أبوالوفاء الشرقاوى فىبيان مايجب على من انتمى الى طريق القوم :

(هذا ومن أهم الاصول وأعلاها وأرفعها عند القوم وأغلاها المحافظة على التخلق بالاخلاق العالية المرضية ، والتأدب بالاداب السامية السنية ٠ بل ذلك روح حياة هذه الطريقة ٠ وباب رياضها الزاهرة الانيقة ٠ وهو الامر الذى يتوقف عليه سلوك السالكين ; والشرط الذى لابد منه للسائرين ، لانه اذا كان القرب من أكابر أهل الدنيا والوصول اليهم لا ينال الا بتهذيب الاخلاق والتحلى بأجمل الاداب والتخلى عن كل أمر لا يليق بشرف مقامهم فالسائرون فى طريق الحق المقبلون على الله بقلوبهم الطالبون الدخول بها لحضرة شهوده أولى بأن يتحلوا بأجمل حلية ٠ ويتزينوا بأحسن خلعة ٠ لملاقاة مولاهم سبحانه وتعالى وأجدر بأن ينزهوا أرواحهم عن كل مايدنسها لتكون قابلة لافاضة أنوار الحق وأسراره عليها ، والا فلا يليق أن توضع نفائس الجواهر فى أمــاكن القاذورات . ولا يصــح أن يجالس الملوك من يزاحم الكلاب على الاوساخ والنجاسات) ٠

---

(١) شرح الخريدة للامام الدردير ــ هامش حاشية الصاوى على هــذا الشرح ص ٨٢/٨١ ٠

(فياأيها المريد كيف تقبل على مولاك وأنت متلبس بما يكرهه من الاحوال ! وكيف تدخل حمى حضرته المنزهة وأنت متـدنس بقبيح الاقذار والاوحال ! ويا أيها السائر الى الله كيف تفعل ـ وانت على أعتابه ـ مايغضبه عليك ! وكيف تتجـرأ وأنت ببابه على ما يجر سخطه اليك ! وكيف تسير فى طريق المنتقم الجبار وانت متحمل بأثقال السيئات والاوزار : ولا شك أن ذلك يوجب ابعادك وطردك ويقتضى حرمانك وصدك ويؤدى الى انتقامه منك بخيبتك وخذلانك . وعقابه لك بهجرانك وخسرانك) .

(فيجب على المريد أن يكون على أعلى الصفات · متخلقا بأحسن النعوت والسمات . فانه بمعاهدته على التمسك بهـذه الطريق صارت تعد عليه حركاته · وتحسب عليه خواطره وسكناته · وصار كل أمر يقتضيه طلب الحق سبحانه وتعالى يتحتم عليه · ويلزمه القيام به والنهوض اليه · وكل أمر ينافى ذلك يجب عليه الفرار منه ويتحتم عليه تركه ويتأكد التباعد عنه · والا كان كاذبا على الله ورسوله فى معاهدته على السير فى هذه الطريق ، طالما لها بدعواه الانتماء اليها خائنا لها ولاهلها بتلاعبـه بها بعدما ائتمنـوه على الدخول فيها . وقبلوه فى ضمن مريديها وطالبيها . . فيخشى عليه أن يحرم من ثمرات التقريب والاسعاد · ويقضى عليه بعذاب الطرد والابعاد والله المسئول أن يفتح للطالبين أبواب التوفيق والهداية(١) ·

فطوبى لمن تمسك بالكتاب والسنة واهتدى بهدى سيد الوجهاء وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ·· واتبع سبيل المؤمنين العارفين وتأدب بآدابهم ·

---

(١) مصباح الارواح : الفقرات الثلاث مقتبسة من ص ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ على التوالى .

مصادر البحث

ملحوظة : اذا أضربنا عن ذكر مكان الطبع ، فالطبع مكانه القاهرة واذا كان غير ذلك ذكرنا مكان الطبع ، والمطبوع نشير اليه بعلامة ط ٠

والمخطوط الذى لانذكر أمامه المكتبة الموجود بها فمعنى ذلك أنه فى دار الكتب العامة بالقاهرة ، والمخطوط نشير اليه بعلامة : خ

الابيارى : محمد بن رضوان :

ــ انسان المقلتين بشرح حزب أبى العينين ــ خ ــ سنة ١١٨٤هــ ٠

الانبابى : نور الدين على بن عامر الانبابى المالكى البرهانى ٠

ــ نشر محاسن السلوك على تائية السلوك ــ خ بالمكتبة الازهرية .

ابن اياس ، ٨٥٢ ــ٩٣٠هــ ، المؤرخ محمد بن أحمد بن اياس الحنفى :

ــ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ٠

بابا التنبكتى : ٩٦٣ ــ ١٠٣٢ هـ الامام الحافظ أحمد بن احمد الشهير ببابا التنبكتى :

ــ نيل الابتهاج بتطريز الديباج ط ١٣٥١هــ على هامش الديباج المذهب ٠

البرهانى : ق ١٠هــ : نور الدين على بن الحسن الشاذلى البرهانى ٠

ــ الزهرة المضية فى أسماء طرق السادة الشاذلية ــ خ ــ ألفه سنة ٩٠٧هــ ٠

البغدادى : اسماعيل باشا البغدادى :

ــ هدية العارفين فى أسماء المؤلفين استانبول ١٢٧٠هــ ٠

ــ ايضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون ، استانبول ١٣٦٦هــ

البقاعى ، على بن غانم بن أحمد الخطيب البقاعى الشافعى ،

ــ طبقات الابرار ــ خ ــ ١١٦٤هــ ٠

البكرى : ١٢٨٧ ــ١٣٥١هــ : السيد محمد توفيق البكرى ٠

ــ تراجم بعض رجال الصوفية ــ خ ــ ٠

ــ الطرق الصوفية فى الديار المصرية ــ خ ــ ٠

ـ بيت الصديق ط ١٣٢٣هـ ٠
حجاب : معاصر : العارف الكبير السيد أحمد محمد حجاب :
ـ العظة والاعتبار ، آراء فى حياة السيد البدوى ٠
طبعة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ٠
البكرى الخلوتى : ١٠٩٩ ـ ١١٦٢ هـ الامام مصطفى بن كمال الدين :
ـ بلغه المريد ومشتهى الموفق السعيد فى آداب الطريق ، ضمن مجموعة أوراد السادة الخلوتية ط ١٣٢٦هـ ٠
ـ ألفية التصوف ـ خ ـ المكتبة الازهرية ٠
البنانى الكبير ١٢٨٤هـ : العارف أبو بكر بن محمد بنانى :
ـ مدارج السلوك الى مالك الملوك ط ١٣٣٠هـ ٠
البنانى الابن : فتح الله بن أبى بكر بنانى :ت ١٣٠٢هـ ٠
ـ عقد الدرواللآل فى بيان فضل الفقر والفقراء (على هامش السابق)
البهى ، ت حوالى ١٢٦٠ هـ : **العارف الشهير محمد بن احمد** ٠
ـ شرح حزب القطب الدسوقى ـ خ ـ سنة ١٢٩٥هـ ٠
التادفى الحلبى ت ٩٦٣ ـ العلامة محمد بن يحيى ٠
قلائد الجواهر ط ١٣٧٥ هـ ٠
ابن تغرى بردى : ت ٨٧٤هـ : أبو المحاسن يوسف :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : ج ٩
التلمسانى الامام محمد بن أحمد ٠
ـ كتاب التصوف ـ خ ـ ٠
الجندى ت ٧٣٢هـ : القاضى يوسف بن يعقوب الشهير بالجندى :
ـ السلوك فى طبقات العلماء والملوك ـ خ ـ ٠
الامام الجيلانى ت ٥٦١ هـ ، القطب الكبير عبدالقادر بن موسى الحسنى:
ـ الاوراد والديوان (الفيوضات الربانية) ط ـ ١٣٥٣هـ ٠
ـ فتوح الغيب ط ١٣٧٦ على هامش قلائد الجواهر ٠
حاجى خليفة ت ١٠٦٧هـ : مصطفى كاتب جلبى :
ـ كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ـ ط ٠
الحريرى ت ١٢٩٧هـ : كمال الدين الحريرى الحلبى :
ـ تبيان وسائل الحقائق فى بيان سلاسل الطرائق ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ اجزاء ميكروفيلم تصوير معهد احياء المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ٠

حسن بن حسين المصرى الحنفى القادر ى ق١٣ هـ ٠

ـ منة الوهاب فى معرفة تواريخ ولادة الاربعة الائمة والاربعة الاقطاب ـ خ ـ ١٢٨٩هـ

الحمزاوى ١٢٢١ ـ ١٣٠٣هـ : العلامة حسن العدوى الحمزاوى ،

ـ مشارق الانوار فى فوز أهل الاعتبار ط ١٢٧٥هـ ٠

ابن خلكان ت ٦٨١هـ : المؤرخ شمس الدين أحمد بن ابراهيم :

ـ وفيات الاعيان ، جزءان ،ط ٠

خواجة زاده أحمد حلمى :

ـ حديقة الاولياء ط استانبول ١٣١٨هـ ٠

ابن دقماق ت ٨٠٩هـ ، ابراهيم بن محمد المصرى

ـ الانتصار لواسطة عقد الامصار ط ـ ١٣١١ هـ .

الدوادارى ٧٣٢ هـ : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الصرخدى :

ـ درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ـ تصوير ٠

ـ كنز الدرر وجامع الغرر ـ خ ٠

الامام الدردير المالكى الخلوتى ت ١٢٠١هـ ٠

ـ شرحه على كتابه الخريدة فى التوحيد ـ ط ٠

القطب الدسوقى :

ـ كتاب الجوهرة وهو مطبوع عدة طبعات بدون تاريخ ، وأقدم طبعة له ، طبعة حجر بعنوان (كتاب منير من كلام القطب الكبير من أعطى العلم الشرعى والحقيقى سيدى ابراهيم الدسوقى) ٠

وهناك نسخ خطية منه بدار المكتبة العامة والمكتبة الازهرية وبعضها بعنوان (فتوح الغيب)

الامام الزبيدى الشرجى ٨١٢ ـ ٨٩٣ هـ زين الدين أحمد بن أحمد ابن عبد اللطيف :

طبقات الخواص أهل الصدق والاخلاص ـ ط ـ

الحافظ الزبيدى ت ١٢٠٥ هـ السيد محمد مرتضى الحسينى .

ـ عقد الجوهر الثمين فى الذكر وطرق الالباس والتلقين ـ خ سنة ١١٨١ هـ .

ـ تاج العروس من جواهر القاموس ط بولاق ١٢٨٥ هـ والكويت ١٣٨٥ هـ .

ـ شجرة النسب (ملحقة بكتاب بحر الانساب المحيط) ط ١٣٥٦هـ

الزركلى : خير الدين :

ـ قاموس الاعلام ط ثانية .

زروق ـ ٨٤٦ ـ ٨٩٩ ـ هـ الامام احمد زروق البرنسى ،

ـ القواعد فى التصوف ـ ط ـ .

د . زكى مبارك ١٣٠٨ ـ ١٣٧١هـ : محمد زكى بن عبد السلام بن مبارك :

ـ التصوف الاسلامى ط ١٣٥٧هـ .

الزكى بن هاشم العلوى ق ١٢هـ :

ـ مطالع الزهراء فى ذرية الزهراء ـ تصوير .

السخاوى ٨٣١ ـ ٩٠٢هـ ، الحافظ محمد بن عبد الرحمن بن محمد

ـ التبر المسبوك فى ذيل السلوك ـ ط .

ـ الضوء اللامع ـ ط .

ـ السراج : ت ٣٧٨هـ . أبونصر عبدالله بن على السراج الطوسى :

ـ اللمع ط ١٣٨٠هـ .

السلمى ٣٢٥ ـ ٤١٢هـ : الامام أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين :

ـ طبقات الصوفية : لندن ١٩٦٠م .

السنوسى ١٢٠٢ ـ ١٢٧٦هـ : الامام محمد بن على ،

ـ السلسبيل المعين فى الطرائق الاربعين ـ خ .

السهرودى ٦٣٣ : الامام عمر بن محمد الصديقى :

ـ عوارف المعارف ، طبع ضمن مجموعة .

السيوطى : ت ٩١١هـ : الامام جلال الدين ،

ـ حسن المحاضرة ـ ط ـ ١٣٢٧هـ .

الشبراوى ١١٧١هـ العارف عبد الله بن محمد بن عامر :

ـ الاتحاف بحب الاشراف ـ ط ١٣١٦هـ ٠

الشبلنجى ت أوائل ق ١٤ : السيد مؤمن بن حسن مؤمن :

ـ تنوير الابصار فى مناقب آل بيت النبى المختار ط بولاق ١٢٩٠هـ ٠

الشرقاوى أبو الوفا ١٢٩٦ ـ ١٣٨٠هـ ، أستاذ العارفين أحمد أبو الوفاء الشرقاوى

ـ مصباح الارواح ـ ط ـ ١٣٢١هـ ٠

الشرنوبى ١٣٤٦ ـ١٣٤٩هـ : الشيخ عبد المجيد الشرنوبى ٠

ـ شرح تائية السلوك للقطب الشرنوبى ـ ط ١٣٧٨هـ ٠

الشريشى ٥٨١ ـ ٦٤١هـ : الامام أبو العباس أحمد بن محمد البكرى

ـ الرائية فى التصوف المسماة (أنوار السرائر وسرائر الانوار) وشرحها للامام أحمد بن يوسف الفاسى ط ١٣١٦هـ ٠

الامام الشعرانى ت ٩٧٢هـ :

ـ بهجة النفوس والاحداق فيما تميز به القوم من الآداب والاخلاق خط ٢ ج المكتبة الازهرية سنة ١٣٠٤ هـ ٠

ـ تنبيه المغترين ط ١٣١٥ ٠

ـ الطبقات الكبرى ط

ـ الطبقات الوسطى ـخ ٠

ـ لواقح الانوار القدسية فى بيان العهود المحمدية ط ١٣٨١هـ

الامام الصاوى ت ١٢٤١ هـ ، أحمد بن محمد الخلوتى المالكى :

ـ حاشية على شرح الخريدة للامام الدردير ـ ط ٠

الصفى بن أبى المنصور ظافر الازدى ٥٩٥ ـ ٦٨٢ هـ ٠

ـ الرسالة فى التصوف خ ٨٤٠ هـ

الصياد الرفاعى ٦٧٠هـ : العارف عز الدين أحمد :

ـ المعارف المحمدية ط ١٣٠٥هـ

أبو طالب المكى ت ٣٨٦هـ : الامام محمد بن على بن عطية :

ـ قوت القلوب : ٤ ج ـ ط ـ ١٣٥١ هـ

الطاهر الحامدى ت أوائل ق ١٤ :

ـ الكشف الربانى عن المورد الرحمانى للقطب أبى المعارف أحمد بن شرقاوى .

الطبرى الحسينى المكى ٩٧٦ ـ ١٠٣٣هـ عبد القادر بن محمد

ـ كشف النقاب عن أنساب الاربعة الاقطاب ط .

ظافر المدنى ١٢٤٤ ـ ١٣٢١هـ : العارف محمد ظافر بن محمد بن حسن بن حمزة ،

ـ الأنوار القدسية فى تنزيه طرق القوم العلية ط استانبول ١٢٩٧ هـ .

عبد الحى بن على .

ـ مختصر مسرة العينين ـخ .

ـ الفتح النبوى (وهو شرح على الصلاتين البدوية والدسوقية) ـخ

ابن عجيبه ت ١٢٦٦هـ : العارف أحمد بن محمد :

ـ شرح الحكم العطائية المسمى : ايقاظ الهمم ـ ط .

ابن عطاء الله السكندرى ٧٠٩ هـ

الامام احمد بن محمد بن عبد الكريم ـ

الحكم العطائية .

على باشا مبارك ١٢٣٩ ـ ١٣١١ هـ

ـ الخطط التوفيقية ج ١١ ط بولاق :

ابن العماد الحنبلى ت ١٠٨٩هـ :

ـ شذرات الذهب جـ ٥ ط سنة ١٣٥١ هـ

عمار : على سالم عمار :

ـ الامام أبو الحسن الشاذلى ٢ ج ط سنة ١٣٨٢هـ

ابن علان الصديقى الشافعى النقشبندى ت ١٠٢٣هـ العلامة أحمد ابن ابراهيم .

ـ حال السلوك الى ملك الملوك (شرح هائية ناصر الدين بن بنت الميلق الشاذلى (خ ١٣٠٧ هـ المكتبة الازهرية .

الامام الغزالى ٥٠٥هـ .

ـ احياء علوم الدين ط لجنة نشر الثقافة الاسلامية ١٦ جزءا .

الغزى ٩٧٨ ـ ١٠٦١هـ : نجم الدين محمد :

ـ الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة ط ـ بيروت ـ ١٩٤٥م ·

ابن فارس الوفائى الشاذلى ق ٩هـ

ـ المنح الالهية فى مناقب السادة الوفائية خ ·

ابن الفرات ٧٣٥ ـ ٨٠٧هـ :

ـ تاريخ الدول والملوك · الجزء السادس عشر · تصوير ·

الفوى ١١٧٧هـ · العارف حسن شمه ،

ـ مسرة العينين بشرح حزب أبى العينين ط ·

القادرى ١٠٥٨ ـ ١١١٠هـ : عبد السلام بن الطيب بن محمد :

ـ الاشراف على نسب الاقطاب الاربعة الاشراف ط ضمن مجموعة

القاوقجى ١٣٠٥هـ : العارف محمد بن خليل الطرابلسى الحسنى :

ـ تحفة الملوك فى السير والسلوك ط القاوقجية ١٣٤٩هـ ·

القشاشى : ١٠٧١هـ : الامام صفى الدين أحمد بن محمد بن يوسف الدجانى المدنى ،

ـ السمط المجيد فى شأن البيعة والذكر وتلقينه وسلاسل أهل التوحيد ط الهند ١٣٢٧هـ ·

القشيرى ٣٦٧ ـ ٤٦٥هـ : الامام عبد الكريم بن هوازن :

الرسالة : ط ١٣٧٧ هـ . القلقشندى ت ٨٣١ هـ أبو العباس أحمد :

ـ صبح الاعشى ج ٣ ـ ط ١٣٣٣ هـ .

القوصى ٦٧٨هـ : العارف عبد الغفار بن نوح :

ـ الوحيد فى سلوك أهل التوحيد خ ـ ٢ ج سنة ١١٢١هـ ·

القيصرى : داود بن محمود ت ٧٥١هـ ·

ـ نظم الدرر ـ (وهو شرح على التائية الكبرى لابن الفارض) ·

ابن قيم الجوزية ٦٩١ ـ ٧٥١هـ ،

ـ مدارج السالكين فى شرح منازل السائرين ٣ ج ط ١٣٧٥ هـ .

ابن كثير الدمشقى ٧٧٤هـ : الحافظ اسماعيل بن عمر القرشى :

ـ البداية والنهاية فى التأريخ ·

كحالة : عمر رضا :

ـ معجم المؤلفين ط دمشق ١٣٧٧هـ ٠

الكركى ٠ ق ٠ ١٠هـ : العارف الصوفى أحمد جلال الدين بن محمد خير الدين ،

ـ لسان التعريف خ ١١٨٨هـ ٠

ـ نور الحدق ـ خ ـ ضمن مجموعة

الكمشخانوى : الامام أحمد ضياء الدين النقشبندى المجددى :

ـ جامع الاصول فى الاولياء وأوصافهم وأصول كل طريقة ط ١٣٢٨هـ ٠

الكوهن الفتحى ق ١٤هـ : الحسن بن أحمد الكوهن الشاذلى :

ـ طبقات الشاذلية ط ١٣٤٧هـ ٠

الكلاباذى : ٣٨٠هـ ؛ تاج الاسلام ابو بكر محمد :

ـ التعرف لمذهب أهل التصوف ط ١٣٨٠هـ ٠

ابن المبارك ١١٥٥هـ : الحافظ أحمد بن المبارك السجلماسى الصديقى :

ـ الابريز ط ١٣١٧هـ ٠

محمد عيد الشافعى (معاصر) ،

ـ مكانة التصوف والصوفية فى الاسلام : ط سنة ١٣٨٢هـ ٠

المخزومى الرفاعى ٧٩٣ ـ ٨٨٥هـ : الامام سراج الدين محمد :

ـ صحاح الاخبار فى نسب السادة الفاطميين الاخيار ط الهند سنة ١٣٠٦هـ ٠

المذيلة لى المدنى ١٢٤٠هـ ، العلامة محمد أمين بن حبيب :

ـ طبقات الفقهاء والعباد والزهاد ـ خ ـ ٠

المشهدى ق ١٤هـ : عبده حسن راشد :

ـ الانوار الاحمدية فى المناقب العلية ط ١٣٢١هـ ٠

(على هامش النفحات الاحمدية والجواهر الصمدانية)

ابن مغيزل ق ١٠هـ : الامام عبد القادر بن الحسين ،

ـ الكواكب الزاهرة فى اجتماع الاولياء يقظة بسيد أهل الدنيا والاخرة خط ، المكتبة الازهرية ، وقد قمنا بتصحيحه والتعليق عليه ٠

المقريزى المؤرخ المشهور ت ٨٤٥ هـ .
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ ط ـ .
المناوى ت ١٠٣١ هـ : الامام عبد الرءوف المناوى الحدادى .
ـ الكواكب الدرية ٢ ج خط ١٠١٨هـ .

أبو المواهب الشاذلى ت ٨٨٢هـ : العارف محمد بن زغران التونسى الشاذلى الوفائى .
ـ قوانين حكم الاشراق ـخ .
النبهانى ١٢٦٥ ـ ١٣٥٠ ، العلامة يوسف بن اسماعيل :
ـ جامع كرامات الاولياء ٢ ج ط ١٣٢٩ .
ـ سبيل النجاة فى الحب فى الله والبغض فى الله ط ١٣٧٣هـ .

النشابى ت ١٣٣٨هـ أبو المعارف محمد عبد الرحيم الحسنى الشاذلى الاحمدى :
ـ أسرار الحقيقة لمن سلك الطريقة ط ١٣٤٠هـ .
ـ مجموع الاوراد له ـ ط ـ طنطا ـ ١٣٤٢هـ .
النفزى ٣٥٤هـ : الامام محمد بن عبد الجبار ،
ـ المواقف والمخاطبات ، ط المستشرق اربرى ١٣٥٣هـ .
أبو الهدى الرفاعى الصيادى ١٢٦٦ ـ ١٣٢٨هـ :
ـ تنوير الابصار فى طبقات السادة الرفاعية الاخيار ، ط ١٣٠٦ هـ .
الهروى ٤٨١هـ : الامام عبد الله بن محمد بن على الحنبلى :
ـ منازل السائرين ط ١٣٢٨ هـ .
الواسطى ٦٧٤ ـ٧٤٤هـ : الامام تقى الدين عبد الرحمن بن عبد المحسن :
ـ ترياق المحبين فى طبقات خرق المشايخ العارفين ط ١٣٠٥هـ . الوترى ٩٨٠هـ : الامام ضياء الدين أحمد بن محمد الوترى :
ـ روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين ط ١٣٠٦هـ .
الوفائى ق ١٤ : محمود عفيف الدين الوفائى :
ـ معاهد التحقيق ط ١٣٢٣هـ .
اليافعى ٧٦٨هـ : الامام عبد الله بن أسعد :
ـ روض الرياحين ، ط .

ـ نشر المحاسن الغالية فى فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية ط ١٣٢٩ هـ : على هامش جامع كرامات الاولياء .

ومن المراجع فى علم البلدان

ابن مماتى ٦٠٦ هـ : الاسعد ابو المكارم بن ابى سعيد .

ـ قوانين الدواوين تحقيق د. عزيز سوريال ط ١٣٦٢ هـ .

المقريزى ٨٤٥ هـ .

ـ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والاثار ، ط .

ابن الجيعان ٨٨٥ هـ ، شرف الدين يحيى بن المقر بن الجيعان .

ـ التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ط ١٣١٦ هـ .

محمد رمزى ١٣٦٤ هـ .

ـ القاموس الجغرافى ج ٢ من القسم الثانى ط ١٩٥٨ م .

ـ القاموس الجغرافى للقطر المصرى . ط بولاق ١٨٩٩ م .



مصادر فى علوم الاجتماع والنفس والتربية والاخـلاق

ـ د. ابو مدين الشافعى : الاطمئنان النفسى .

ـ د. توفيق الطويل : الفلسفة الخلقية ط ١٩٦٠ .

ـ د. جمال زكى ، السيد يس ، اسس البحث الاجتماعى ط ١٩٦٢ .

ـ د. صادق سمعان : الفلسفة والتربية ، ط ١٩٦٢ .

ـ د. عبد العزيز القوصى ، اسس الصحة النفسية ط ١٩٤٨ .

ـ د. محمد عماد الدين اسماعيل وآخرون : قيمنا الاجتماعية واثرها فى تكوين الشخصية .

ـ . محمد يوسف موسى ، فلسفة الاخلاق فى الاسلام .

ـ تاريخ الاخلاق ١٩٤٣ .

ـ د. مصطفى سويف : علم النفس الاجتماعى ، ط ١٩٦٦ .

ـ د. مصطفى زيور واحمد فؤاد الاهوانى ، التحليل النفسى ، ط وزارة الارشاد القومى .

ـ د. مصطفى فهمى : الدوافع النفسية ، ط ١٩٥١ .

ـ الصحة النفسية فى الاسرة والمدرسة والمجتمع ط ١٩٦٣ .

ومن الكتب المترجمة

جيوم P. Guillaume ، علم نفس الجشطلت ط ١٩٦٢ .
ترجمة د. صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق .

فرويد Freud مترجمة د. محمد عثمان نجاتى : القلق ط ١٩٥٧ .

فلوجل J.C. Flugel ترجمة عثمان نويه الانسان والاخلاق والمجتمع ط ١٩٥٨ .

فنكس Phenix ترجمة د. محمد لبيب النجيحى ، فلسفة التربية ط ١٩٦٥ .

مادفيلد ـــ ترجمة ، محمد عبد الحميد أبو العزم : علم النفس والاخلاق ـــ ط ١٩٥٨ .

مصادر أجنبية فى التصوف والادب والتاريخ

Brockelmann, Carl: Geschichte der Arabischen Litteratur: 2 vols.

Depont et Coppolani: Les Confreries Religieuses Musulmanes. Algerie 1897.

Le Chatelier et Coppolani: Les Confreries Musulmanes du Hedjas — Paris 1887.

معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى للمستشرق زامباور ـــ ط جامعة القاهرة ١٩٥١ .

محتويات الكتاب





١٩٩٢/ ٩٣٩٤

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر



مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

